فيكتور هوجو

NOVEL

البؤساء

Les Misérables



البؤساء

اسم الكتاب : البؤساء

المؤلف : فيكتور هوجو

ترجمه : سامي الدروبي

الناشر : دار الراوي

رقم الايداع : 2017 / 15302

الترقيم الدولي : 978-977-355-054-2

البؤساء

مقدمة

فيكتور هيغو (1802 – 1885م) Vicotr Hugo
والبؤساء Les Miserables

يحتلّ فيكتور هيغو مكانة مميّزة في تاريخ الأدب الفرنسيّ، فقد ألقى ظلّه على القرن التاسع عشر بكامله، سواء بنتاجه الأدبيّ الضخم أم بمواقفه السياسيّة.

ولد في 26 شباط (فبراير) 1802م في مدينة بيزنسون الفرنسية، وكان والده ضابطًا عاليَ الرتبة، ثم نال لقب كونت. قضى الكاتب طفولته وفتونه في باريس باستثناء مدة قصيرة اصطحبه فيها أهله للإقامة في إيطاليا ثم إسبانيا التي احتفظ منها بذكريات وتأثيرات. وفي باريس تلقي دروسه بتفوّق، وفي سنّ مبكّرة، ألّف قصائده الأولى، وارتسم طموحه البعيد، وكان مثاله الأعلى في الشهرة والمجد الأدبيّ مواطنه الكاتب والشاعر شاتوبريان. وكان ما يزال في الخامسة عشرة عندما نال جائزة من الأكاديمية الفرنسية، وجائزة أخرى من مدينة تولوز بعد ذلك بسنتين. وبهذا التقدير الأدبي الذي لَقِيَهُ، استطاع أن يُقنع والده بصحة اتجاهه إلى الأدب، متخلّيًا بذلك عن الدراسات العلمية أو الحقوقية التي كان يريدها له أبوه.

سنة 1819م، أصدر هيغو مجلّة أدبية تمرّس فيها بالعمل الصحفيّ والأدبيّ. وفي العشرين من عمره تزوّج فرُزق أربعة أولاد. وابتداء من سنة 1822م بدأ ينشر

مجموعاته الشعرية وبعض أعماله القصصية. وبرز هيغو في طليعة أدباء عصره، وبات منزله مركز «الندوة» التي ضمّت روّاد الحركة الرومنطيقية. وترسخت أعماله القصصية بنشر رواية نوتر دام دو باري (1831م) التي ظهرت من خلالها مهارته التعبيرية وقوّة خياله وقدرته على إحياء التاريخ.

كان لوفاة ابنته ليوبرلدين غرّقًا مع زوجها في نهر السين (سنة 1843م) أثر هائل في نفسه، فانصرف جزئيًا عن الاهتمام الأدبيّ إلى معترك السياسة. واتّخذ مواقف متشدّدة رافضًا عقوبة الإعدام، وناقمًا على الظلم الاجتماعي. تميّز في المرحلة الأولى من حياته بمجاراة النظام القائم، وتقرّبه من أصحاب السلطة، فعيّنه الملك لويس – فيليب عضوًا في مجلس الأعيان (1845م).ثم تبدل موقفه السياسي وانتخب نائبًا عن مدينة باريس في الجمعية التأسيسية (1848م)، ثم في الجمعية التشريعية (1849م). وحاول إثارة الشعب الباريسي، لكن دعوته فشلت، ففرّ إلى ما وراء الحدود، إثر محاولة انقلاب 1851م.

قضى هيغو تسع عشرة سنة في المنفى (1851 – 1870م). وفي منفه (بلجيكا) كتب القسم الأهمّ من نتاجه الأدبيّ، فضلاً عن القصائد ذات المنحى السياسيّ المُعارض التي كان الفرنسيون يتداولونها خفيةً عن أعين السلطة. ونشر رواية «البؤساء» سنة 1862م ثم عمّال البحر، والرجل الضاحك. وعاد إلى باريس فور إعلان الجمهورية.

استمرّ هيغو مبرّزًا في الحقل السياسي، وانتُخب نائبًا في الجمعية الوطنية (1871م)، وأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ لمدى الحياة منذ 1876م، والسياسيّ الذي استقطب أنصار الحكم الجمهوريّ، والكاتبَ الأوسع شعبية في فرنسا. فبمناسبة

عيد ميلاده الثمانين، قام مواطنوه بمسيرة حاشدة لا ليكرّموا ثمانية عقود من الشعر والإبداع الأدبي والعبقرية فحسب، بل ليحيّوا قرنًا كاملاً من تاريخ فرنسا، كان هيغو شاهده الأكبر في مؤلّفاته، وأحد أبرز مناضليه السياسيين.

توفي في 22 أيار (مايو) 1885م، وأقيم له في الأول من حزيران (يونيو) مأتم رسمي وشعبي حاشد، وسار الباريسيون خلف جثمانه من قوس النصر إلى مبنى البانيون حيث يرقد عظماء الأمّة الفرنسية. وفي وصف هذا المشهد المهيب كتب موريس باريس (M. Barres): «إن نَهْرَنا الفرنسيّ تدفّق، من منتصف النهار إلى السادسة مساء، بين ضفَتين هائلتين من الشعب المتزاحم على الأرصفة، المتعالي على السلالم، المتراكم على الشُّرَف، المحتشد على السطوح. إن حدثًا تتجسّد فيه الوحدة والحماسة، هائلاً كأعظم مشهدٍ في الطبيعة، يتحقّق عرفانًا لشاعرٍ – نبيّ، لعجوزٍ استطاع، طَوال حياته، بنزعته المثالية وتطلُّعاته الطوباوية، أن يُلهب قلوب الناس، إنه حقًّا لأمرٌ جدير بإحياء أكبر الآمال».

ترك فيكتور هيغو نتاجًا ضخمًا متنوّع الفنون الأدبية. ومن مؤلفاته المسرحية والشعرية والقصصية: هرتاني (1830م)، نوتر دام دو باري (1831م)، أوراق الخريف (1831م)، أناشيد الغَسَق (1835م)، الأشعة والظلال (1840م)، العقاب (1853م)، التأملات (1856م)، أسطورة العصور (1859 – 1883م)، البؤساء (1862م)، عمال البحر (1866م).

البؤساء (1862م)

بدأ هيغو كتابة روايته سنة 1845م، وبعد ثلاث سنوات، توقّف مدّة طويلة، قبل أن يعاود كتابتها ويصدرها سنة 1862م. وقد مهّد المؤلف لكتابه بإيجاز،

قال: «ما دام في العالم، بفعل الشرائع والعادات، ظلمٌ اجتماعيٌّ بخلق، في صميم الحضارة، ضروريًا من الجحيم، ويعقّد العرس الإلهيّ بقدر بشريّ مصطنع، وما بقيَتْ، من دول حلّ، المشكلاتُ الثلاث الأساسي في العصر: انحطاط الإنسان في الطبقات الدنيا، وسقوط المرأة بسبب الجوع، وذبول الطفولة في ليل الضياع والبؤس، وما دام على الأرض جهل وشقاء، فإن كتبًا من هذا النوع، لا يمكن أن تكون بلا جدوى».

بهذا الإيجاز رسم الكاتب المَعالم الكبرى لروايته، ناقمًا على الشرائع البشرية والتقاليد الاجتماعية التي تقع ضحاياها مجموعةٌ من الناس هم اليانسون المغاليون مصائرَهم وأولئك التابعون أقدارهم، على حدّ سواء.

وفي هذا الإطار الشامل، وضع المؤلف عمله الضخم الذي جمع فيه قضايا السياسة والتاريخ والمجتمع، والواقعية والمثالية، والتأمّلات الفلسفية، وما يحتمل في نفس الإنسان من تأزّم وصراع... ففي «البؤساء» تصوير للتيارات السياسية المتنازعة بين الملكية والديمقراطية، ودلالات تاريخية كمعركة واترلو وأحداث باريس، 1930م، 1932م، 1848م، والحواجز والمتاريس... وفيها نقدًا للصحافة التي تروي الخبر بلا تتبع، لإهمال أو لأهداف معيّنة، فتقلب الحقائق إلى نقيضها، وفيها نقدٌ للمحاكمات القضائية التي تستند إلى أوهام الشهود، وتُصدر الأحكام على أبرياء، بجرائم سواهم، وفيها نزعة إنسانية ديموقراطية، فمقابل البورجوازي المنقم شعبٌ معذب مقهور مغلوب على أمره، وإزاء ورذائل الأشخاص المرموقين فضائلُ البائسين، المنحطين طبقيًا، المحكومين ظلمًا، والفتيات المرغمات على الضياع، وتجاه طبقة النبلاء

والقادة حملة الألقاب، مجرمون وأشقياء ولصوص.... في الرواية، فضلاً عن كل هذا المزيج، مختلفُ فئات الأعمار. وغير ذلك صَوَّرَ التناقض الاجتماعيّ بين الطفلتين تيناردييه المنتعمتين وكوزيت اليائسة التي جعلها رمزًا لمأساة الطفولة في المعاناة الجسدية والإذلال المعنوي والحرمان، وصوّر مرحلة الشباب في مظهرين متناقضين: حياةٌ لاهية غير مسؤولة ثم حياة جادّةٌ في مناقشة القضايا السياسية وتهيئة الثورة والتضحية في سبيل المبادئ العليا.

والبؤساء رواية فلسفية ودينية وراثية تمثّل التوبة ونهوض الإنسان بالندم والتكفير الطَّوعي. وهي رواية نفسية في تصوير أشدّ الحالات تأزُّمًا في أعماق الذات: موقف جان فالجان بين المجد وعذاب الضمير؛ موقف جافير بين الواجب وعرفان الجميل، موقف ماريوس بين القبض على مجرم من جهة والوفاء لوصيّة أبيه من جهة أخرى. وهي رواية غنائية (من حيث النوع الأدبي) بما عرضت من خواطر وما وصفت من مشاعر إنسانية كالعاطفة والحقد والحب والأمومة والبنوّة... وغنائية كذلك من خلال الظلال الشخصية التي ألقاها الكاتب على بعض شخصيّاته (ماريوس، جان فالجان...). وفيها تلتقي المثالية (النادم المثالي جان فالجان، والشرطي المثالي جافير، والثائر المثالي أنجولوراس...) بواقعية الوصف (البيئات البورجوازية والتقاليد الشعبية والأحياء والأزقة، والمجاري تحت مدينة باريس) حتى قال غوستاف لانسون (G. LANSON) إن واقعية إميل زولا (E. ZOLA) تجد جذورها في رواية «البؤساء» قبل أيّ مؤلّف آخر.

وفي الرواية تتلاقى الموضوعات المختلفة، والأشكال والأنواع الأدبية من

شعر ونثر ومذكرات وتاريخ وتوثيق، وفيها وثبات ملحمية وانطلاقات خيالية، كل ذلك في تكامل وائتلاف، وعبر تفاعلٍ مستمرّ أو متقطع بين النماذج الإنسانية التي جسّدتها شخصيات روايته.

شخصيات الرواية

تتعدّد الشخصيّات في هذا العمل الروائي الضخم، بعضها يشكّل عنصرًا أساسيًّا فيها ويحتلّ مساحة واسعة كجافير وتيناردييه وفانتين وكوزيت وماريوس، وبعضها الآخر يبرز دوره من خلال علاقته بهؤلاء، وقد شكّل الأسقف نقطة تحوّل في حياة بطل الرواية، وإن غاب دوره الفاعل عن أحداثها. وتنتمي الشخصيات إلى فئات سياسية واجتماعية متعدّدة. وتمثّل طبائع متباينة. أما جان فالجان فيحتلّ مكانة مميّزة، وقد جمع في شخصه عدة طبقات اجتماعية، وعدة نماذج إنسانية، بحسب المراحل التي مرّ فيها، والأدوار التي قام بها.

جان فالجان

إنه بطل الرواية، وهو لا يشكّل شخصية ثابتة، بل يتغيّر شكليًّا وخلقيًّا، ويتنقّل في مستويات متعدّدة. وتصوّره الرواية في تنازُع بين الخير والشرّ، بل في صراع عنيف بينهما. كان فتى طيّب القلب. يعمل بجهد في سبيل من يَعولهم، ثم قُبض عليه وسُجن لأنه سرق خبزًا من أحد الأفران، وفرّ مرارًا، وأعيد إلى حبسه، واستمر في الأشغال الشاقة تسعة عشر عامًا.

خرج من السجون وهو في أواسط العقد الخامس من عمره، وعلى أرَثّ ما يكون من اللباس: قميص خشن، وبنطال مرقّع، وعلى أشدُ ما يكون من الحقد على المجتمع الظالم. وبعد مسيرة يوم كامل من التعب والجوع، كان الناس

يرفضونه، والأطفال يتبعونه ويرمونه بالحجارة، والأسقف هو أوّل من أعاد إليه كرامته الإنسانية، وقيمته الاجتماعية، ودعاه «السيّد»، وأحسن إليه، وعفا عنه عندما سرق بعض الأواني الفضية من منزله، فحصل في نفس جان فالجان تحوُّل عظيم.

ونرى الرجل يُنقد الناس بقوّته الجسدية الفائقة، ويساعدهم بأعمال الخير. يؤسس صناعة مزدهرة تحيي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة موتقورميل، وتكسبه المال والمجد والشهرة ومحنة الناس، فيعيّنه الملك عُمدةً، ويمنحه وسام «جوقة الشرف». وكما كان صعوده في المجد سريعًا، كذلك كان انحداره إلى الحضيض. فقد نشأ في نفسه صراع بين مصلحته الخاصة وضميره، عندما عرف أن أحد الأبرياء يحاكَم بجرم كان جان فالجان قد اقترفه، فتخلّى عن مجده الاجتماعي وذهب إلى المحكمة ليعلن، في جو من الدهشة الخانقة، براءة المتّهم، ويكشف أنه المجرم المطلوب، فيُلقى في السجن.

بعد فراره، قصد الطفلة كوزيت وخلّصها من الأسرة الظالمة التي كانت أمها قد أسلمتها إليها، ولجأ معها إلى دير حيث عمل بستانيًا. وعندما شعر أن رجال الشرطة قد نسوه، عاد إلى باريس، يعيش حياة الطبقة البورجوزازية موزّعًا وقته بين التنزّه والمطالعة وعمل الخير، وهناك تزوجت كوزيت ماريوس فأخبره جان فالجان بعض حقيقته فغضب عليه، ثم عرف ماريوس الحقيقة الكاملة، وأنه أنقذه من الموت، فذهب إليه مستغفرًا، وكان جان فالجان في لحظاته الأخيرة، فأسلم الروح رضيَّ البال، بين يدي ماريوس وكوزيت.

كوزيت

تظهر كوزيت في شخصيّتين مختلفتين تبعًا للمرحلة الزمنية من حياتها: فهي فتاة صغيرة تعيش حياة تعسة، ثم ينقذها جان فالجان، وينتقل بها إلى أحد الأديار حيث يقضيان سنوات، ثمّ يغادران إلى باريس، وتتعرف إلى ماريوس ويتحابّان ويتزوّجان.

كانت في الثالثة من عمرها حين اضطرت والدتها إلى تركها لدى عائلة تياردية التي عاملتها بقسوة، فكانت تؤنبها وتضربها وتكلّفها القيام بالأعمال المنزلية وبحمل الماء من النبع، بينما كانت ابنتا تلك العائلة تلهوان وتتعمان. ومن أقسى اللحظات التي عاشتها كانت ليلة عيد الميلاد، عندما أُرسلت تستقي الماء من النبع، فعانت الخوف الشديد، ولكن في الوقت نفسه لقَيَتْ رجلاً قويًا وطيّب القلب مُحسنًا (هو جان فالجان) حمل عنها الماء، ثم خلّصها من العائلة الظالمة، لتبدأ مرحلة من الحياة الكريمة السعيدة، مع وليّ أمرها الجديد، في أحد الأديار.

بعد خروجها من الدير، كانت كوزيت قد أص بحت في حدود الخامسة عشرة من عمرها، وكانت بديعة الجمال، أنيقة المظهر، وعندما التقاها ماريوس في إحدى حدائق العاصمة الفرنسية، لم يتمالك من الوقوع في حبّها. وفي بادئ الأمر، أخفت كوزيت هذا الحبّ، ولم تُخبر به جان فالجان، وبعد الزواج السعيد، اضطرّت إلى الامتناع عن زيارته، ثم عرفت بعض الحقائق التي بذلت موقفها، وأقرت بفضل جان فالجان على ماريوس، كفضله عليها.

ماريوس

ينتمي ماريوس إلى عائلة ميسورة، عاش طفولة هانئة تختلف كليًا عن

الطفولة البائسة التي عاشتها كوزيت. وكان فتًى قويّ البنية، جميل الشكل، لفت نظر الفتيات. ولم تكن كوزيت هي الوحيدة التي أُعجبت به، بل كذلك إحدى ابنتي عائلة تيناردييه. والظاهر أن هيغو جعل ماريوس من بعض الجوانب مشابهًا له، سوءً من الناحية الشكلية أم من حيث المواقف السياسية، فقد تقلّب ماريوس من الميل إلى الملكية، ثم إلى بونابرت، ثم إلى الجمهورية التي دافع عنها مناضلاً على جبهات القتال.

تمتاز فتوّة ماريوس بشعورين جارفين: الأول هو الوفاء لأبيه المتوفّي، فقد عاش ممجّدًا ذكراه. ولأن أباه كان من أنصار بونابرت، قطع ماريوس صلته بجدّه وهو من أنصار الملكية، وحُرم المال الذي كان يُغدفه عليه، فعاش فقيرًا، خلال السنوات التي قضاها في الجامعة. أما الشعور الجارف الآخر فهو حبّة لكوزيت، وقد اعترضته الصعاب، لكنه تغلّب عليها، وحقّق مع الحبيبة حلم حياته.

فانتين

تمثّل الفتاة التي تعبت بها الحياة. فأثناء إقامتها في باريس التقاها أحد الشبّان فتحابّا، ثمّ غادرها تاركًا في أحشائها تلك التي ستدعى، عند ولادتها، كوزيت. عاشت فانتين حياة بائسة، واضطرّت إلى التخلّي عن تربية ابنتها، بإيداعها لدى إحدى العائلات، خوفًا من العار. وكانت «تمتلك ثروة من شعرها الذهبي وأسنانها اللؤلؤية» لكنّها اضطرّت إلى بيعها لتدفع ثمنها لتلك الأسرة الجَشِيمة لقاء الاهتمام بابنتها، وتردّت تلك المرأة البائسة في مهاوي الضياع، ولم تجد العطف إلا لدى جان فالجان الذي رافقها حتّى ساعاتها الأخيرة.

جافير

شخصيّة تمثّل رجل الشرطة المصرّ على أداء واجبه بحزم، مهما تكن الظروف. وحين يتناقض الواجب الوظيفي بإلقاء القبض على جان فالجان، مع الإقرار الوجداني العميق بفضل غريمه عليه، يفضل الموت انتحارًا في نهر السين، على الإخلال بالواجب ونكران الجميل.

وثمّة شخصيّات أخرى تمثّل بعض وجوه المجتمع في كل زمان، من خلال زمانها، كتيتاردييه وزوجته المميّزين بالجشع والقسوة، كما بالدناءة والاحتيال في سبيل كسب المال. وفي مقابل ذلك نرى الروح الإنساني والتسامح والرحمة ممثلة بشخص الأسقف الذي أعاد إلى جان فالجان شعوره بالكرامة الإنسانية.

وخلاصة القول إن رواية البؤساء، عمل أدبيّ جليل، شاهد على عصر من النزاع السياسيّ والتنوّع الاجتماعي، كما هو شاهد على وجوه متعدّدة على صعيد الطبائع الإنسانية، من أنبلها إلى أحطها، ومن أرحمها إلى أقساها، وإلى الصراع بين الخير والشر في مراحل الحياة، بل في اللحظة الواحدة.

يقول الدكتور جبور عبد النور عن رواية البؤساء:

«تتلاقى فيها خاصّةُ القصة التاريخية لأنها كناية عن ملحمة نثرية في عرضها لمرحلة حاسمة من حياة الشعب الفرنسي، وخاصّةُ القصة الاجتماعية والفلسفية لأنها تعني بالطبقات الوضيعة وتوقعها إلى حياة أفضل في كسب الرزق، وتأمين المسكن، والتنقم بالحرية. وقد شمل المؤلف بلفظة «البؤساء» جميع الفقراء، والمعذبين في الأرض، والمظلومين الذين يُستغلون في سبيل طبقة ثريّة، منعَّمة، غاشمة (ظالمة). وأدار الأحداث كلّها حول محور أساسيّ هو البطل، ومحاور ثانوية

معاونة له لإكمال الصورة التي تصدّى لرسمها. فأبرز شخصية جان فالجان الذي زُجَّ في الأشغال الشاقّة لأنه سرق أرغفة معدودة لإطعام جياع، وهرب من سجنه، وحاول إعادة بناء حياته على أساس شريف وإنساني، محسنًا إلى الفقراء، مساعدًا المساكين، رافعًا الحيف عن الضعفاء والمظلومين. وقد اتّخذ فكتور هيغو من بطله رمزًا لشعب باريس في تصدّيه للمظالم، ونضاله في سبيل كرامته، وفي معاناته البؤس والمرض والجهل، فكأننا بجان فالجان هو باريس كلّها، وكأننا بباريس هي العالم برمّته. وأقحم في صفحاتها مشاهد نابضة بالحياة عن قتال الشوارع والمتاريس، ممثلاً فيها واقع الانتفاضات الدموية، مبرزًا عددًا من الشخصيات في أجمل ملامحها، وأعلقها بالقلب والذهن كالشّرطي جافير ممثل الانصياع المطلق للواجب، وتيناردييه الجشع، المجرم المحتال، وفانتين التي سحقها الظلم، وماريوس وكوزيت الفتي والفتاة المتحابَّين اللّذين يُحققان أمانيهما بعد عذاب مرير» (المعجم الأدبي، ص 548 – 550).

وقد رغبت دار الجيل في إعادة نشر الترجمة العربية لهذه الرواية، وكانت قد صدرت في منشورات المكتبة الثقافية، فراجعتُ النصّ العربي وصححته (فليس لي فضل الترجمة)، ووضعت شرحًا لمفرداته، ومهّدت له بمقدمة، وأتبعته بأسئلة قد تساعد في فهم النص، وفي اللّفت إلى بعض القضايا اللغوية في سبيل الإفادة التربوية من هذا العمل الأدبيّ والأثر الإنسانيّ، والله وليّ التوفيق[1].

(1) ملاحظة: اعتمدنا «البؤساء» لشهرة الرواية بهذا العنوان، لكنَّ الصحيح أنْ جمع بائس «بؤسَ وبائسون».

– ثمة دراسات كثيرة تتناول فيكتور هيغو «البؤساء»، منها:

-- Barriere, J. B, Hugo. !hhomme et l'eurre, Paris, 1959.

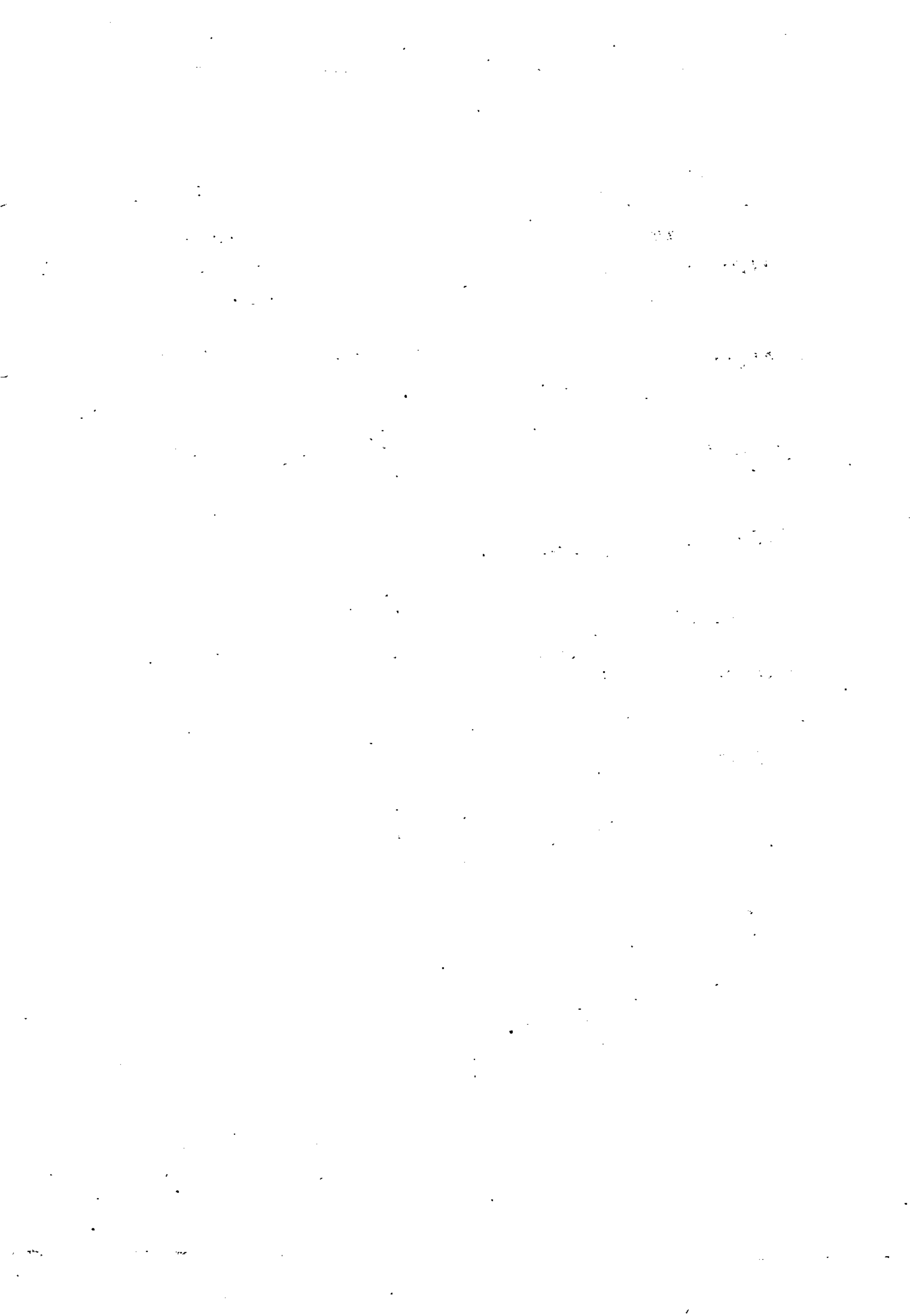
- Chraim, J., a vuior Hugo en arage. Une lentarive, un difu, dans victor Hugo, actes du colloque organise a l'occation du biconicnaite de la taissince, 28 – 30 oct. 2002, U.S.E.K. Kaslik, Liban, 2003.
- Gely, C., Les Miserableu de victor Hugo, Mont – de, Marsan, Ed Interuniversitaire, 1995.
- Journet, R., et G. Robert, Le Mythe du people dans les Miserables, Paris, 1964.
- Rosa, G. Victor Hugo, Les Muerables, Kllexsicek, 1995.
- Ubersfeld, A. et G. Rosa..., Lire «Les Mizerablese, Libratite I. Cori, 1985.

ثَبَت أسماء الأشخاص المذكورين في الرواية(*)

إيونين	E.ponire	سميليس	Simplice
أزيلما	Azelmn	شانساتيو	Champmath-neu
أنجولراس	Enjolraa	شيلديو	Chineldieu
باتستين	Baptistie	فانوربت	Favontre
باسك	Bassque	فاميل	Fameuil
باماتابوا	Bamatabois	فانتين	Fastine
بريفيه	Brevet	فوشليفان	Fauchelevent
بلاشفيل	Blachevebe	كورفيراك	Courfeyrac
بولان	Paolin	كوزيت	Cosette
بونمرسي	Pontmercy	كوشياي	Cochepaille

(*) وُضعت هذه اللائحة للمساعدة على قراءة الأسماء قراءة صحيحة.

Laburre	لابار	Tbolomyes	تولوميس
Listoles	لستوليه	Javert	جافير
Magloire	ماجلوار	Gervails	جرفيه
Madeleine	مادلين	Joaephioe	جوزلين
Mauhetr	موبير	Jondreite	جوندريت
Mon-puroasse	مونيارتاس	Jillenor-mand	جيلنورمان
Myrisel	ميريل	Dahlia	داليا
nicolette	نيكوليت	Scuufflaire	سكوفلير



القسم الأول - جان فالجان

الفصل الأول

الأسقف

لا يعلم الناس من أمر الأب شارل فرنسوا ميريل أسقف «برينول» إلا أنه انحدر من أسرة كريمة في «إكس» وأن أباه كان عضوًا في مجلس النواب. وقد زوّجه أبوه وهو في سنّ العشرين، وعنِيّ بإعداده[1] لكي يخلُفَه[2] في كرسيّ النيابة كما هي العادة في بعض الأسر.

لكنّ الفتى كان وقتئذ متينَ البناء، رشيق القامة، سريع الخاطر، ممتلئًا قوة وفتوّة، فأثَر[3] دنياه على دينه، وقضى أيام شبابه الأولى في إشباع شهواته الدنيوية.

ثم نشبت الثورة الكبرى، وتبعثرت الأسر العريقة[4]، فرحل شارل سيريل بزوجته إلى إيطاليا.

---

(1) إعداده: تهيئته.

(2) يخلفه: يحلّ مكانه، يأتي بعده.

(3) فائز: اختار وفضل.

(4) الأسر العريقة: العائلات الأصيلة، الكريمة الأصل.

وهناك أصيبت الزوجة بذات الرئة، وقضت نحبها[1] دون أن تنسل[2].

ولا أحد يعلم على وجه التحقيق نوع الأزمات والكوارث التي تعرَّض لها شارل ميريل بعد ذلك. فكلّ ما يعرفه الناس عنه أنه، عندما عاد من إيطاليا، كان يرتدي ثياب.

كان قد تقدّم في السن وركبته الشيخوخة، واستحال[3] رجلاً آخر، فأقام في برينول مع أخته الآنسة «باتستين» وخادمته مدام «ماجنوار».

لم تكن باتستين على شيء من الجمال، فهي طويلة القامة نحيفة الجسم شاحبة اللون. ولكنها وقفت كلَّ حياتها على العبادة[4] والابتهال[5] وعمل الخير، فخلع عليها ذلك كلّه مع تقدمها في السنّ شيئًا من النقاوة وجمال التقوى.

وأما مدام ماجلوار فقد كانت قصيرة بدينة[6] لاهثة الأنفاس على الدوام لسببَين، أحدهما نشاطها وخفّة حركتها، وثانيهما إصابتها بأزمة تنفّسية مزمنة.

* * *

أقام الأب ميريل في قصر الأبرشية[7]، وهو قصر عظيم شُيّد في بداية

---

(1) قضت نحبها: تُوفيت.

(2) تنسل: تلد، تنجب أولادًا.

(3) استحال: تحوّل، تبدّل.

(4) وقفت حياتها على العبادة: خصصتها للعبادة.

(5) الابتهال: الصلاة.

(6) بدينة: سمينة.

(7) الأبرشية: كلمة في الأصل يونانية، وهي تعني كل ما كان تحت ولاية أسقف من أماكن وأشخاص.

القرن السابق وأحيط بحديقة واسعة. وكان أوّل ما فعله أنه زار مستشفى المدينة فألفاه[1] قديمًا ضيقًا لا يكاد يتّسع للمرضى، فانتقل إلى المستشفى، ونقل المرضى إلى القصر.

لم يكن الرجل ذا ثروة. فقد عصفت الثورة بأملاك أسرته، وبقي بأخته إيراد مستوى لا يتجاوز خمسمائة فرنك، وعلى هذا الإيراد كان الأب ميريل يعتمد في نفقاته الشخصية.

أما مُرَتَّبه[2] بصفته أسقف برينول – وهو 15 ألف فرنك في العام – فإنه رصده[3] جميعَه لأعمال الخير والبِرّ[4] للفقراء وإغاثة[5] الملهوفين[6]. ورتّب ميزانيته على هذا الأساس، وعرضها على شقيقته باتستين، فابتسمت ووافقت عليها في الحال، ذلك لأن هذه المرأة الملائكية كانت ترى في الأب ميريل أخاها. فهي تحبه، وتحترمه، وتحني رأسها إذا تكلم، وتوافق إذا فعل.

* * *

وكان للأسقف إيراد آخر غير محدود من المناسبات المتصلة بأعمال الكنسية، كالزواج والعماد وغيرهما... وفي هذه المناسبات كان الرجل يلحّ في

(1) ألفاه: وجده.

(2) مرتبه: معاشه، أجر عمله.

(3) رصده لأعمال الخير: جعله مخصصًا كليًا لأعمال الخير.

(4) البر: الإحسان.

(5) إغاثة: نجدة، مساعدة.

(6) الملهوف: الشديد الحاجة.

تحصيل أجره من الأغنياء، لا لشيء إلا ليوزّعَه على الفقراء.

ثم كانت له بحكم عمله مركبة خاصة، فتبرّع بها لنقل المرضى إلى المستشفى. وراح يقوم بزياراته إلى كنائس أبرشيّته المترامية الأطراف[1] سيرًا على قدميه.

وحدث، ذات يوم، أن ذهب لزيارة كنيسة مدينة «سيبز» وكانت الرحلة شاقة، والطريق وعرًا، فاضطرّ أن يمتطي حمارًا.

وكان العمدة[2] وبعض أعيان المدينة[3] في انتظاره لتحيّته والترحيب به. وقد توقَّعوا أن يرَوْه قادمًا في المركبة الفخمة التي كان يستخدمها سلَفه[4]، فهالهم أن[5] يرَوْه ممتطيًا حمارًا. وكانت المفاجأة من الغرابة بحيث لم يتمالك بعض الحاضرين من الضحك. فقال القسّ محدِّثًا العمدة ومن معه: «معذرة أيها السادة، لا شك أن أدهشكم أن يجزر قسّ رقيق الحال[6] مثلي، على ركوب حيوان امتطاه السيد المسيح في أحد الأيام. ولكني أؤكد لكم أنني امتطيته اضطرارًا لا زهوًا[7] وخُيَلاء[8]».

(1) المترامية الأطراف: المتباعدة النواحي.
(2) العمدة: المسؤول الأساسي في البلدة، رئيس البلدية أو نحوه.
(3) أعيان المدينة: وجهاؤها.
(4) سلفه: سابقه، من كان قبله في المنصب نفسه.
(5) هالهم أن..: بمعنى استغربوا كثيرًا.
(6) رقيق الحال: فقير، قليل المال.
(7) زهوًا: تفاخرًا.
(8) خيلاء: كبرياء.

كانت للأسقف طريقته الخاصة في الحكم على الأشياء.

فقد سمع ذات يوم بقضية تَقَرَّر النظر فيها أمام محكمة برينول، وهي قضية رجل ضاقت به الحياة، فاصطنع نقودًا زائفة[1]، لإطعام زوجته وولده. وكانت عقوبة التزييف في ذلك العهد هي الإعدام.

ومن سوء حظ الرجل أن زوجته ما كادت تعرض للتداول أول قطعة صنعها حتى افتضح أمرها وأُلقي القبض عليها.

ولم يكن من دليل على جرم الرجل إلا أن تعترف زوجته وترشد[2] إليه، وتسوقه إلى التَّهْلِكة[3].

لكن المرأة أنكرت، وَضيّق المحقق الخناق عليها، فأمعنت[4] في الإنكار. وأخيرًا خطر للمحقق خاطر، فأوهم المرأة أن زوجها يخونها، وأنه اتّخذ لنفسه من دونها خليلة[5]، وأقنعها برسائلّ اصطنعها[6] لهذا الغرض. فدبَّت الغيرة في قلب المرأة دبيبت الموت في الحياة، واعترفت بكل شيء، وقدمت من الأدلة ما يكفي لإدانة الزوج.

وهكذا ضاع الزوج التعس، وأُرسل إلى السجن انتظارًا للمحاكمة.

---

(1) زائفة: مزَوَّرة.

(2) ترشد: تدلّ.

(3) التهلكة: الهلاك، الموت، والمراد هنا الإعدام لأنه عقوبة التزوير.

(4) امعنت: استمرت، ثابرت.

(5) خليلة: عشيقة.

(6) اصطنعا: زوّرها.

وتحدَّث الناس ببراعة المحقق وبُعْدِ نظره، أطرَوا[1] دهاءه[2] ومقدرته على استغلال غيرة المرأة وتسخير العاطفة لإبراز الحقيقة.

وسمع الأسقف هذه القصة فسأل: وأين يحاكَم الرجل وزوجته؟

فأجيب: أمام محكمة الجنايات.

قال الأسقف: وأين يُحاكَم المحقِّق؟

* * *

وكان الأب ميريل على استعداد في كل ساعة من ساعات الليل والنهار لتلبية دعوة المريض أو المحتضر[3]. بل لم يكن يترك للعائلة المنكوبة والثكلى[4] فرصة لدعوته، لأنه كان يذهب إليها من تلقاء نفسه.

وكان يعرف كيف يجلس الساعات الطويلة صامتًا بجانب الزوج الذي فقد امرأته المحبوبة، أو بجانب الأم التي اختطف الموت فلذة كَبِدها[5].

وكما كان يعرف متى يصمت، كذلك كان يعرف متى يجب عليه أن يتكلَّم، ليُدخل السُّلوّ[6] والعزاء إلى نفس المنكوب. وهو عندئذ لا يعمل على محو الحزن بالنسيان، بل ينفخ في الحزن روح الأمل فيجعل منه شيئًا نبيلاً ساميًا.

---

(1) أطروا: مدحوا.

(2) الدهاء: المكر.

(3) المحتضر: المنازع.

(4) الثكلي: التي فقدت ولدًا لها.

(5) فلذة كبدها: المرأة ولدُها.

(6) السلوّ: النسيان والعزاء.

وكان المنزل الذي يُقيم فيه الأسقف يتألف من طابقين: طابق أرضي فيه ثلاث غرف، إحداها للطعام والثانية لنوم الأسقف والثالثة لإيواء الضيوف، وطابق علوي تُقيم فيه المرأتان.

أما الغرفة الصغيرة القائمة في ركن[1] الحديقة، والتي كانت في ما مضى مطبخًا للمستشفى، فقد وضع فيها الأسقف بقرتَيْه الحلوبتين اللتين اعتاد أن يرسل نصف ألبانهما إلى المستشفى في كل صباح.

ولما كانت غرفة نومه فسيحة جدًّا تصعب تدفئتها في الشتاء، وكان الخشب نادرًا غالي الثمن، فإنه وضع في حظيرة البقرتين حاجزًا شطَرَها إلى شطرين، جعل أحدهما للبقرتين، واتخذ الثاني مخدعًا[2] لمبيته[3] في الشتاء.

أما أثاث المنزل فكان متناهيًا في البساطة، وأثمن ما فيه بعض الصحاف[4] الفضية، وشمعدانان من الفضة ورثهما الأسقف عن عمَّته، فإذا جاء ضيف لتناول طعام العشاء، أسرعت مدام ماجلوار فأضاء الشمعدانين ووضعت الصحاف الفضية على المائدة.

ومتى رُفع الطعام، أعيد الشمعدانان إلى مكانهما فوق الموقد، ووُضِعَتِ الصُحاف في خزانة جرت العادة أن يُترك بابها مفتوحًا.

---

(1) ركن: زاوية.
(2) مخدعًا: غرفة.
(3) لمبيته: لقضاء الليل، لنومه.
(4) الصحاف: الصحون الكبيرة الواسعة.

ولا عجب في ذلك فالأبواب في منزل الأسقف كانت تُترك مفتوحة ليل نهارَ.

كانت لهذه الأبواب مزاليجُ[1] من حديد، ولكن الأسقف أزالها جميعا ليتمكّن عابر السبيل[2] من الدخول في كل وقت.

وقد ذُعرت المرأتان، وأشفقتا[3] من هذه الأبواب التي لا تُغلق أبدًا. فقال الأسقف في هدوء: بابان يجب ألا يُغلقا، باب الطبيب وباب القسّ.

(1) مزاليج: مفردها مزلاج: ما يستعمل لإغلاق الأبواب.

(2) عابر السبيل: المارّ على الطريق.

(3) أشفقتا: هنا بمعنى خافتا.

الفصل الثاني

عابر السبيل

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب عندما دخل برينوّل عابرٌ سبيل يمشي على مهل وينتزع قدميه من الأرض انتزاعًا.

وكان بعض سكان المدينة الصغيرة يُطلّون من نوافذهم، فنظروا إلى القادم بعيون ملؤها الخوف والقلق، ذلك لأن أحدًا منهم لم يكن إنسانًا في مثل رثاثته[1] وهَوّل منظره.

كان الرجل متوسط القامة متين البنية، قويّ العضلات، يُخيَّل للناظر إليه أنه في السادسة أو الثامنة والأربعين من عمره. وهو يرتدي ثوبًا أصفر اللون يكشف عن صدر تنمو فيه غابة من الشعر الأسود، وسروالاً أزرق تطل منه إحدى ركبتيه، وقبعة عريضة تُخفي نصف وجهه الذي لفحته الشمس[2]، وقد أمسك بيده عصا طويلة كثيرة العُقد، وتدلّت فوق ظهره حقيبة منتفخة بما فيها.

ولابد أن يكون الرجل قد قضى النهار كله سائرًا على قدمه تحت أشعة الشمس المحرقة، فقد كان ضعيفًا منهوك القوى[3]، والغبار يعلو ثيابه، والعرق ينصب على وجهه.

---

(1) رثاثته: أي ثيابه البالية.

(2) ألفحته الشمس: أصابته بحرّها.

(3) منهوك القوى: شديد التعب.

ولابد أنه كان يعشر بظمأ[1] شديد، فقد أبصرته بعض النساء وهو يغترف الماء من نافورة تحت الأشجار في شارع «جازندي»، ثم أبصره العثمان وهو يزدرد[2] الماء من نافورة أخرى في وسط المدينة.

وما إن بلغ الرجل شارع «بواشفير» حتى انحدر إلى اليسار، ودخل مكتب البوليس وقضى هناك ربع ساعة تقريبًا.

وكان باب لمكتب شرطيٌّ قد جلس على مقعد حجري هناك، فرفع الرجل قبعته وحيًا الشرطي باحترام وخضوع، ولم يرُّد الشرطي فحيه، بل نظر إليه طويلاً، ثم نهض من مكانه ودخل المكتب.

قصد عابرُ السبيل حانة كبيرة يملكها رجل يُدعى «لابار». وكان لمطبخ الحانة باب يؤدى[3] إلى الشارع، فنفذ الرجل إلى المطبخ، وألقى بنفسه بين طائفة[4] من الأفران والمواقد تتلظى[5] فيها النيران تحت شرائح اللحم وأواني الطعام.

وشعر صاحب الحانة بدخول الرجل، فرمقه[6] بنظرة سريعة، ثم سأله دون أن يحوِّل عينيه[7] عن أواني الطعام: ماذا تطلب يا سيدي؟

فأجاب الرجل: أطلب طعامًا وفراشًا.

---

(1) الظمأ: العطش.
(2) يزدرد: يبتلع بسرعة.
(3) يؤدي: يرسل.
(4) طائفة: مجموعة.
(5) تتلظى: تلتهب، تشتعل بقوة.
(6) رمقه: نظر إليه.
(7) يحوِّل عينيه: يميل بنظره.

- ليس أيسر[1] من ذلك.

ورفع الرجل عينيه مرة أخرى واستطرد[2]: ليس أيسر من ذلك ما دمتَ تملك الثمن.

فأخرج الرجل من جيبه كيسًا مليئًا بالنقود وأجاب: إنّ معي نقودًا.

قال لابار: إذًا أنا في خدمتك.

فأعاد الرجل كيس النقود إلى جيبه، ورفع الحقيبة التي تثقل كاهله[3] ووضعها على الأرض، وجلس على مقعد منخفض بالقرب من إحدى المواقد.

واستمرّ صاحب الحانة في عمله، دون أن يكفّ[4] عن النظر إلى الرجل خلسة[5].

سأله الرجل: هل أعددتَ طعامًا؟

- سأعدّه فورًا.

وحوّل الرجل بصره إلى الباب لمراقبة المارّة. فتناول صاحب الحانة قلمًا، واقتطع قصاصة من جريدة قديمة كان يغطي بها إحدى الموائد، وكتب على القصاصة سطرًا أو سطرين، ثم طواها، ودعا خادمه، ودفع بها إليه، وهمس في أذنه كلامًا...

---

(1) أيسر: أسهل.
(2) استطرد: تابع كلامه.
(3) كاهله: أعلى ظهره.
(4) يكفّ: يمتنع، يتوقف.
(5) خلسة: بطريقة خفية.

تناول الخادم القصاصة وأسرع بها إلى مكتب مدير البوليس...

ولم ير عابر السبيل شيئًا من ذلك، وسأل للمرة الثانية عما إذا كان الطعام قد أُخذ.

عاد الخادم بورقة دفعها إلى سيده، فتناولها هذا بلهفة، وقرأها بإمعان، ثم هز رأسه، ووقف لحظة مفكرًا...

وأخيرًا قصد إلى حيث كان الزائر، وقال له:

- ليس في استطاعتي أن أجد لك مكانًا في حانتي يا سيدي.

فتحوّل إليه الرجل ببطء وقال: ماذا تعني؟ أتظن أنني سأحتال عليك وأخدعك؟ أتريدني أن أدفع الأجر سلفًا؟ إن معي نقودًا كما قلت لك.

- ولكن ليس في الحانة فِراش لك.

فقال الرجل في هدوء: إذًا دعني أنام في الإسطبل!

- لا أستطيع، لأن الجياد تحتلّ الإسطبل كله.

- بحبسي[1] إذًا كومة من القش أرقد[2] عليها فوق السطح، على أننا نستطيع إرجاء الكلام في هذا إلى ما بعد الطعام.

- ليس في استطاعتي أن أقدّم لك طعامًا.

- ماذا تقول؟ إنني أكاد أموت جوعًا. إنني أسير على قدمَي منذ

(1) بحسبي: يكفيني.

(2) أرقد: أنام.

بزوغ الشمس[1]، وقد قطعت اثنى عشر فرسخًا[2]. إنني أطلب طعامًا... وأستطيع أن أدفع الثمن.

فأجاب صاحب الحانة بلهجة حاسمة: لا طعامَ عندي.

فانفجر الرجل ضاحكًا، وقال وهو يلوّح بيده نحو شرائح اللحم:

- لا طعام عندك؟! ما كُل هذا إذًا؟

- هذا طعام نزلاء الحانة.

- وكم عدد هؤلاء النزلاء؟

- اثنا عشر.

- هذا الطعام يكفي عشرين شخصًا.

وتنهد.. واستطرد في هدوء: إنني في حانة، وأشعر بالجوع فكيف يُراد مني أن أظل جوعان؟!

عندئذ انحنى صاحب الحانة وقال له في همس: خير لك أن تتصرف!

فرفع الرجل رأسه بحدّه، وفتح فمه.. وهمّ بالكلام.

ولكن صاحب الحانة قاطعه بأن استطرد بذلك الصوت الخافت:

- كفى! كفى! أتريدني أن أذكر لك اسمك؟

إن اسمك جان فالجان. أتريد أن أقول لك من أنت؟

---

(1) بزوغ الشمس: أول طلوعها.

(2) الفرسخ: قياس مسافة يبلغ حوالي 8 كلم.

لقد ارتبت[1] في أمرك عندما رأيتك، فاتّصلت بمكتب البوليس وجاءني هذا الرد... أتعرف القراءة؟

قال ذلك وبسط الورقة أمام عينَي الزوائر، وأردف[2] بعد صمت قصير:

- إنني تعوّدت أن أعامل جميع الناس بالحُسنى[3]. لذلك أرجوك أن ترحل. فنهض الرجل واقفًا، وحمل حقيبته وعصاه.. وانصرف!

* * *

ومشى لِصق الجدران ببطء مشية الرجل الحزين الذليل!

لم يتلفت يمنة أو يسرة، ولم ينظر وراءه، ولو فعل لرأى صاحب الحانة واقفًا بباب حانته وحوله زبائنه وبعض المارة وهو يتحدث إليهم ويشير نحوه.

ولو رأى نظرات الذعر والارتياب[4] التي ارتسمت في عيون القوم وهم يُصغون إلى حديث صاحب الحانة لأدرك أن وجوده لن يلبث أن يصبح حديث الناس جميعًا في المدينة.

على أنه لم ينظر وراءه كما ذكرنا، لأن البؤساء لا ينظرون وراءهم، فهم يعلمون أن النحس يلازمهم، وأن الشقاء يطاردهم.

قضى الرجل وقتًا طويلاً، وهو يسير في طرقات لا يعرفها، ولي تعبه، لأن

(1) ارتبت: شككت.

(2) اردف: تابع.

(3) بالحسنى: اللين واللطف.

(4) الارتياب: الشك والحلو.

الحزن يُنسي التعب، على أنه ما لبث أن شعر بوطأة[1] الجوع ورأى الظلام يحيط به، فأدار البصر حوله في البحث عن مكان يلجأ إليه.

ورأى مصباحًا مضيئًا في آخر الشارع، فقصد إليه، ووجد أنه مصباح حانة صغيرة، فوقف أمام نافذة الحانة، وأرسل بصره إلى الداخل، فإذا بعض الناس يحتسون[2] الخمر، وإذا صاحب الحانة يحرّك طعامًا في آنية فوق الموقد.

وكان للحانة بابان: أحدهما كبير يؤدي إلى الشارع، والآخر صغير يوصل إلى فناء[3] ضيق!

ولم يجرؤ عابر السبيل على الدخول من الباب الكبير، بل تسلل إلى الفناء، ووقف قليلاً بالباب الصغير، ثم تشجّع، ودفعه بيده، ودخل.

وعندئذ هتف صاحب الحانة: مَنْ هذا؟

فكان الجواب: رجل يطلب طعامًا ومرقدًا[4]!

- هذا حسن.... ستجد مطلبك هنا.

وتحوّلت جميع الأنظار إلى الرجل وهو يرفع الحقيبة عن عاتقه[5].

قال له صاحب الحانة: إن الطعام في الموقد، فاقتربْ من النار وتدفأ إذا شئت.

فجلس الرجل على مقعد، ومد قدميه المتورّمتين من تأثير التعب.

---

(1) الوطأة: الثقل.

(2) يحتسون: يشربون شيئًا بعد شيء.

(3) فناء: ساحة أمام البيت، وهنا أمام الحانة.

(4) مرقدًا: مكانًا للنوم.

(5) عاتقه: كتفه.

وامتلأت خياشيمه بالرائحة الشهية المنبعثة من وعاء الطعام، وارتسمت على وجهه علامات الارتياح ممتزجة بتلك الكآبة التي يخلقها الشقاء الدائم.

وكان بين الموجودين رجل قضى قبل ذلك بعض الوقت في حانة «لابار»، وسمع حديث هذا الأخير عن ذلك الزائر الغريب المريب[6]، فدعا إليه صاحب الحانة وهمس في أذنه كلامًا.

أصغى إليه صاحب الحانة باهتمام. ثم قصد إلى حيث كان الزائر، وألقى بيده على كتفه وقال: يجب أن تنصرف من هنا.

فتحوّل إليه الزائر، وهتف بلطف: آه... أنت تعلم...

- نعم.

- لقد طُردتَ من الحانة الأخرى.

- وستُطردُ من هذه الحانة كذلك.

- وأين تريدني أن أذهب؟

- إذهب إلى أيّ مكان آخر.

فحملوه إلى باب الحانة بعضُ الصِّبْيَة الذين تعقَّبوه[7] منذ غادر الحانة الأولى، فما كان يخرج من الباب حتى راحوا يقذفونه بالحجارة. فتحول إليهم الرجل، وهددهم بعصاه فتفرقوا بسرعة كما يتفرق سِربٌ من الطيور.

ومر الرجل بباب السجن، ودق الجرس، فأطل الحارس من كَرّة صغيرة

(6) المريب: الذي يشير الشكوك.

(7) تعقبوه: تعود، لقوا به.

بالباب.

قال الرجل وهو يرفع قبعته بتواضع: سيدي، هل تتفضل بأن تفتح لي الباب لأقضى ليلتي هنا؟

فأجاب الحارس بصوت أجش: إن السجن ليس حانة، دعهم يُلقون القبض عليك فأفتح لك الباب عن طيب خاطر.

ولم يكن الرجل يعرف شوارع المدينة، فراح يضرب[1] في الطرقات على غير هدى، ولا يعلم إلى أين يذهب.

ومر بالكنيسة، فلوّح نحوها بقبضة يده مهددًا.

كان التعب واليأس قد هدا قواه: فتهالك على[2] مقعد حجري بالقرب من الكنيسة.

وخرجت من الكنيسة سيدة متقدمة في السن، ورأت هذا الرجل المتمدد في الظلام، فسألته في رفق[3]: ماذا تفعل هنا أيها الصديق؟

فأجابها في غلظة[4] وخشونة: ها أنت ترين أنني أطلب النوم.

- أتنام على هذا المقعد الحجري؟!

فأجاب الرجل: منذ تسعة عشر عامًا وأنا أنام على قطعة من الخشب، وهأنا الآن أرقد على حجر.

(1) يضرب: يسير.
(2) تهالك علي: تساقط علي.
(3) رفق: لطف، رأفه.
(4) غلظة: قسوة.

- هل كنت جنديًا؟

- نعم يا سيدتي...

- ولماذا لا تذهب إلى الحانة؟

- لأنني لا أملك نقودًا...

فقالت المرأة في حزن: واأسفاه، ليس لدي من النقود سوى «ستتيمين».

- في استطاعتك على كل حال أن تجودي[1] بهما عليّ:

وتناول السنتيمين.

وقالت المرأة: هذا المبلغ الزهيد لا يكفي لمبيتك في الحانة؛ ولكن يجب أن تجرّب، فأنت جوعان بغير شك... والليل هنا شديد البرود، ومن المحتمل أن تجد من يُطعمك ويؤويك[2] على سبيل الإحسان.

- إنني طرقت جميع الأبواب.

- وماذا كانت النتيجة؟

- لقد طَردني الجميع.

فألقت المرأة بيدها على ساعده، وقالت وهي تشير إلى منزل صغير بجوار الكنيسة:

تقول إنك طَرقت جميع الأبواب، فهل طَرقت هذا الباب؟

- لا.

- أطرقه إذًا.

---

(1) أن تجودي: أن تتكرّمي، الجود: الكرم، السخاء.

(2) يؤويك: يوفر لك مكانًا تلجأ إليه.

الفصل الثالث

جان فالجان

كانت مدام ماجلوار تتحدث بحدة وحماسة، وباتستين تصغى إليها في هدوء ودعة[1]. وكان موضوع الحديث تلك المزاليج الحديدية التي يأمر الأسقف بإزالتها.

والظاهر أن مدام ماجلوار كانت قد خرجت لابتياع[2] بعض الحاجات، فسمعت أحاديث الناس عن ذلك الشريد المريب الذي هبط على المدينة.

وكان رأيها أن الأسقف أخطأ حين أزال مزاليج الأبواب، ولا سيما أن الأمن في المدينة مضطرب بسبب الخلاف بين العُمدة ومدير البوليس، فكلٌ من الرجلين يَسرّه أن تتعدد الحوادث المزعجة ليُلقِيَ التّبِعة[3] على الآخر.

ودخل الأسقف في هذه الأثناء، وسمع الشطر الأخير من محاضرة مدام ما جلوار) عن وجوب الأخذ بأسباب الحيطة والحذر.

ولكنه لم يلقِ بالاً إلى حديثها، لأنه كان في شغل بالتفكير في أعمال اليوم التالي.

---

(1) الدعة: السكينة.

(2) ابتياع: شراء.

(3) التبعة: المسؤولية.

وأرادت باتستين أن تُرضي مدام ماجلوار دون أن تزعج أخاها، فقالت للأسقف:

- أَسَمِعْتَ حديث مدام ماجلوار يا أخي؟

فأجاب الأسقف في لطف: لا، لا، ماذا كانت تقول؟

فسردت مدام ماجلوار قصتها في كثير من المغالاة[1]...

قالت: إن متشردًا مريبًا عاري القدمين مُخيف المنظر قد هبط على المدينة وأراد النزول في حانة (لابار)، فطرده صاحب الحانة، وإن هذا المتشرد الذي يلوح عليه أنه سائل[2] خطر، شقيّ هارب من الليمان[3]، قد شوهد وهو يتسلل في شوارع المدينة تحت جنح الظلام.

- أحقًا تقولين يا مدام ماجلوار؟

- نعم يا سيدي، ومن رأيك ورأي الآنسة...

فقاطعتها باتستين: إنني لا أرى غير ما يراه أخي.

فقالت: مدام ماجلورا بحدة: من رأيي أن هذا المنزل ليس مأمونًا، وإذا أراد سيدي، فإنني أنطلق في الحال إلى «بولان» الحدَّاد وأطلب منه إعادة المزاليج

(1) المغالاة: المبالغة.

(2) سائل: منزل.

(3) الليمان: هذه الملفظة الفرنسية (Leman) تعني امتدادًا مائيًا داخل البرّ ناتجًا عن مصب نهر أو غير ذلك، وهي ثم ترد في النص الأصلي للرواية (PD lavre puche, 1998, 21) ولعل المراد مرفأ مدينة تولون وقد أوردها المترجم للدلالة على سجن الأشغال الشاقة هنان، و امتناعًا إلى طبعة أخرى.

إلى أماكنها في الأبواب.

نعم يا سيدي، يجب أن نرصد[1] الأبواب ولو هذه الليلة فقط، فإن في استطاعة أي عابر سبيل أن يدفع الباب الخارجي بيده ويدخل... وهذا مُخيف. ثم إن سيدي قد اعتاد أن يقول للطارق «ادخل» قبل أن يتحقق من أمره.. فإذا حدث في منتصف الليل أن....

وفي هذه اللحظة سمعوا طرقًا على الباب، فقال الأسقف: ادخل.

فانفتح الباب بقوة، وذخل الرجل الذي رأيناه يبحث عن مأوى.

كان لا يزال حاملاً حقيبته وعصاه، وعلى وجهه علامات التعب والسام[2]، وفي عينيه نظرة صارمة شرسة.

أبصرته ماجلوار، فارتجف جسمها، ولم تقو حتى على الصياح.

وحوّلت باتستين عينيها نحو القادم، فَشَلَّ الذعر حركتها لحظة، لكنها ما ثبت أن نظرت إلى أخيها وبدأ وجهها يعود إلى هدوئه والبساطة.

أما الأسقف فإنه نظر إلى الزائر ببساطة وفتح فمه ليسأله عمل يبغى[3].

ولكن الزائر لم يترك له فرصة للكلام، بل نظر إلى المرأتين بسرعة ثم أسند يديه على عصاه، وقال محدثًا الأسقف بصوت مرتفع:

- إن اسمي جان فالجان. وقد خرجت من الليمان بعد أن قضيت فيه

(1) نرصد: تُغلق، نُقفل.
(2) الملل.
(3) يبغي: يريد.

تسعة عشر عامًا. خرجت منذ أربعة أيام، واعتزمت[1] الوصول على بونتارلييه. ومنذ أربعة أيام وأنا أسير على قدمي، وقد قطعت اليوم اثنتي عشرة مرحلة، ووصلت الليلة إلى هذه المدينة، فقصدت الحانة، ولكني طُردت منها، لأنني أحمل التذكرة الصفراء التي يحملها سجين سابق، ولأنني أبرزت هذه التذكرة في مكتب البوليس كما يتعيَّن[2] علي أن أفعل في كل مكان أصل إليه.

ولما ذهبت إلى حانة أخرى طردني صاحبها أيضًا:

جميع الناس يطردونني، ولا أحد يريد أن يتصل بي.

وقد قصدت السجن، ولكن السجان رفض إيوائي.

ولجأت إلى حظيرة أحد الكلاب، ولكن الكلب عضَني وطردني، كأنه إنسان وكأنه يعرف حقيقة أمري.

وخطر لي أن أنام في الحقل، ثم تذكرت أن السماء قد تمطر وأنه لا يوجد إله يمنع المطر من أن يهطل.

وأخيرًا تمددت على حجر أمام الكنيسة حتى مرّت بي إحدى النساء، وأشارت إلى بيتك، وقالت لي: «أطرق بابه».

فأي بيت هذا؟ هل هو حانة؟!

- أنني أملك مائة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سنتا ربحتها من فعل تسعة عشر عامًا في الليمان، وأنا على استعداد لأن أدفع الأجر.

(1) اعتزمت: نويت.

(2) يتعين: يتوجب.

إنني متعب... وجوعان. فهل تسمح لي بالبقاء هنا؟

فقال الأسقف: مدام ماجلوان، ضعي صحفة[1] أخرى على مائدة الطعام.

فاقترف الزائر خطوة أخرى، وهتف كأنه لم يفهم:

صبرًا لحظة... ألم تسمعني يا سيدي؟ لقد قلت إنني سجين سابق، وإنني قادم من الليمان.

وأخرج من جيبه ورقة صفراء كبيرة، فبسطها بين يديه وأردف:

- ها هي تذكرتي الشخصية، إنها صفراء كما ترى. وفيها الكفاية لطردي من كل مكان أذهب إليه. هل تريد أن تقرأها. دعني أتلو عليك[2] ما جاء فيها، فإنني تعلمت القراءة في الليمان.

إليك ما جاء فيها يا سيدي «جان فالجان... مولود في «فافيرول». قضى في الليمان تسعة عشر عامًا، منها خمسة أعوام لارتكابه جريمة السطو، وأربعة عشر عامًا لمحاولته الفرار أربع مرات... وهو رجل شديد الخطر».

هل سمعت يا سيدي. إنني رجل شديد الخطر، وجميع الناس يجتنبونني ويطردونني، فهل ترغب مع ذلك في إيوائي؟! هل تقدّم لي طعامًا وفراشًا؟ هل لديك اصطبل أقضي فيه ليلتي؟

فقال الأسقف: مدام ماجلوار... ضعي غطاء نظيفًا على فراشي.

ولم تكن المرأتان تعرفان غير الطاعة، فانصرفت مدام جلوار. وتحوّل

(1) الصحفة: الصحن الكبير الواسع.

(2) تلو عليك: اقرأ لك.

الأسقف إلى الزائر وقال: جلس بجانب الموفد يا سيدي وتدفأ. ستتناول الطعام في التوّ[1] واللحظة.

فذهل[2] الرجل وظهر على وجهه مزيج من الشرود والشك.

ثم هتف كالمجنون: أحقًا تقول؟ أتسمح لي بالبقاء؟ وتقول لي «يا سيدي» بدلاً من أن تنتهرني[3] وتصرخ في وجهي «اذهب أيها الكلب؟!».

لقد كنت واثقًا من أنك ستطردني كما طردني الآخرون. ولذلك صارحتك بحقيقة أمري.

وإذًا، سأتناول طعامًا، وسأرقد على فراش كما يرقد سائر الناس!

إني لم أنم في فراش منذ تسعة عشر عامًا، أنت في الحق رجل رضي الخلق[4]. وسأنقدك[5] الأجرَ بسخاء[6]، ولكن بهذه المناسبة، مَنْ أنت؟! وما اسم هذه الحانة؟!

فأجاب الأسقف: إنني قسّ، وأعيش في هذا البيت.

- قسّ؟! ما أطيب قلبك أيها القس وما أشدّ غباوتي! كان يجب أن ألاحظ من ثيابك أنك من رجال الكنيسة.

---

(1) في التو: حالًا، في هذه اللحظة.
(2) ذُهل: دُهش.
(3) تنتهرني: تصيح بي.
(4) رضي الخلق: هانئ، محب.
(5) سانقدك: سأدفع لك.
(6) بسخاء: بكرم.

وكان وهو يتكلم قد وضع الحقيبة والعصا في أحد الأركان، وأعاد الورقة الصفراء إلى جيبه، واستطرد: إنك رجل رحيم لا تحتقر الآخرين يا سيدي. فما أجمل أن يكون القسّ رحيمًا! إذًا ليس من الضروري أن أدفع أجرًا!

فأجاب الأسقف: كلاء احتفظ بنقودك. في كم من الزمن ربحت هذه المائة والتسعة فرنكات؟

- في تسعة عشر عامًا.

- تسعة عشر عامًا!

وأفلتت من فم الأسقف آهة عميقة.

ومضى الرجل في حديثه فقال: ما زال المبلغ كله معي، وقد أنفقت، في هذه الأيام الأربعة، خمسة وعشرين سنتيمًا ربحتها من تفريغ عربات النقل في «جراس».

وفي هذه اللحظة، دخلت مدام ماجلوار، ووضعت على المائدة ملعقة من الفضة.

قال الأسقف: مدام ماجلوار، أرجو أن تضعي المائدة بالقرب من الموقد.

ثم التفت إلى الزائر وقال: إن الريح شديدة هذه الليلة، ولا بد أنك تشعر بالبرد يا سيدي...

وكانت أسارير[1] وجه الرجل تتبسط كلما سمع كلمة «سيدي».

(1) أسارير: خطوط الجبهة والوجه.

كان متعطشًا إلى الاحترام[1] تعطُّش الظمآن إلى الماء.

قال الأسقف: هذا المصباح يرسل ضوءًا ضئيلاً يا مدام ماجلوار.

فأدركت مدام ماجلوار غرضه[2]، وجاءت بالشمعدانين الفضيين وأضاءتهما.

قال الرجل: إنك رجل كريم يا سيدي الأسقف، فأنت لا تحتقرني، وتستقبلني في بيتك كأنني صديقك، وتضئ هذه الشموع الكثيرة إرضاء لي – كل ذلك على الرغم من أنني صارحتك بحقيقة أمري، وذكرت لك من أين أنا قادم.

- فمسّ الأسقف يده بلطف، وقال:

لم تكن ثمة ضرورة لأن تذكر لي من أين أنت قادم، فهذا البيت ليس بيتي ولكنه بيت الله، وهذا الباب لا يسأل الداخل عن اسمه، وإنما يسأله عن همومه ومتاعبه، وأنت رجل متعب وجائع، فأهلاً بك وسهلاً، وليس لك أن تشكرني أو تزعم أنني أستقبلك في بيتي، فهذا بيت كل مَنْ يحتاج إلي ملجأ. ها بيتك أكثر منه بيتي، وكل ما فيه لك. فما حاجتي إلى معرفة اسمك وماضيك؟! وبعد، فإنني كنت أعرفك قبل أن تذكر لي شيئًا من أمرك.

ففتح الرجل عينيه في دهشة وهتف: أحقًا إنك تعرفني؟!

فأجاب الأسقف: نعم، إنني أعرف أنك أخي.

فهتف الرجل: يا سيدي الأسقف، إنني كنت أشعر بالجوع عندما دخلتُ هذا المكان، ولكنني أصبحت من كرمك لا أدري بماذا أشعر الآن!

---

(1) متعطشًا إلى الاحترام: شديد الحاجة إليه.

(2) غرضه: هدفه.

فنظر إليه الأسقف طويلا، ثم سأل: هل عانيت[1] كثيرًا؟!

فصاح الرجل: أتسألني كم عانيت من ثقل السلاسل[2]؟ ومن البرد والحر، والضرب واللطم، والاحتقار والمذلّة، والعمل الشاق؟! لقد كانت الكلاب أسعد مني.

– نعم إنك قادم من مكان مليء بالأحزان. ولكن أصغ إليّ، إن في السماء من السعادة للمجرم التائب أكثر مما فيها لمائة من الشرفاء الأمناء. فإذا خرجت من الدنيا بقلب مقعم[3] بالحنق[4] والموجدة[5] على إخواتك البشر، فإنك تكون حقيقًا[6] بالإشفاق، وإذا خرجت منها بقلب مليء بالسلام والطمأنينة، كنت حقيقًا بأضعاف ما يستحقّ أي واحد منا.

وفي هذه الأثناء كانت مدام ماجلوار قد أعدّت الطعام، وهو يتألف من الحساء واللحم والجبن والخبز وقليل من التين، فهتف الأسقف وقد انبسطت أسارير وجهه النبيل:

– هلموا إلى المائدة.

ولكنه ما كاد يستوي في مقعده حتى أردف:

– يُخيّل إلى أن المائدة ينقصها شيء.

(1) عانيت: قاسيت، تحمّلت المشقة.
(2) السلاسل: القيود.
(3) مقعم: مليء.
(4) الحنق: الغضب.
(5) الموجدة: الغضب.
(6) حقيق: جدير.

والواقع أن مدام ماجلوار لم تكن قد وضعت على المائدة إلا الضروري جدًا من الصحاف الفضية. وقد جرت العادة إذا جاء زائر أن تحفل[1] المائدة بالصحاف الفضية جميعًا. مناورة[2] برية كانت تُكسب فقر الأسقف مظهرًا من الغنى.

وفهمت مدام ماجلوار. وانطلقت من الغرفة، ثم عادت بعد قليل وبين يديها طائفة من الملاعق والصحاف:

أقبل الرجل على الطعام يلتهمه بنهم[3] دون أن ينطق بكلمة أو يلقي بالاً إلى أحد.

ولكنه قال بعد الطعام:

- يا سيدي الأسقف، إنني قانع بهذا الطعام، ولكني لا أكتمك[4] أن الطعام الذي يقدَّم لنزلاء الحانة أفضل من هذا بكثير.

فرفعت باتسنين حاجبيها قليلاً، وأجاب الأسقف:

- لعل نزلاء الحانة يؤدّون عملاً أشق[5] من عملي!

فقال الرجل: كلا، إنهم أكثر منك مالاً. وإني أرى في وضوح أنك فقير، بل وربما لم تكن أسقفًا كما تزعم. ولو كانت في السماء عدالة لوجب أن تكون أسقفًا.

(1) تحفل: تمتلىء.

(2) مناورة: هنا بمعنى حيلة.

(3) النهم: الرغبة الشديدة.

(4) لا أكتمك: لا أخفي عنك.

(5) أشق: أصعب.

فأجاب الأسقف في هدوء: إن في السماء عدالة.

واستطرد بعد لحظة:

- إنك قلت يا مسيو جان فالان إنك تقصد إلى بونتارلييه؟!

نعم. ويجب أن أستأنف رحلتي قبل بزوغ الشمس. وهي رحلة شاقة، لأن الجو شديد الحرارة نهارًا بقدر ما هو شديد البرودة ليلاً.

فقال الأسقف: إذًا فأنت في أشد الحاجة إلى الراحة.

وتناول أحد الشمعدانين، وقدّم الشمعدان الآخر إلى ضيفه وقال:

- دعني أدلّك على فراشك.

واجتاز به الغرفة المجاورة، حيث فراشُه، وحيث كانت مدام ماجلوار تُعيد الصحاف الفضية إلى مكانها في الصوان[1]. ونفذ به إلى الغرفة التالية، حيث الفراش الذي أُعِدَّ للضيوف.

قال الأسقف محدّثًا ضيفه:

- أتمنى لك ليلة سعيدة يا سيدي، وآمل ألا ترحل غدًا قبل أن تتناول قدحًا من اللبن.

فأجاب الرجل: شكرًا لك يا سيدي.

ثم انقلبت سحنته فجأة، وانبعثت من عينيه الثاقبتين نظرة مخيفة لو أبصرتها المرأتان لصعقتا هلعًا وفرقًا[2]. وقال محدّثًا الأسقف، وقد عقد

(1) الصوان: الخزانة.

(2) غرقًا: خوفًا شديدًا.

ساعديه فوق صدره:

- ما هذا؟ أتسمح لي بالمبيت بالقرب منك؟

وأفلتت من فمه ضحكة وحشية واستطرد:

- هل فكرت في الأمر مليًا؟ من يدريك أنني لم أرتكب جريمة قتل؟

فأجاب الأسقف: ذلك من شؤون الله.

وتمتم صلاة قصيرة، وبسط يده نحو الرجل وباركه، ولكن الرجل لم يطاطيء[1] رأسه كما هي العادة.

وانصرف الأسقف دون أن ينظر وراءه.

وبعد لحظة كان يمشي في الحديقة مشية الحالم المتأمّل المفكر في الأسرار الرائعة التي أودعها الله جوفا لليل.

أما الرجل وقد برّح به[2] التعب فلم يفكّر في التخلّص من اسماله[3]. وما كاد يُطفيء الشموع ويتمدد على الفراش الوثير[4] النظيف حتى غلبه النوم.

وحوالى منتصف الليل استيقظ جان فالجان.

* * *

كان قد انحدر من عائلة فقيرة في فافيرول. وما عناه أبواه وهو صغير. فكفلته

---

(1) يطاطيء: يخشى.

(2) يرح به: أثر فيه بشدّة.

(3) فسمال: ثياب بانية.

(4) الوثير: المريح.

أخته وما زالت تعني به حتى مات زوجها وترك لها سبعة أولاد، أكبرهم لا يتجاوز الثامنة من عمره، وأصغرهم لا يزال في الشهور الأولى، وكان جان فالجان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، فحلّ محل الوالد، وتوفّر، جهدّ طاقته، على مساعدة الأخت التي ساعدته، وفعل ذلك ببساطة وبدافع الشعور بالواجب.

وهكذا قضى الفتى أيام شبابه كما يقضي الفقراء الكادحون أيامهم، لقاء أجْرٍ لا يكاد يَتبلَغ به[1] رجلٌ بمفرده، فضلاً عن أخته وأبنائها السبعة، وكان يعود في المساء متعبًا منهوك القوى، فيتناول الحساء الدافيء وقطعة الخبز دون أن ينطق بكلمة. وكثيرًا ما كانت أخته تلتقط من صحفته أفضل قطعة من طعامه فتقدمها إلى ابنها وابنتها، ويرى جان فالجان ذلك ويتظاهر بأنه لا يرى.

كان يشتغل بالتحطيب والحصاد وحراثة الأرض، ويفعل كل ما يستطيع، لإطعام ذلك الجيش المحزن من الأطفال الجياع، إلى أن جاء شتاء شديد القسوة لم يُوفّق فيه جان إلى عمل، فبات الأطفال بلا طعام.

سبعة أطفال في البرد القارس، وليست في النار قطعة من الخبز.

وذات ليلة، كان موبير: الخباز يهمّ بالرقاد[2]، حين سمع صدمة عنيفة تهشّم[3] نافذة حانوته، ورأى يدًا تمتد من الزجاج المحطّم، وتختطف رغيفًا. فصاح مستنجدًا، وانطلق في أثر اللص، وأمسك به.

---

(1) يتبلغ به: يكتفي به لقوته.
(2) يهمّ بالرقاد: يستعدّ للنوم.
(3) تهشم: تحطم، تكسّر.

كان اللص قد ألقى الرغيف، ولكن بعد أن خدش[1] الزجاجُ ساعدّه وأسال دمه، ويسخل عليه جرمه[2].

كان هذا اللص جان فالجان.

وحوكم جان فالجان بتهمة السَّطْو[3]، وحُكم عليه بالسجن خمسة أعوام. وقال أحد الذين أبصروه حين غُلّ[4] عنقه بحلقة من حديد تمهيدًا لنقله إلى ليمان (طولون)، إنه كان واجمًا، دهشاً، لا يكاد يفهم شيئًا مما يدور حوله. وعندما فرغ حدّاد السجن من تطويق عنقه، بكى حتى خنقته العبرات[5]، وراح يتمتم بين الفينة والفينة[6]:

- لقد كنت أشتغل بالتحطيب في فافيرول....

ثم شوهد وهو يرفع يده اليمنى ويخفضها سبع مرات بالتدريج، كمن يمسّ رؤوس سبعة أطفال على التعاقب[7]، وكأنه أراد أن يقول إنه مهما تكن جريمته، فإنه لم يقترفْها[8] لإطعام الأطفال السبعة.

---

(1) خدش: جرح.
(2) سجل عليه جرمه: كان الدليل على جرمه.
(3) السطو: السرقة.
(4) غُلّ: قيّد؛ الغُلّ: القيد.
(5) العبرات: الدموع.
(6) بين الفنية والفنية: بين وقت وآخر.
(7) التعاقب: التوالي، التتابع الواحد بعد الآخر.
(8) يقترفقها: يرتكبها.

ووصل إلى طولون بعد رحلة استغرقت سبعة وعشرين يومًا. وهناك زالت الحياة التي ألفها[1]، بل زال الزيّ الذي عُرف به، فأصبح رقمًا بعد أن كان إنسانًا.

* * *

وفي نهاية العام الرابع، تمكّن جان فالجان من الفرار، وهام[2] على وجهه في الحقول يومين كاملين، ثم قُبض عليه وأُعيد إلى الليمان، وحُكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام أخرى لاقترافه جريمةَ الفرار، وأعاد الكرَّه[3] في العام السادس وهرب للمرة الثانية، ولكنه لم يدر إلى أن يذهب، ووجده مطاردوه مخبئًا في سفينة ما تزال قيد البناء فاعتقلوه. وحُكم عليه في هذه المرة بالسجن خمسة أعوام.

حاول الفرار مرتين بعد ذلك، وأخفق[4]، وعوقب بالسجن ثلاثة أعوام عن كل محاولة.

وبعد تسعة عشر عامًا أُطلق سراحُه من السجن الذي دخله لأنه سرق رغيفًا. دخل السجن باكيًا، جزعاً[5]، مرتجفًا، وغادره متجهمًا[6]، ناقمًا[7].

---

(1) ألفها: اعتادها، تعوّدها.
(2) هام: تاه، سار على غير هدًى.
(3) الكرة: المحاولة.
(4) أخفق: فشل.
(5) جزعًا: خائفًا.
(6) متجهمًا: خابسًا.
(7) ناقمًا: عاصيًا، ثائرًا.

ولم يفقد خلال ذلك شيئًا من قوته البدنية التي كانت مضرب الأمثال.

كان يحمل من الأثقال ما يعجز عنه أربعة رجال، ويستخدم ظهرّه في كثير من الأحيان فيما تستخدم الآلة الرافعة لِحَمْله.

وكان قليل الكلام، لا يضحك إلا نادرًا، وإذا ضحك انبعث منه صوت كقهقهة الأبالسة[1]، وفي ما عدا ذلك كان دائم الوجوم[2]، كمن ينظر دائمًا إلى شيء بعيد مخيف.

والواقع أنه كان متصرفًا بكل عقله الكليل[3] ونفسه المحطمة وحواسه الشاردة إلى تأمّل ذلك الصرح[4] المخيف الذي يوشك أن ينقضّ عليه ويهشّمه، وتلك الأكوام الهائلة من القوانين والحقائق التي تخيفه والتي هي الهرم الذي نسميه «المدنية».

كان يتأمّل ذلك كله ويفكر فيه.... ويحاول أن يفهمه، ولكن هل تستطيع حبّة الحنطة أن تفهم لماذا وُضعت بين شقّي الرحي[5]؟

* * *

كانت تأمّلاته وأفكاره حَلَقَة مفرغة تنتهي إلى حيث بدأت، وتبتديء من نقطة واحدة لا تتغيّر هي كراهية القوانين البشرية، تلك الكراهة التي تتطوّر مع الزمن كراهة للمجتمع، ثم كراهة للبشر، فكراهة للخليقة، تعبّر عنها رغبة

(1) الأبالسة: الشياطين.
(2) الوجوم: السكوت القلق.
(3) الكليل: المتعب.
(4) الصرح: البناء العالي.
(5) الرحي: حجر الطاحون.

ملحّة مهمة في إلحاق الأذى بأي إنسان.

وهكذا لم يبالغ القوم حين سجّلوا عليه في الورقة الصفراء أنه رجل شديد الخطر. وقد مات ضميره بالتدريج، وأخذت مشاعره وإحساساته في الذبول حتى جفّت. ومَنْ جفّت مشاعرُه نضبت دموعُه. وقد انقضى تسعة عشر عامًا منذ بكى جان فالجان للمرّة الأخيرة.

ولما قيل له «اذهب، فأنت حرا، تألّق في ظلمات نفسه شعاع من الأمل والإيمان بحياة جديدة حرّة، ثم اضمحل[1] هذا الأمل وتلاشى من فهم معنى هذه الحرية المحدودة، بورقة صفراء.

وامتزج اليأس في نفسه بالمرارة، فقد قُدّر أجره عن عمله في الليمان بمائة وسبعين فرنكًا. وفاته[2] أن أيام العطلة والأعياد لا أجر أما فلما تقدوه مائة وتسعة فرنكات فقط، لم يستطيع تعليلّ[3] ذلك. وتوهم أن القوم قد سرقوه أخيرًا كما ظلموه أولاً.

استيقظ جان فالجان حول منتصف الليل لسبب واحد، هو أن الفراش كان وثيرًا، ولم يكن قد رقد في فراش وثير منذ عشرين عامًا. فألقته هذه النعمة وأقضت مضجعه[4].

فتح عينيه ودار بهما في الظلام، ثم أغمضهما، وحاول أن ينام مرّة أخرى،

(1) اضمحل: تلاشى.
(2) فاته: لم ينتبه إليه.
(3) تعليل: تفسير.
(4) مضجعه: مكان نومه، سريره؛ وأقضّت مضجعه، منعته النوم.

ولكنه لم يستطع.

وتزاحمت في رأسه الأفكار والخواطر، ولكنها تبدّدت[1] جميعًا أمام خاطر واحد ملأ ذهنه وشغل عقلّه.

كان قد رأى مدام ماجلوار وهي تضع الملاعق والصحاف الفضية في الخزانة.

ولفتته، بصفة خاصة، صحفة الحساء الكبيرة التي تساوي مئتي فرنك على الأقل، أي ضعف المبلغ الذي ربحه بعرق جبينه خلال تسعة عشر عامًا، وأزعجه أن يشعر بوجود هذه الثروة على مقربة منه.

فكَّر طويلاً في هذه الصحاف، وقام في نفسه صراع، ولكنه كان نضالاً قصير الأجل[2].

ودقّت ساعة الكاتدرائية، ففتح عينيه فجأة، واستوى جالسًا على حافة الفراش.

وبقي كذلك ساعة أو بعض ساعة. وهو بين مُقدم ومُحجم[3]. وتلك الخواطر الشريرة المغرية تحتلّ ذهنه تارة وتجلو[4] عنه تارة أخرى، لكي تعاوده أثبت قدمًا وأشد تغلغلاً[5]، إلى أن دقّت الساعة ثلاث دقات، فوثب من مكانه كمن لدغته عقرب... وكأن دقات الساعة هاتف خفي، يهتف به «هلمّ إلى العمل».

(1) تبدّدت: تلاشت.
(2) قصير الأجل: قليل الوقت.
(3) محجم: مُمتنع عن التقدم.
(4) تجلو: تبتعد.
(5) تغلغلًا: تسربًا إلى أعماقه.

ووقف لحظة أخرى نُهْبَة الشرود[1]، ثم أرهف أذنيه[2]....

كان الهدوء شاملاً، فلا صوت ولا حركة... والقمر يطلّ من بين السحب[3] تارة ويحتجب وراءها تارة أخرى.

ومشى جان فالجان إلى نافذة الغرفة. وفحصها، فوجدها خالية من القضبان الحديدية وحديقة المنزل تترامى تحتها.

واكتسح الحديقة بعينيه الحديديتين، فألقاها محاطة بجدار منخفض يسهل اجتيازه.

خلع حذاءه، ووضعه في حقيبته، وتناول من الحقيبة قضيبًا حديديًا صغيرًا، أطبق عليه أصابعه بقوة، وتسلّل إلى الغرفة المجاورة وهو يحبس أنفاسه.

دفع الباب بيده بلطف فانفتح. ولكنه أحدث صوتًا ثقب أذنيه كأنه صوت الصُوَر[4] في يوم الدينونة. وخُيّل إليه في ذُعره أن الحياة قد دبت[5] في الباب، فنبح كالكلب لإيقاظ النيام وتحذير الغافلين.

جمد في مكانه.... ودوّت نبضاتُه في أذنيه كدويّ المطارق، وتخيل إليه أن أنفاسًا تنطلق من رئتيه في زئير كزئير الريح في أشرعة السفينة.

ومرَّت بضع دقائق ظلّ الباب في خلالها مفتوحًا.

---

(1) نهبة الشرود: أسير الضياع.
(2) أرهف اذنيه: أنصت بدقة، أصغى، دقّق السمع.
(3) السحب: الغيوم، مفردها السحابة.
(4) الصور: البوق أو القرن الذي يُنفخ فيه.
(5) دبت: انتشرت.

ثم أجال جان فالجان البصر في جوانب الغرفة، فألفى كل شيء فإذا ساكنًا .

إذًا لم ينبّه صريرُ الباب أحدًا؟ وإذًا قد زال الخطر؟!

وعلى الرغم من الاضطراب الذي كان ما يزال يعصف، فإنه لم ينكص على عَقبيه[1]، بل لم يفكّر في أن يفعل ذلك.

كان كل تفكيره منصبًا على الفراغ[2] بأسرع ما يمكن من المهمة التي حزم عليها رأيه.

دخل الغرفة فوجد كل شيء هادئًا، ورأى في الظلام أشياء غير واضحة. فتقدّم بهدوء وحذر، وأجتنب جهد الطاقة لئلا يصطدم الأثاث، وسمع أنفاس الأسقف النائم وهي تتردد في هدوء وانتظام.

ثم وقف فجأة، فقد وجد نفسه لصق الفراش.

كان قد بلغ إليه بأسرع مما توقع.

* * *

ثم مدّت الطبية إصبعها، وللطبيعة حكمتها الخفية... فإنها إصبعها في بعض الأحيان في الوقت المناسب، كأنما لتحملنا على التفكير والتروّي[3] في ما نحن فاعلون.

كانت السحب الكثيفة تحجب السماء خلال الساعة الأخيرة ولكن ما كاد

---

(1) ينكص على عقبيه: يتراجع.
(2) الفراغ: الانتهاء.
(3) التروي: التمهّل والتفكير.

جان فالجان يقترب من فراش الأسقف، حتى تبدّد السحب كأنما عَمْدًا، و أرسل القمرمن خلال النافذة شعاعًا أضاء وجه الأسقف الهادىء.

كان الرجل نائمًا نومَ الأبرار[1]، ورأسه مسند إلى الوسادة في هدوء وطمأنينة، ويده اليمنى مدلاة من جانب الفراش، ووجهه النبيل مشرق بنور الأمل والثقة والإيمان.

ووقف جان فالجان في الظلام، والقضيب الحديدي في يده وأذهله هذا الوجه الهادئ المضيء.

لم يرّ في حياته وجهًا كهذا الوجه، ولا ثقة وطمأنينة كثِقَة هذا الشيخ وطمأنينته، فراعَه[2] ما رأى.

وأكبر الظن أن أحدًا لم يشهد منظرًا أروع من هذا، منظر ضمير مقبل على جريمة، يطلّ على ضمير هادئ طاهر مطمئنّ.

* * *

وظلّ الأسقف في نومه الهادئ رغم النظرة المخيفة التي حدقه بها[3] المجرم.

وسقطت أشعة القمر على تمثال المسيح المصلوب، فبدأ باسطًا الراعيه كأنما ليبارك أحد الرجلين ويصفح عن الآخر.

وفجأة، تحرّك جان فالجان ومرّ بالفراش بسرعة دون أن ينظر إلى وجه الأسقف.

(1) الأبرار: الصالحون، الأنقياء.

(2) راعه: هنا بمعنى أدهشه.

(3) حدقه بها: رماه بها.

واقترب من الخزانة، ورفع القضيب الحديدي في يده، استعدادًا لكسر بابها، ولكنه وجده مفتوحًا، فاختطف سلة الصحاف الفضية، وهرول[1] إلى غرفته، وأفرغ محتويات السلة في حقيبته، وألقى بالسلة من النافذة، ثم حمل الحقيبة، ووثب إلى الحديقة ولاذ بالفرار[2].

* * *

لما أشرقت شمس الصباح، كان الأسقف يسير في حديقته، حين أقبلت عليه مدام ماجلوار وهي تلهث، وعلى وجهها علامات الفزع.

صاحت: أتعرف أين سلّة الصحاف يا سيدي؟

فأجاب الأسقف: نعم.

- حمدًا لله!... فإني لم أعلم ما حدث لها.

وكان الأسقف قد وجد السلة بين الأزهار فقدمها إلى مدام ماجلوار وهو يقول:

- ها هي السلة؟

- إنها فارغة... فأين الصحاف؟

فهتف الأسقف: آه! أنت منزعجة من أجل الصحاف؟ إنني أعرف مكانها.

- يا إلهي! إذًا فقد سُرقت، وسارقُها هو الرجل الذي زارنا أمس.

وهرولت إلى الغرفة التي قضى فيها جان فالجان ليلته ثم عادت مسرعة.

وكان الأسقف يعالج عودًا من الزهر حطّمته السلة، فصاحت مدام ماجلوار:

(1) هرول: أسرع.

(2) لاذ بالفرار: هرب.

- سيدي، لقد ذهب الرجل واختفت الصحاف!

ووقع بصرها على الأزهـار والأعشـاب التـي حطّمتها أقـدامُ الرجل واستطردت: إنه فرّ من هنا بعد أن سرق الصحاف.

فصمت الأسقف لحظة، ثم قال بلطف:

- بهذه المناسبة، هل كانت الصحاف صحافنا؟

فصمتت مدام ماجلوار، واستطرد الأسقف بعد سكون قصير: مدام ماجلوار، إنني كنت مخطئًا حين احتفظت بهذه الصحاف التي هي ملك للفقراء، ومن كان الرجل الذي قضى الليلة في ضيافتنا؟ إنه من الفقراء بغير شكّ.

فهتفت مدام ماجلوار: يا إلهي! إن ضَياعَ الصحاف لا يهمّني، وكذلك لا يهمّ الآنسة باتستين. ولكننا نشعر بالأسف لك يا سيدي.

أو كيف تتناول طعامك بعد أن سُرقت الملاعق الفضيّة.

فنظر إليها الأسقف في دهشة وسأل: كيف؟ ألا توجد ملاعق.

فقلبت مدام ماجلوار شفتيها بازدراء[1]، وقالت: إن للطين رائحة مميته[2].

- ألا توجد ملاعق من حديد؟

- إن للحديد طعمًا غير مقبول.

- إذًا لتكن ملاعق من خشب.

وبعد بضع دقائق كان الأسقف يتناول طعام إفطاره، فقال مداعبًا مدام

(1) ازدراء: احتقار.

(2) مميتة: كريهة.

ماجلوار:

- أرى أن الإنسان ليس بحاجة حتى إلى ملعقة من خشب لكي يغمس قطعة الخبز في قدح اللبن.

فهتفت مدام ماجلوار: يا إلهي!... كيف أضفت[1] هذا الرجل يا سيدي، سمحت له أن ينام في غرفة قريبة منك؟ إنني أحمد الله على أنه قنع بارتكاب جريمة السرقة.

وكان الأسقف يهمّ بالنهوض عن مائدة الطعام حين سمع طرقًا على الباب فقال في هدوء:

- أدخل! وفتح الباب فرأى الأسقف منظرًا غريبًا.

رأى ثلاثة من رجال الشرطة يدفعون أمامهم رجلاً عرف بـ الأسقف جان فالجان.

وتقدّم واحدٌ منهم وقال وهو يؤدّي التحيّة للأسقف:

- طاب يومك يا سيدي الأسقف.

وهنا هتف جان فالجان في ذهوب وتبلّد[2]: إذًا، فهو أسقف حقًا! وصاح به الشرطيّ: صه يا هذا!

وكان الأسقف قد نهض من مقعده، واقترب بالسرعة التي تسمح بها شيخوخته.

---

(1) أضفت: استقبلت ضيفًا.

(2) تبلّد: برودة الذهن، البطء في التفكير، البلاهة.

قال وهو ينظر إلى جان فالجان: أهذا أنت يا صديق؟! يسرّني أن أراك. لقد أعطيتك الشمعدانين وهما أيضًا من الفضة، وثمنهما لا يقلّ عن مائتي فرنك، فلماذا لم تأخذهما مع الصحاف؟

ففتح جان فالجان عينيه. ورمق الأسقف بنظرة تقصر[1] لغة البشر عن التعبير عنها.

قال الشرطيّ: إذًا، قد قال هذا الرجلُ الصدقَ يا سيدي؟ إننا قابلناه في الطريق. وخُيّل إلينا أنه يفرّ، فرأيناه أمرّه[2]، وألقينا القبض عليه، ووجدنا معه هذه الصحاف التي....

فقاطعه الأسقف وعلى شفتيه ابتسامة:

– وقال لكم إنه حصل على هذه الصحاف من قس عجوز أضافه في منزله هذه الليلة.... فجئتم به إليَّ. أليس كذلك؟ لقد أخطأتم.

قال الشرطي: وفي هذه الحالة، هل يجب أن نطلق سراحه؟

فأجاب الأسقف: طبعًا.

فترك الشرطة ساعدي جان فالجان، فترنّح هذا في مكانه مفتعل[3]. وغمغم[4] بلهجة لا تكاد تَفهم وبصوت مَنْ يتكلم وهو نائم: أحقًا إنني حرّ؟

فقال أحد الشرطة: نعم. ألا تفهم؟

---

(1) تقصّر: تعجز.
(2) رأينا أمره: آثار فينا الرّيبة أي الشك، شككنا في أمره.
(3) مفتعل: كالسكران.
(4) غمغم: لم يبيّن كلامه.

قال الأسقف: أيها الصديق، يجب أن تأخذ الشمعداتين قبل أن تذهب.

وجاء بالشمعدانين وقدّمها إلى جان فالجان.

وشهدت المرأتان كل ذلك، ولم تأتِ إحداهما بحركة أو تنطق بكلمة تزعج الأسقف.

وكان جان فالجان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، يتناول الشمعدانين بحركة آلية، وفي عينيه نظرة شاردة.

قال الأسقف: والآن اذهب بسلام أيه الصديق، وإذا عدت، فلا ضرورة لأن تلك طريق الحديقة، إذ في استطاعتك أن تدخل من الباب الأمامي، فهذا الباب مفتوح لك ليلّ نهارَ.

ثم تحوّل إلى الشرطة وقال: في استطاعتكم أن تتصرفوا أيها السادة!

فأطاعوا. وبدا على جان فالجان كأنه يوشك أن ينهار ويفقد الرشد.

فاقترب منه الأسقف وقال له بصوت خافت:

– ولا تنسَ أبدًا يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانة والشرف.

فلزم جان فالجان الصمت.

لم يذكر أنه وعد الأسقفَ بشيء من هذا.

واستطرد الأسقف وهو يتمهّل عند كل كلمة كأنما ليؤكدها:

– جان فالجان، يا أخي.... إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشرّ. إنني الآن أبتاع روحك وأنقذها من الضّياع والبوار[1] وأردّها إلى الله.

(1) البوار: الهلاك.

وكان جان فالجان ذاهلاً متبلّدًا، فانصرف دون أن ينطق بكلمة ومشى بين الحقوق مسرعًا على غير هدى. وقضى النهار شارد متجولاً، ولم يتناول شيئًا من الطعام. ولكنه لم يشعر بالجوع.

كانت جمجمته ميدانًا لحرب ضروس[1]. وأحسَّ بنوع من الغضب ولكنه لم يدر على أي إنسان يصبّ جام[2] غضبه.

وقضى النهار كله تتنازعه مشاعر وإحساسات لا توصف، وأقبل الليل، فتهالك على الأرض وسط دَغْلٍ[3] خارج المدينة.

واستمر يفكر ويتأمل، حتى أزعج تأملاته صوتٌ مَرِحٌ أخذ يدنو تحت الأشجار، فحوَّل رأسه، ورأى غلامًا في نحو العاشرة يحمل قيثارة ويغني بصوت طروب.

كان من أولئك الغلمان المرحين الذين يطوفون[4] بالقرى، ويشتقون[5] الآذان بغنائهم وموسيقاهم، ويعيشون بما يجتمع لهم من كَرَم الناس.

وكان الغلام يكفّ عن الغناء بين الفيتة والفينة ليعبث بقطعة من القضية لعلها كل ثروته. فيقذف بها في الفضاء، ثم يتلففها[6] على ظاهرة يده.

وقذف الغلام بقطعة النقود الفضية. وأراد أن يتلففها، ولكنها أبلغت من

(1) ضروس: شديدة، مهلكة.
(2) الجام: الكأس.
(3) الدغل: الشجر الملتفّ.
(4) يطوفون: يتجوّلون.
(5) يشتّقون: يمتّعون.
(6) ينقلها: يأخذا بسرعة.

يده. وتدحرجت نحو جان فالجان فوضع هذا قدمَه فوقها.

ولكنّ الغلامَ أبصره، ولم يدهش. وقصد توًا إلى جان فالجان.

كان المكان مهجورًا. لا ترى فيه العينُ غيرَ الأشجار والأعشاب والطريق الضيّق المؤدي إلى القرية. وليس من صوت غير تفريد أسراب الطير على أفنان[1] الشجر.

قال الغلام ببساطة الأطفال: أعطني نقودي يا سيدي.

فسأله جان فالجان: ما اسمك؟

- اسمي «جَرفيه»، يا سيدي.

- اذهب في سبيلك.

- أرجو أن تعطيني نقودي، يا سيدي.

فأطرق جان فالجان برأسه ولم ينطق بكلمة.

صاح الغلام: أعطني نقودي يا سيدي، أعطني قطعتي الفضية.

وبدا على جان فالجان أنه لم يسمعه، لأن الغلام ما لبث أن أمسك بكتفه، وراح يهزه بشدة، ويحاول في الوقت نفسه أن يزخر القدم الثقيلة التي استقرَت فوق قطعة النقود.

صاح الغلام بصوت يرتجف: أريد نقودي! أريد قطعتي الفضية!

وبدأ يبكي. فرفع جان فالجان رأسه.

كان لا يزال جالسًا على الأرض... فنظر إلى الغلام بعينين شاردتين،

(1) أفنان: أغصان.

وارتسم على وجهه شيء من الدهشة، ثم مدّ يده نحو عصا وصاح بصوت مخيف: مَنْ هذا ؟

فأجاب الغلام: أنا جرفيه يا سيدي. أرجوك أن تردَ إلي نقودي أتوسَل إليك أن ترفع قدمك.

وبقى جان فالجان جامدًا في مكانه كالصنم... وصرخ الغلام غاضبًا:

- ألا ترفع قدمك؟!

فصاح جان فالجان: أما زلت هنا ؟!

ووثب واقفًا. وأردف وقدمه ما تزال على قطعة النقود:

- ألا تريد أن تتصرف؟!

فذُعر الغلام وبدأ يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه[1].

وبقيّ في ذهوله وذُعره لحظة. ثم أطلق ساقيه للريح دون أن يجسر[2] على الصياح أوالتحوّل إلى الوراء.

وما لبث أن توارى[3] بين الأجار.

وانحدرت[4] الشمس نحو الأفق، وبدأ الظلام يخيّم حول جان فالجان.

لم يكن قد تناول شيئًا من الطعام طَوال ذلك اليوم، ولعله كان مهمومًا.

---

(1) أخمص قدميه: باطن قدميه.

(2) يجسر: يجرؤ.

(3) توارى: اختفى.

(4) انحدرت: نزلت شيئا فشيئًا.

وأخيرًا أحس ببرودة الليل، فخرج من جموده فجأة وأرخى قيمته على رأسه، وتناول عصاه، وهمّ بالسير.

وعندئذ وقع بصره على قطعة النقود الفضية، وكانت تلمع بين العنب فمرت في جسده رعدة[1] قوية.

ارتد إلى الوراء خطوة دون أن يحوّل بصره عن قطعة النقود ثم انحنى والتقطها، وراح ينظر حوله بين الأشجار، ويرتجف كوحش البارد يبحث عن مأوى.

ولكنه لم يرَ شيئًا، فقد هبط الظلام وحجب المرئيّات[2] عن ناظريه.

وفجأة، تحرك من مكانه، وشرع يسير في ناحية من المؤكد أنها الناحية التي توارى فيها الغلام.

واجتاز مسافة قصيرة، ثم وقف، ونظر حوله، وصاح بكل قوّته.

- جرفيه.... جرفيه....

وصمت.... وانتظر... وأرهف أذنيه.... ولكنه لم يسمع جوابًا.

فاستأنف السير، ثم شرع يعدو ويقف بين الفينة والفينة، ويُصيح بصوت المحتضر: جرفيه..... جرفيه....

ولو سمع الغلام صوته لاستولى[3] عليه الذعر.... ومنعه الخوف؟؟ من تلبية ندائه.

* * *

(1) رعدة: رجفة.
(2) المرئيات: الأشياء التي تُرى.
(3) استولى: سيطر.

عندما انصرف جان فالجان من بيت الأسقف، كان في حالة يعجز فيها عن تقديم حساب عن العواطف المتباينة[1] التي تعصف في أعماقه. وقد حاول المرة بعد الأخرى أن يُصمّ أذنيه[2] عن الكلمات الكريمة التي صبّها الأسقفُ في مسمعَيه حين قال:

«ولا تنسَ أبدًا يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانة والشرف.

إنك لن تكون بعد الآن من أهل البشر. إنني الآن ابتاعُ روحك وأُنقذها من الضياع والبوار[3] وأردّها إلى الله».

كما حاول أن يهدم مغزاها النبيل بمعول الكبرياء التي هي معقِلٌ[4] في نفس الإنسان. ولكن هذه الكلمات ظلت تدوّي في أذنيه دويًا. وظلّ نورها يشقّ ظلمات نفسه كوميض البرق في الليلة

أحس بالفطرة أن عفوّ الأسقف كان عاصفة هزّت كيانه هزًا وأن صلابته أمام هذا العفو هي سبيله الأوحد للاحتفاظ بكراهيته للمجتمع، تلك الكراهية التي تملأ نفسه ارتياحًا وشماتة، وأن المعركة التي بدأت تنشب بين خبثة وطيبة الأسقف هي المعركة الفاصلة في تقرير مصيره، فإما النصر وإما الهزيمة، إما طريق الشر، وإما طريق الخير.

* * *

(1) المتباينة: المختلفة، المتضاربة.

(2) يصمّ أذنيه: بدّهما، يمتنع عن السمع.

(3) البوار: الهلاك.

(4) معقل: ملجأ، حصن.

وهكذا قضى النهار وهو يمشي مشية النَّمل، ولا يعلم غير الله وإذا كان يعتمل[1] في قراره نفسه[2]، ولعله كان يصغي إلى ذلك الهاتف الخفي الذي يحرك ضمير الإنسان في بعض مراحل حياته. ولعله شعر بأنه صار في مفترق طريقين لا ثالث لهما: إما أن يصبح شريرًا، وإما أن يسمو فوق الأسقف نفسه، أو ينحطَّ إلى مرتبة دون مرتبة[3] السجين الخارج من الليمان.

على أن شيئًا واحدًا كان مؤكدًا، وهو أنه صار في خلال هذه المعركة الفاصلة رجلاً غير الرجل، ولم يكن في استطاعته أن ينكر أن الأسقف تحدث إليه، وأنه شدَّ على يده.

وبينما كانت المعركة في عنفواتها، قابل جرفيه الصغير، واغتصب قطعته الفضية، فلماذا فعل ذلك؟!

لم يكن في استطاعته أن يفسّر هذه الجريمة، ولعله ارتكبها بالفطرة، أو لعله لم يرتكبّها على الإطلاق، وإنما ارتكبها الشيطان الخبيث القابع في رُكن نفسه المظلمة، فما إن استيقظ ضميره حتى هالَتْه هذه الفعلة الوحشية الأثيمة[4]، فصرخَ ألمًا وفزعًا

* * *

بكى جان فالجان طويلاً، كما تبكي المرأة الضعيفة وكما يبكي الطفل

---

(1) يعتمل: ينفعل، يضطرب.
(2) قراره نفسه: أعماق نفسه.
(3) دون مرتبة: أقل من مرتبة (من منزلة).
(4) الأثيمة: المذنبة، الخاطئة.

المذعور. وأزال البكاء عن صدره عبئًا ثقيلاً، وظهر ذهنه من السحب المظلمة التي تخيّم عليه. فبدأ يفكر في جوّ من الهدوء، واستعرض حياتَه الماضية، وغلطته الأولى، وتفكيرَه الطويل، وإطلاقَ سراحه، وما اقترن به ذلك كله من نقمة وموجدة، ورغبة في الانتقام.

وفكر فيما حدث في بيت الأسقف، ثم في عدوانه على نقود الغلام، وبدت هذه الجريمة الأخيرة في نظره، أدلَّ على الوحشية والنتالة[1] من كل جريمة ارتكبها قبل ذلك، لأنه أقدم عليها بعد عفوِ الأسقف.

استعرض كلَّ ذلك في ضوء جديد لم يَرَهُ قبل ذلك.

ونظر إلى حياته بهذا الضوء الجديد، فبدت له هائلة مزعجة، وتغلغل في أعماق نفسه، فرآها مظلمة مخيفة.

كان كمن يرى الشيطان على ضوء الجنة.

ولا أحدَ يعلم كم بقي جان فالجان هكذا. ولا أحد يعلم ماذا فعل وإلى أين ذهب بعد ذلك. ولكن قيل في العام التالي إن إحدى مركبات البريد وصلت إلى «برينول» في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، وإن هذه المركبة مرّت أمام الكنيسة، فرأى سائقها رجلاً راكعًا على الأرض أمام باب الأسقف، وقد هبط رأسه فوق صدره كمن يصلّي ويبتهل[2].

---

(1) النتالة: الحقارة.

(2) يبتهل: يتضرّع إلى الله، يصلّي بحرارة.



القسم الثاني - فانتين

الفصل الأول

العشاق

كانوا أربعةً من الشبّان لا يختلفون عن أمثالهم من طلاب العلم في باريس. فهم نماذج عادية من الشبان الذين لا قيمة لهم، والذين تصادفهم في طريقك كل يوم، وأسماؤهم: «تولوميس» و«السـتولييه» و«فاميل» و«بلاشفيل». وكانت لكلٍ منهم عشيقه بطبيعة الحال. فبلاشفيل يحب «فافوريت». ولستولييه يحب «داليا» وفاميل يحب «جوزفين». وتولوميس يحب «فانتين».

وفافوريت وداليا وجوزفين وفانتين هن أربع فتيات حسان. تعذر وجُوههن مسحة[1] من الكدّ والعناء، ويضيء في نفوسهم قبسٌ[2] من الأمانة التي تعمر في المرأة بعد السقطة[3] الأولى.

وكانت بينهن واحدة تلقّب بالصغيرة لأنها أصغر رفيقاتها سنًّا، وأخرى تلقّب بالعجوز لأنها أكبرهنّ سنًّا، وإن لم تتجاوز الثالثة والعشرين.

---

(1) مسحة: أثر طاهر.

(2) قبس: شعلة.

(3) المسقطة: الزلّة، الخطأ.

فأما الكبيرات فكنَّ أعلمَ بشؤون الحياة من الصغيرة فانتين، وأكثر منها تجاربَ، وأدري بطبائع الخَلق. وأما فانتين فإن مغامرتها مع تولوميس كانت هي السقطة الأولى.

برزت فانتين من أوحال الحياة، وخرجت من قرارة المجتمع وعلى وجهها طابع الماضي التعس، والمستقبل المجهول. ولدت في قرية «مونفورميل»؛ ولكن من أي أبوين؟. لا أحد يعلم ولا هي تعلم.

وعُرفت باسم فانتين، لأنه الاسم الذي أطلقه عليها عابر سبيل رآها تعدو في الشارع عارية القدمين.

واشتغلت فانتين بالخدمة في المنازل، والفلاحة في الحقول. وبلغت الخامسة عشرة من عمرها، فرحلت إلى باريس لتُجرب حظها. وكانت على جانب من الرشاقة والجمال، ولها ثروة عظيمة من ذهب شعرها ولآلىء أسنانها.

وقد احتفظت بجمالها وطهارتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فاشتغلت لتُشبعَ جوعها، ثم أحبت لتُشبع قلبها. وكانت مغامرتها مع تولوميس تسليّةً بالنسبة إليه، وجنونًا بالنسبة إليها.

* * *

وتكوّنت من بلاشقيل و(فاميل) و(الستوليبه) عصبة تزعّمها تولوميس، لأنه كان أوسعَ الجميع حيلة وأسرعَهم خاطرًا وأقدمهم في طلب العلم.وقد تجعَد وجهُه وفقد أسنانه وسقط شعر رأسه وهو ما يزال يطلب العلم.

قال تولوميس لرفقائه ذات يوم: لقدمضى عام منذ وعدنا فانتين وداليا

وجوزفين وفافوريت بمفاجأة طريقة، وهن يتحدثن دائمًا عن هذه المفاجأة ويُطالبنا بالوفاء بوعدنا.

ثم إن آباءنا يكتبون إلينا على الدوام ويحثُّوننا على العودة إلى أحضانهم. وأعتقد أنَّ الوقت قد حان لكي نقوم بدور الأبناء البَرَرَة[1]، فما قولكم في اقتراح يُتيح[2] لكل منّا أن يضربَ عصفورين بحجر واحد؟

وتلاقت رؤوس الفتيان الأربعة... وراح تولوميس يُدلي باقتراحه العظيم.

وفي يوم الأحد التالي، خرج الفتيان الأربعة وعشيقاتهم للنزهة في «نيوتي».

كانت تبدو عليهم جميعًا مظاهر الغبطة والسعادة. وكانت فانتين بصفة خاصة أسعدَ الجميع، وأشدَّهم فرحًا. فهي تتأبط ساعد تولوميس وتبتسم في وجه النسيم الذي يداعب شعرها الثمين، وتجيب عن دعابات صاحبها بضحكات رنانة ضروب منبعثة من نفس طلّقت همومَ الحياة[3] ومتاعبها.

كانت بمرحها وسذاجتها أشبه بالطهارة طافية على سطح الخطيئة.

نَعِمَ العشاقُ بالشمس والنسيم والحقول والأزهار والأشجار، ورقص الفتيان، وغنّت الفتيات. وراحت فافوريت تسأل بين الفينة والفينة: ولكن أين المفاجأة؟!

فيجيبها تولوميس: صبرًا! فسوف تكون مفاجأة عجيبة.

ثم تناولوا طعام الغداء في حانة «بومباردا». ومالت فافوريت نحو صاحبها (بلا شقيل) وقد ثملت بنشوة الخمر وغمغمت: إنني أعبدك يا بلاشقيل.

---

(1) البررة: مفردها البَرّ: الوفي، الكثير الخير والإحسان.

(2) يُتيح: يسمح.

(3) طالت هموم الحياة: تحررت منها.

فسألها: وماذا تفعلين إذا هجرتك يا فافريت؟

فهتفت: إذا هجرتني! يا إلهي. لا تقل ذلك حتى على سبيل الدعابة. إذا هجرتني فإنني أطاردك، وأعدو في ثرك[1]، وأصبّ الماء على رأسك، وأسوقك إلى السجن.

فابتسم بلاشقيل ابتسامة الرجل الذي يعرف قدرَ[2] نفسه. وهمست داليا في أذن فافوريت: يخيّلُ إليَّ أنك تحبينه حب جنون.

فأجابت فافوريت في همس كذلك: إنني امقُتُه[3]، فهو شديد البخل. وإني أُوَثِر[4] عليه الشاب الذي يقطن في المنزل المقابل لمنزلي، فهل تعرفينه؟ إنه شاب ظريف. وقد بدأت أحبه، ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول لبلاشقيل إنني أعبده.

ثم تحوّلت إلى تولوميس وسألت بصوت مرتفع: ولكن أين المفاجأة؟

وكانوا قد فرغوا من الطعام فأجاب تولوميس: هذا صحيح. لقد حان الوقت أيها السادة لتقديم المفاجأة التي وعدنا بها السيدات، فهلموا بنا.

قال بلا شقيل: إنها مفاجأة تبدأ بُقبله.

فأردف تولوميس: على الجبين.

وطبع كل منهم قبلته على جبين صاحبته، وانصرفوا الواحد في إثر الآخر.

---

(1) في أثرك: وراءك.

(2) قدر: قيمة.

(3) أمقته: أكرهه.

(4) أؤثر: أفضل.

صفقت فافوريت بيديها وصاحت: ستكون مفاجأة طريفة حقًا كل الدلائل تُشير إلى ذلك.

وشيّمت[1] فانتين الفتيان الأربعة بقولها: ولكن لا تبطئوا، فإننا في انتظاركم.

قالت جوزفين: لا شك أنهم سيفاجئوننا بهدايا ثمينة.

فأجابت داليا: كل رجائي أن تكون هدايا من ذهب.

وراحت الفتيات يتحدثن ويضحكن، حتى انقضت ساعة أو بعض ساعة.

وطال بهن الانتظار واستولى عليهن السأم[2]، فقالت فافوريت بلهجة مَنْ يستيقظ من نوم عميق: ولكن أين المفاجأة؟

فهتفت داليا: نعم، أين المفاجأة؟

وقالت فانتين: لقد طالت غيبتهم.

وتنهدت...

وفي تلك اللحظة أقبل عليهم أحد الخدم وبيده رسالة، فصاحت فافوريت: ما هذا؟

فأجاب الخادم: هذه رسالة تركها أصحابكن.

- ولماذا لم تجيء بها في الحال؟

- لأنهم أوصوني بأن أقدمها إليكنّ بعد انقضاء ساعة.

واختطفت فافوريت الرسالة وفحصتها، وقرأت على غلافها هذه الكلمات:

(1) شيّمت: ردّعت.

(2) السام: الضجر.

«هذه هي المفاجأة الموعودة».

وفضَت الرسالة[1] بسرعة وقرأت فيها ما يلي: «أيتها الحبيبات...

يجب أن تعلمن أن لنا آباء وأمهات. وأن هؤلاء الآباء يزعمون أنهم أحقّ بنا من سواهم، ويصفوننا بالعقوق[2] ويطالبوننا بالعودة إلى أحضانهم. ولما كنا من أبرّ الأبناء بآبائهم، فإننا نسارع إلى تلبية ندائهم. وستصلكن هذه الرسالة ونحن في طريقنا إلى ذوينا[3]، والمركبةُ تنهب بنا الأرض[4] نهبًا، مبتعدة بنا عن الهاوية[5]، والهاوية هي أنتن أيتها الصغيرات العزيزات.

«نعم. إننا نعود الآن إلى المجتمع، وإلى الواجب والنظام بسرعة تسعة أميال في الساعة، إذ من الضروري لوطننا العزيز أن تصبح – كغيرنا – آباء وجنودًا وموظفين. فالتضحية من جانبنا جسيمة[6]، وجديرة[7] بإعجابكن وإكباركن[8]. ومن الخير أن تجفّفن دموعكن، وأن تستعضن عنا بسوانا بأسرع ما تستطعن.

وداعًا»

الإمضاء

(1) فضت الرسالة، فتحت الظرف الذي فيه الرسالة.

(2) العقوق: نكران الجميل.

(3) إلى ذوينا: إلى آهلنا.

(4) تنهب الأرض: تقطعها بسرعة.

(5) الهاوية: الحفرة العميقة.

(6) جسيمة: كبيرة.

(7) جديرة: مستحقة.

(8) إكباركن: تعظيمكن.

بلاشقيل، فلاميل، لستوليبه، تولوميس

«ملحوظة: لقد دفعنا ثمن الطعام».

حملقت كلّ فتاة في وجه الأخرى، ثم تكلّمت فافوريت أخيرًا فقالت:

- إنها في الحق دعابة بارعة، وأكبر ظني أنها من ابتكار بلاشقيل. وأظنني قد بدأت أحبه.

فقالت داليا: كلا. كلا. إنها دعابة تولوميس. ذلك واضح جليّ[1].

فأجابت فافوريت: إذًا ليسقط بلاشقيل، وتيجيَ تولوميس.

وانفجرن ضاحكات، فضحكت فانتين كذلك، ولكن لم تمضِ ساعة على عودتها إلى غرفتها حتى انفجرت باكية.

كانت تلك المغامرة - كما قلنا - هي مغامرتها الأولى. وقد أسلمت المسكينةُ نفسها لتولوميس كما لو كان زوجها. وشعرت بثمرة الخطيئة تتحرَّك في أحشائها.

* * *

(1) جليّ: ظاهر، واضح.

الفصل الثاني

حانة تيناردييه

راحت الطفلتان تلهوان بالسلسلة الحديديّة الضخمة التي تسدّ جانبًا من الطريق المؤدّي إلى الحانة.

كانتا طروبين ترى على وجهيهما نُضرة[1] الصحة، ويتآلق في عيونهما بريق السرور والمرح.

وقد جلست أمهما بباب الحانة، وراحت تشتغل بتنظيف بعض الحُصُر، وترمق طفلتيها من وقت لآخر بعينين تسيل نظراتهما عطفًا وحنانًا.

وكانت الأم ما تزال في شغل بتنظيف الخُصر، حين سمعت فجأة صوتًا يقول:

– ما أجمل طفلتيك يا سيدتي!

فرفعت الأم عينيها، ورأت بالقرب منها شابة تحمل بين يديها طفلة صغيرة وحقيبة ثقيلة.

كانت الصبية ترتدي ثوبًا خشنًا كثياب العاملات. وتضع على رأسها غطاء يحجب شعرها ويُبرز[2] تقاطيع وجهها الحزين.

---

(1) نضرة: إشراقة وحُسن.

(2) يُبرز: يُظهر.

كانت ما تزال في مقتبل العمر[1]. ولكن خشونة ثوبها، والغطاء الأسود الذي يحجب رأسها وشعرها جعلا من المتعذر[2] تحديد نصيبها من الجمال.

أما عيناها فكانتا واسعتين عميقتين، يُخيّل للناظر إليهما أن دموعهما لم تجف منذ وقت طويل.

هذه المخلوقة الممتقعة[3] المتهدمة الحزينة، التي تسعى من وقت لآخر من تأثير الضعف وسوء التغذية هي فانتين التي عرفناها جميلة سعيدة طروبًا باسمة.

* * *

وجدت فانتين نفسها وحيدة بعد فرار تولوميس. وكانت حياة العبث التي ألِفَتْها في معاشرة تولوميس، قد نفرتها[4] من حياة الكد والعمل، وحقَّرت في نظرها مهنة الخياطة والتطريز، فأنقت خياطتها وانقطعت الصلة بينها وبين مواطن العمل.

وكانت تقرأ بصعوبة ولا تكتب غيرّ اسمها، فلجأت إلى أحد الكَتَبَةِ العموميّين واستكتبته[5] رسالة إلى تولوميس، ثم أتبعتها برسالة ثانية، فثالثة، ولكنها لم تتلقَّ ردًّا.

وحارت المسكينة في أمرها ماذا تفعل؟ وإلى أين تولّي[6] وجهها؟

(1) مقتبل العمر: أنشط وأحسن فترة من الحياة.
(2) من المتعذر: من الصعب.
(3) الممتقعة: المتغير لونها من حزن أو مرض.
(4) نفرتها: جعلتها تنفر: تبتعد، ترفض.
(5) استكتبته: طلبت منه أن يكتب لها.
(6) تولّي: توجّه.

لم تكن تعرف أحدًا تلجأ إليه. وأحسّت كأنها شفا[1] هوّة توشك أن تبتلعَها، لكنها لم تفقد شجاعتها.

خطر لها أن تعود إلى موتقورميل مسقط رأسها. فهناك قد يعرفها بعض الناس، فيجدون لها عملاً.

ولكن من الضروري قبل كل شيء أن تُخفي زلَتها.

وفكرت في ضرورة الافتراق عن طفلتها فشعرت بقلبها يتمزق. على أن ذلك لم يضعف عزيمتها ولم يهدم شجاعتها.

صنعت من فساتينها الحريرية الجميلة ثوبًا لابنتها. وباعت أمتعتها القليلة، وقامت بسداد ديونها[2] الصغيرة، وبقي لها ثمانون فرنكًا.

وفي صباح يوم من أيام الربيع، خرجت فانتين من باريس حاملة ابنتها وحقيبتها.

كان منظرها مثيرًا للرحمة والشفقة، فالأم لا تملك من الحياة غير طفلتها، وليس للطفلة في الحياة غير أمها.

* * *

وشعرت فانتين بالتعب، فقطعت بعض رحلتها في إحدى المركبات، ثمّ عادت تواصل السعيّ على قدميها. فوصلت حوالي الظهر إلى تلك الحانة حيث وجدت الطفلتين تلعبان بالسلسلة الحديدية وتترجَحان عليها.

وطاب لها أن ترى الطفلتين في عبثهما.

---

(1) شفاه: حرف، حافة.

(2) سداد الديون: إبقاؤها.

كانت كل الدلائل تشير إلى أنهما سعيدتان موفورتان الحاجة والصحة، فهمست تحدّث أمهما:

- ما أجمل طفلتيك يا سيدتي!

وليس ما يرضي الأم مثل أن تسمع ثناء[1] على طفلها. فرفعت الأم رأسها، وشكرت الصبية، ودعتها إلى الجلوس فجلست. وراحت المرأتان تتجاذبان أطراف الحديث.

قالت المرأة: إنني أدعى مدام تيناردييه، ونحن نملك هذه الحانة.

كانت مدام تيناردييه في نحو الثلاثين من عمرها، ولكنها تفتقر إلى كل أنواع الجمال التي تميز المرأة عن الرجل.

كانت وقتئذ جالسة. فلم ترَ فانتين قامتها الهائلة وتكوينها الذي يضعها في صفوف العمالقة.

ولو رأت ذلك لحلّ الحذر في نفسها محلّ الثقة، ولَاستحالَ[2] وقوع كثير من الحوادث التي سنرويها في هذه القصة.

ولكن شاءت الأقدار أن تتعلّق مصائر بعض الناس بجلوس شخص أو وقوفه!

* * *

قصت فانتين قصتها بشيء من التحوير[3]. فزعمت أنها من العاملات وأنّ

(1) ثنا: مديح، كلام جميل.
(2) استحال: صار مستحيلًا.
(3) التحوير: التعديل، التغيير.

زوجها توفِّيَ بعد أن أولدها هذه الطفلة، وأنها الآن في سبيلها إلى مسقط رأسها لتبحث هناك عن عمل بعد أن سُدت أبواب العمل في باريس في وجهها.

وقالت إنها تقصد إلى «موتفورميل»، وإنها قطعت بعض المسافة سيرًا على الأقدام، وكانت الطفلة تسير معها في بعض الأحيان، ولكن لمسافات قصيرة، لأنها ما تزال صغيرة، وفيما عدا ذلك فإنها كانت تحمل الطفلة طول الوقت.

قالت ذلك ونظرت إلى ابنتها بشغف[1]، وطبعت على شفتيها قبلة أيقظتها.

وفتحت الطفلة عينيها الواسعتين الزرقاوين ونظرت حولها، ثم انزلقت من بين ذراعيّ أمها بنشاط الطفل الذي يريد أن يلعب ويلهوَ.

وما كادت قدماها الصغيرتان تستقرّان على الأرض، حتى وقع بصرها على الطفلتين وهما تترجّحان فوق السلسلة الحديدية، ففتحت عينيها وفمها في دهشة.

قالت مدام تيناردييه تحدّثها: إلعبي معهما يا بنيّة.

وما أسرع تآلُفَ الأطفال في مثل هذه السنّ! فقد رحّبت الطفلتان بزميلتهما. وما هي إلا لحظة حتى كانت الطفلات الثلاث يملأن المكان صخبًا وصاحًا.

واستأنفت المرأتان الحديث فسألت مدام تيناردييه: ما اسم ابنتك؟

- اسمها كوزيت.

- وعمرها؟

- إنها في الثالثة.

- كابنتي الكبرى.

---

(1) شغف: حبّ شديد.

ونظرت إلى الأطفال واستطردت:

- حقًا! إنه يُخيّل للناظر أنهن ثلاث شقيقات.

وكأنما كانت هذه العبارة هي الشرارة التي تنتظرها فانتين، لأنها أمسكت يد محدّثتها في الحال، وقالت وهي تنظر في وجهها بإمعان[1]:

هل تستطيعين العنايةَ بابنتي؟

فبدرت[2] من المرأة حركة عنيفة تدلّ على الدهشة، ولكنها لا تفيد الرفض، ولا تفيد القبول.

واستطردت فانتين: أصغي إليّ... إنني لا أستطيع الذهاب بابنتي إلى مسقط رأسي، فإنه يتعذّر على المرأة مع وجود طفلها أن تحصل على عمل. ولا شك، أن العناية الإلهية قد ساقتني إلى هذه الحانة.

إنني قلت لنفسي حين رأيت طفلتيك نظيفتين سعيدتين: «هذه أمّ رؤوم[3]» وقد صدقَ ظني. فهل لك في أن تجعلي من ابنتي شقيقةً لابنتيك حتى أعد فأستردّها؟

فأجابت مدام تيناردييه: هذه مسألة تحتاج إلى تفكير.

- إنني على استعداد لأن أدفع ستة فرنكات شهريًا.

وهنا صاح رجل في داخل الحانة:

---

(1) إمعان: تدقيق.
(2) بدرت: صدرت، ظهرت.
(3) رؤوم: تعطف على أولادها.

- بل يجب أن تدفعي سبعة فرنكات على الأقل، وأجرة ستة أشهر سلفًا[1].

فقالت مدام تيناردييه: أي 42 فرنكًا.

فأجابت فانتين: سأدفع هذا المبلغ.

قال الرجل:

- كذلك يجب أن تدفعي خمسة عشر فرنكًا للنفقات الإضافية والطوارئ[2].

فقالت مدام تيناردييه: فيكون المجموع سبعة وخمسين فرنكًا.

قالت فانتين: سأدفع هذا المبلغ. إن معي ثمانين فرنكًا. وفي استطاعتي الوصول إلى موتفورميل سيرًا على قدميّ، وسوف أُجهد نفسي في العمل حتى إذا اجتمع لي قليل من المال عدت لاسترداد عزيزتي الصغيرة.

فسأل الرجل بصوت خشن: هل للصغيرة ثياب؟

وقالت مدام تيناردييه: إن المتكلم هو زوجي!

فأجابت فانتين: لقد أدركت ذلك.

ثم أجابت الرجل بقولها:

- نعم. إن لعزيزتي الصغيرة كثيرًا من الثياب. لها اثنتا عشرة قطعة من كل نوع. ولديها عدد كبير من الفساتين الحريريّة كأيّ سيدة جميلة مثلها، وهذه الثياب في حقيبتي.

قال الرجل: يجب أن تتركي هذه الثياب.

(1) سلفًا: مُسْبَقا.

(2) الطوارئ: الأمور التي تحدث بشكل مفاجئ.

فأجابت الأم: سأتركها طبعًا. من المضحك أن تظنّ أنني أدع ابنتي عارية.

وعندئذ خرج الرجل من الحانة وهو يقول: هذا حسن، لقد اتفقنا إذًا.

وتمّت الصفقة[1]، ودفعت فانتين المبلغ المطلوب. وقضت ليلتها في الحانة، وانصرفت في الصباح الباكر تاركة ابنتها، وفي نيّتها أن تعود إليها في أقرب فرصة.

جرت العادة أن يتمّ مثلُ هذا الفراق في هدوء، وسكينة، وأن يجر.

وراءه ذيول الحزن واليأس. وقد تحدّثت امرأة تقيم بالقرب من الحانة إلى جارة لها فقالت:

- إنني رأيت اليوم صبية تسير في الشارع وتبكي كما لو كان قلبها يتفتّت.

وما إن رحلت فانتين حتى قال تيناردييه لزوجته:

- لقد حسبت المسكينة أن العناية الإلهية ساقتها إلى هنا لكي نعني[2] بابنتها، ولكي أعتقد أن العناية الإلهية إنما قدتها إلى هنا لكي تتقدنا مبلغًا من المال نحن في أشدّ الحاجة إليه لسداد ديوننا، ولولا ذلك لبيعت الحانة غدًا.

وهكذا اتّقى[3] تيناردييه بَيْعَ حانته.

ولكنَّهُ احتاج إلى مبلغ آخر من المال في الشهر التالي. فبعث بامرأته إلى باريس حيث باعت ثياب كوزيت، وقبضت ثمنها ستين فرنكًا.

وما كاد الرجل وامرأته ينفقان هذا المبلغ، حتى بدأ يشعران بأنّ الطفلة

(1) الصفقة: اتفاق البيع.

(2) نعتني: نهتمّ.

(3) اتّقى: تجنب.

عالة[1] عليهما، وبأنهما يطعمانها لوجه الله. وعلى هذا الرأي تطوّرت معاملتهما، فصارت ترتدي من الثياق الخرقّ[2] البالية التي تتخلّف[3] من الطفلتين، وتأكل من الطعام ما يتخلّف عن الجميع، وتحيا حياة أسوأ حياة، وأفضلّ قليلاً من حياة كلب.

وفي كل شهر، كان تيناردييه يتسلّم رسالة من فانتين تستفسر فيها عن ابنتها، فيجيبها على الفور بأن الطفلة على أتمّ ما يُرام[4].

وانقضت الأشهر الستة الأولى، وبدأت الأم ترسل سبعة فرنكات شهريًا بانتظام.

وفي نهاية العام الأول، ضرب تيتاردييه المائدة بقبضة يده وصاح:

- ماذا تريدنا هذه المرأة أن نصنع بسعة فرنكات؟

وكتب إلى فانتين يطلب اثنى عشر فرنكًا شهريًا، واطمأنّت الأم إلى أن طفلتها سعيدة موفورة الصحة، فرضخت[5]، وبعثت إليه تبناردييه بما طلب.

على أن شقاء كوزيت لم يقتصر على[6] العري والجوع.

كانت مدام تيناردييه من أولئك الناس الذين يجمعون بين الحنان والقسوة، ولا يستطيعون أن يحبوا من ناحية، إلا بقدر ما يكرهون من ناحية أخرى. وقد

(1) عالة: حمل.
(2) الخرق: القطع من الثواب الممزق.
(3) تتخالف: تفضل، تقى بعد استعمال.
(4) يُرام: يُراَد.
(5) رضخت: خضعت.
(6) لم يقتصر علي: لم يتوقف.

وقفت كل حبها على طفلتيها، فكان طبيعيًا أن تصبّ كل كراهيتها على الطفلة الغريبة. ومما لا شك فيه أن لولا وجود كوزيت لأصاب الطفلتين من قسوة أمهما مثلمًا يصيبهما من حنانها، ولكن كوزيت وفّرت عليهما هذه القسوة، فاحتكرتها لنفسها، واحتكرت الطفلتان الحنان.

كانت تُضرب وتُنْتَهَرُ وتعاقب من دون سبب. وترى في الوقتْ نفسه طفلتين مثلها تنعمان بالحياة هانئتين سعيدتين، فلا تفهم المسكينة سببًا لشقائها، وسعادة الآخرين.

وانقضى العام الأول.. وقال أهل قرية «بولانجيه» حيث تقع الحانة:

– ما أكرم تيناردييه وزوجته! إنهما فقيران؛ ولكنهما مع ذلك يعتنيان بالطفلة المسكينة التي هجرتها أمها.

أما تيناردييه فإنه أدرك بذكائه أن الطفلة لابد أن تكون ثمرة خطيئة تورّطت[1] فيها الأم، وأن الأم يهمّها بطبيعة الحال أن تكتم[2] خطيئتها... فكتب إلى فانتين يطلب خمسة عشر فرنكًا شهريًا، لأن الطفلة تنمو وتترعرع[3]، وتحتاج إلى المزيد من العناية والطعام، وهدّد بإرسالها إليها إذا لم تدعن، فأذعنت الأم وزادت الأجر الشهري إلى 15 فرنكًا.

* * *

ومرّتِ الأعوام... وترعرعت كوزيت، وتضاعف شقاؤها، وراحت مدام

(1) تورطت: وقعت في أمر يصعب التخلّص منه.
(2) تكتِم: تستر.
(3) تترعرع: تنمو وتكبر.

تيناردييه تعاملها كخادمة، فهي التي تنّظف الحانة وتكنس الشارع، وهي التي تغسل الصحاف وتوقد النارَ في الغرف، وهي التي تحتطب وتجمع العشب.

واشتدَّ بطشُ[1] القوم بها، عندما بدأت فانتين تتخلَّف عن الدفع في الموعد المقرّر.

ولو عادت الأم إلى الحانة في نهاية الأعوام الثلاثة الأولى لما عرفت ابنتها. فقد استحالت كوزيت المسكينة إلى هيكل عظمي، وأصبحت مثالاً حياً للبؤس والشقّاء، ولم يبق لها من جمال الطفولة غير عينين ساحرتين يؤلم الإنسان أن ينظر إليهما.

كانتا عينين واسعتين، يطّلّ منهما أكبرُ جانب من الحزن الذي يعصر حياة الأبنة المسكينة.

بل كان مما يمزق قلب الإنسان، أن يرى الطفلة التعسة، أمام الحانة قبل بزوغ الشمس، وهي ترتعد[2] من شدة البرد، والمكنسة في يدها، والدموع تملأ عينيها الكبيرتين.

ولكن ماذا حدث للأم التي يعتقد أهل بولانجية أنها هجرت ابنَتها في حانة تيناردييه؟

بعد أن غادرت فانتين الحانة، واصلت السيرّ على قدميها حتى بلغت إلى مونفورميل، مسقط رأسها.

(1) البطش: المعاملة بالعنف والقوّة.
(2) ترتعد: ترتجف.

ولم تكن قد زارت المدينة، منذ غادرتها للمرّة الأولى قبل عشرة أعوام.

وفي خلال هذه الأعوام العشرة، وبينما أخذت فانتين في الانحدار[1] من هوّة إلى هوّة، كانت مونفورميل تنتعش وتزدهر بالتدرّج حتى بلغت غاية مجدها قبل عامين، وذلك على أثر وثبة[2] وضعتها بين أولى المدن الصناعية.

* * *

(1) الانحدار: السقوط.

(2) وثبة: قفزة.

الفصل الثالث

الأب مادلين

اشتهرت مدينة مونفورميل منذ زمن بعيد بصناعة الخرق الأسود والحليّ الزجاجية. ولكن إنتاجها كان محدودًا نظرًا لقلّة المواد الأولية.

فلما عادت فانتين إلى مسقط رأسها، أدهشها التطوّر العظيم الذي طرأ على هذه الصناعة والذي لم يقتصر على مضاعفة الإنتاج فحسب، بل تعدّاه إلى الصناعة نفسها، فقلبها من أساسها.

ويرجع الفضل في تطور هذه الصناعة وانتعاشها إلى رجل غريب وفَدَ[1] إلى المدينة منذ بضعة أعوام، وخطر له أن يستعيضَ عن المواد الأولية النادرة بالصموغ والباغة[2].

وقد نتج عن هذا الابتكار أن قلّت نفقات الإنتاج، وأمكن زيادة أجور العمال. وبيع الحلي بثمن بخس[3] يرتاح إليه المستهلك، ويعود بربح وافر[4].

(1) وفد: قِدم، وصل.
(2) الباغة: مادة صلبة شفافة.
(3) بخس: قليل.
(4) وافر: كثير.

ولم تنقض أعوام، حتى أثرى[1] صاحب الابتكار، وانتعشت أسواق المدينة، وشمل الرخاء[2] جميع المتصلين بهذه الصناعة المبتكرة.

كان صاحب الابتكار أجنبيًا عن المدينة كما ذكرنا، فلا أحد يعرف نشأته وماضيه، وكل ما يعلمه الناس من أمره أنه عندما جاء إلى المدينة كان يتكلّم بلهجة العمال، وأنه ابتدأ مشروعه ببضع مئات من الفرنكات.

والظاهر أنه في الليلة التي دخل فيها المدينة وحقيبته على ظهره وعصاه في يده، شبّت النار في دار البلدية، واندلعت ألسنتها، وهدّدت بتدمير المدينة كلها. فجازف[3] الرجل وألقى بنفسه وسط النيران، وأنقذ غُلامين ظهر في ما بعد أنهما ابنا رئيس الشرطة. ثم ساهم في إخماد النار، فلم يفكّر أحد بعد ذلك في الإطلاع على أوراقه الشخصية، وكل ما هنالك أنهم سألوه عن اسمه، فقال إنه يدعى الأب مادلين.

وأدخل الأب مادلين على صناعة الخرز والحلي المقلّدة ذلك التجديد المبتكر الذي أقال[4] هذه الصناعة القديمة من عثرتها[5]. وأصاب الرجل من ابتكاره ومن نشاطه وجدّه ربحًا بعد العام الأول من إقامة مصنع جديد كبير. وصار في استطاعة أي عاطل عن العمل أو جائع أن يقصد إلى هذا المصنع، فيجد على الفور عملاً وطعامًا.

---

(1) أثرى: كُثر ماله، صار ثريًا.

(2) الرخاء: الغنى ورفاهية العيش.

(3) جازف: خاطرَ.

(4) أقال، رفع، أنهض.

(5) عثرتها: سقوطها.

ولم يكن الأب مادلين يشترط في العامل غير الأمانة، وفي العاملة غير الطهارة والفضيلة. وقد شطر[6] المصنع إلى شطرين، أحدهما للعمال والآخر للعاملات، وذلك صونًا للفضيلة[7] أن تُمتهن[8] باختلاط الجنسين.

وقيل، بعد عامين، اودع الرجل مبلغ 360 ألف فرنك في بنك «لافيت».

والواقع أنه ادّخر هذا المبلغ، ولكن بعد أن أنفق فيفًا ومليون فرنك في أعمال الخير، وبعد أن أنشأ مستشفى جديدًا، وشيّد مدرستين وافتتح ملجأ لعله كان الأول من نوعه في فرنسا.

في العالم الثالث، شاع[9] أن الأب مادلين سُيعين عُمّدة، اعترافًا بفضله على المدينة، فقال حاسدوه الذين اتهموه بالأنانية والجشع[10]. «ألم نَقُلْ ذلك؟».

ولكن ما كاد النبأ يعلن في الجريدة المحلّيّة «مونيتير» حتى اعتذر الأب مادلين ولم يقبل المنصب.

وفي ذلك العام أيضًا، عُرض ابتكار الأب مادلين في معرض الصناعات الوطنية في باريس، وحاز الإعجاب، ومُنح المخترع وسام جوقة الشرف (اللجيون دوتور).

وقال حاسدوه في المدينة: «هذا ما كان يبغي»!.

---

(6) شطر: قسم.

(7) صونًا للفضيلة: حماية لها وحفاظًا عليها.

(8) تمتهن: تُحتقر.

(9) شاع الخبر: انتشر.

(10) الجشع: الطمع.

ولكن الأب مادلين اعتذر أيضًا ولم يقبل هذا الشرف. فقال الناس:

- إنه رجل غامض.

- وقال حاسدوه: ما هو إلا مغامر.

وفي العام الخامس، كان من المستحيل على ذي عينين أن ينكرَ

على الأب مادلين خدماته للمدينة ومرافقها[1] وأهلها. واتفق الرأي على أنه أحقُّ الناس بمنصب العمدة، فعرض عليه هذا المنصب للمرة الثانية فاعتذر، ولكن مدير البوليس لم يقبل اعتذاره، ودار به الناس في الطريق، وألحوا عليه في القبول، وأصرّ الأب مادلين من ناحيته على الرفض إلى أن سمع إحدى النساء تقول:

- إن من واجب الإنسان ألا يتقهقر[2] أمام أعمال الخير التي يستطيع الاضطلاع بها[3].

وعندئذ فقط، عدل الأب مادلين عن إصراره ورفضه.

وعُرف الأب مادلين بالبساطة والتواضع، ولم تغيّر الثروة أو المنصب من طباعه شيئًا، فهو هو بعينه، كما رآه الناس للمرّة الأولى، رجلٌ قويٌّ البنية، ثاقب النظر[4]، أشيب الشعر، نحاسيُّ البشرة. له وجه مفكر كوجوه الفلاسفة. يرتدي ثوبًا أسود يحجب جسمه حتى العنق، وقبعة سوداء عريضة تحجب جبهته

---

(1) المرفق: ما ينتفع به الناس.

(2) يتقهقر: يتراجع.

(3) الإضلاع بها: القيام بها.

(4) ثاقب النظر: ذو فراسة وبُعد نظر.

وعينيه، يُحبّ العزلة وقراءة الكتب، ويقيم وحده في منزل عتيق الأثاث، أثمن ما فيه شمعدانان قديمان لعلهما من الفضة.

وفي أحد الأيام، نقلت جريدة «موتينين» عن إحدى الصحف الإقليمية نبأ وفاة الأب فرنسوا شارل ميريل أسقف برينول، وذكرت أنه توفي في الثانية والثمانين من عمره، بعد أن فقد حاسة الإبصار منذ بضعة أعوام.

ولوحظ في اليوم التالي لإذاعة هذا النبأ، أن الأب مادلين قد وضع على قبعته شارة الحداد، وفهم الناس من ذلك أن له بالأسقف آصرة[1] قرابة، فزاد احترامه، وارتفع قدره[2] في نظر الناس.

وسألته إحدى السيدات ذات يوم:

– لابد أن سيدي العمدة هو ابن عم المرحوم أسقف برينول؟

فأجابها: كلا يا سيدتي.

قالت: ولكنك ترتدي شارة الحداد حزنًا عليه.

فأجابها: ذلك أنني كنت في وقت ما خادمًا لأسرته.

ومع مرور الأيام، هدأ غضب الحاسدين، وانحسرت[3] ألسنة الفضوليين، وأصبح الأب مادلين موضع ثقة أهل المدينة جميعًا.

ولم يبق في المدينة سوى رجل واحد لم تصل إليه عدوى هذه الثقة.

---

(1) أصره: رابطة.

(2) قدرء: مقامه، منزلته.

(3) انحسرت: تراجعت وارتدّت.

كانت غرائزُ[1] هذا الرجل تنفر من احترام الأب مادلين وتتمرد على الثقة به. فإذا وقع بصره عليه جمد في مكانه، وقلب شفتيه، وعقد ساعديه فوق صدره، وشيعه بعينين كميني الصقر، وقال لنفسه.

- مَنْ هو هذا الرجل؟! إنني رأيته قبل الآن، ولكن متى، وأين؟! كان اسم هذا الرجل جافير، ومهنته مفتّش للشرطة.

ولم يكن جافير قد رأى بدايةً الأب مادلين، لأنه جاء إلى مونفورميل بعد أن شيّد مادلين صرحَ مجده وثروته.

* * *

ولد جافير في السجن، ولما بلغَ مبلغ الرجال، أحسّ بأنه نكِرَة[2] وأشفق على نفسه أن يجرفَه تيار المجتمع.

ولاحظ جافير أن الهيئة الاجتماعية تنفر من طبقتين من الناس، طبقة العابثين بها وطبقة المحافظين عليها. ووجد لزامًا عليه أن يختار لنفسه إحدى هاتين الطبقتين، وشعر في الوقت نفسه بأنه مطبوع على الصلابة وحبّ النظام، فالتحق بخدمة البوليس، وقضى بعض سنى خدمته حارسًا في السجون، وارتقى في سنّ الأربعين إلى وظيفة مفتش!

وامتاز جافير بإيمانه العجيب بمبدأين: احترام النظام، وكراهية العِصيان. وكان يحترم حرّاس النظام والقانون من رئيس الوزاء إلى الخفير[3]، ويرى أنّ

(1) الغرائز: الميول التي هي من طبيعة الإنسان.

(2) نكرة: غير معروف.

(3) الخفير: الحارس.

السرقة والقتل وغيرهما من الجرائم ضربٌ من العصيان والتمرد على النظام، ويحتقر إلى حد الكراهة كل إنسان خرق النظام[1] وتخطى عتبة القانون، ولو مرة واحدة في حياته.

كانت شخصيته تعبّر عن المهنة التي خُلق لها. مهنة الرجل الذي يتوارى عن العيون وكله عيون ترقب الناس. فجبهته مختفية دائمًا تحت قبعته، وعيناه غائصتان تحت حاجبيه، وذقنه متوارية في ياقته[2]، ويداه مدفونتان في جُيَيْبَه، وعصاه مختفية تحت معطفة. فإذا حان وقت العمل، برز الرجل من مخبئه، وظهرت جبهته الضيقة، ولمعت عيناه بقسوة، وخرجت يداه الضخمتان من جُيَيْبِيه.

وقد كان جافير أشبه بعين لا تتحول أبدًا عن مادلين، عين تبعث منها نظرات الشك والارتياب. وأحسّ مادلين أخيرًا بهذه النظرات؛ ولكنه لم يفهم معناه، ولم يُقِمْ لها وزنًا، بل لم يفكر في اجتنابها أو الفرار منها، وصمد أمامها دون أن يبدوّ عليه أن يشعر بها، وظل يعامل جافير كما يعامل سائر الناس، بالرفق والحسنى والاحترام.

ولكن في أحد الأيام، حدث أن ترك سلوك جافير أثرًا عميقًا في نفس الأب مادلين.

فقد اتفّق ذات يوم أن كان الأب مادلين يجتاز شارعًا غير معبّد[3] مليئًا بالأوحال بعد الأمطار الغزيرة التي هطلت في اليوم السابق، فسمع جلبة[4]

(1) خرق النظام: خالفه، /تجاوزه.

(2) الياقة: قبة القميص.

(3) معبّد: ممهّد.

(4) جلبة: ضوضاء، أصوات مختلطة.

غير عادية، ورأى في نهاية الشارع جماعة من الناس تبدو عليهم علامات الاضطراب والانزعاج، فقصد إليهم، وهناك رأى جوادًا مُلقى على الأرض وشيخًا متقدمًا في السن يئن[1] تحت عربته التي انقلبت فوقه.

كان هذا الشيخ يُدعى فوشْليفان، وهو أحد الأعداء القليلين الذين ظلّوا يبغضون الأب مادلين حتى ذلك اليوم، لا لشيء إلا لأن الأب مادلين أثرى بعد افتقار، وشبع بعد سَغَب[2]، واحتلّ في المدينة تلك المكانة الرفيعة[3] بعد أن كان نكرة لم يشعر به أحد، وذلك في الوقت الذي أضاع فيه فوشْليفان مركزه وثروته، وانحدر من كاتب عقود إلى رجل مفلس لا يجد قوت[4] يومه، واضطر إلى استخدام مركبته وجواده لنقل ما يُطلب إليه نقله.

وكان الجواد قد انزلق فانكسرت ساقاه، وعجز عن الوقوف فيما روحت العربة يحملها الثقيل فوق صدر الشيخ ففرزته في الأوحال.

وأنّ الشيخ أنينًا مزعجًا، وحاول بعضُ المارّة إخراجه من مازقه[5] واجتذابه من تحت العربة، فذهبت[6] محاولاتهم إدراج الرياح.

كان لابد لإخراجه من أن تُرفع العربة من مكانها.

---

(1) يئن: يصرخ صرخات خفيفة.

(2) سغب: جوع شديد.

(3) المكانة الرفيعة: المنزلية العالية، المركز العالي والمهم.

(4) القوت: الطعام القليل.

(5) مازق: موقف صعب.

(6) ذهبت إدراج الرياح: ذهبت سُدًى، بلا جدوى.

كان جافير قد وصل إلى مكان الحادث، فأرسل في الحال في طلب رافعة لرفع العربة.

وأبصر الناس الأب مادلين وهو يقترب، فأفسحوا له الطريق في احترام.

وصاح فوسليفان: النّجدة! أليس بينكم رجل كريم ينقذ شيخًا من الهلاك؟

وأجال مادلين البصر حوله، وسأل: أليست لديكم رافعة؟

فأجاب أحدُ الناس: لقد أرسلنا في طلبها.

- ومتى ينتظر إحضارها؟

- بعد ربع ساعة على الأقل، سيؤتي بها من حانوت «هانشيد» فهتف الأب مادلين في ذعر: بعد ربع ساعة!

وكانت العربة قد انقلبت في حفرة مليئة بالأوحال، فأخذت عجلاتها تغوص بالتدريج وضغطُ العربة يشتدُّ على صدر الرجل.

كان من الواضح أنها ستحطم ضلوعه وتكتم أنفاسه قبل انقضاء خمس دقائق أخرى. فصاح الأب مادلين وهو ينظر حوله:

- من المستحيل الانتظار ربع ساعة أخرى. أصغوا إلي! لا يزال تحت العربة مُتَّسَع لجسم آخر، أفلا يستطيع أحدكم أن ينزلق تحت العربة ويرفعها فوق ظهره؟ هذه العملية لا تستغرق نصف دقيقة، وعندئذ يمكن اجتذاب هذا الشيخ التعس. أليس بينكم رجل قوي العضلات؟ أليس بينكم مَنْ يريد أن يربح عشرة جنيهات؟

فأطرق السامعون رؤوسهم. وقال قائل:

- يجب أن يكون الإنسان قويًا جدًا، لكي يرفع هذه العربة، ثم إنه سيكون

عُرضة[1] لأن يتهشم جسمه.

فقال مادلين مرة أخرى: عشرون جنيهًا لمن يؤدّي هذا العمل الكريم.

فساد الصمت.

قال جافير: إن القوم هنا لا تعوزهمْ[2] الشجاعة وحسن النية بقدر ما تعوزهم القوة. والرجل يجب أن يكون على جانب عظيم من القوة البدنية لكي يتمكّن من رفع هذه العربة فوق ظهره.

ثم نظر إلى الأب مادلين بحدة، وقال ببطء كمن يريد أن يؤكد كل كلمة ينطق بها: يا مسيو مادلين... إنني لم أرَ في حياتي غير رجل واحد يستطيع الاضطلاع[3] بمثل هذه المهمة.

فرفع مادلين رأسه بحدّة. واستطرد جافير بقلّة اكتراث[4]، ودون أن ينظر في عيني مادلين: وقد كان هذا الأخير سجينًا في ليمان طولون.

فامتقع[5] وجه مادلين.

وفي هذه الأثناء، كانت العجلات تغوص في الأوحال باستمرار، فصاح فوشليفان:

- إنني أختنق، إن ضلوعي تتمزق.... يا إلهي! أين الرافعة؟.

---

(1) سيكون عرضة: سيتمرّض.

(2) تعوزهم: تنقصهم.

(3) الاضطلاع: القيام.

(4) اكتراث: اهتمام.

(5) امتقع: تغيّر، أصفرّ.

فنظر مادلين حوله وهتف مرة أخرى: ألا يوجد رجل على استعداد لأن ينقذ هذا الشيخ ويربح عشرين جنيهًا؟

فلزم الجميع الصمت، وقال جافير مردِّدًا: قلت لك إنني لم أرَ في حياتي رجلاً يستطيع أن يجعل من جسمه رافعة، إلا ذلك السجين.

فصاح فوشليفان: ربَاه! إن جسمي يتهشَّم.

فرفع مادلين رأسه، والتفت عيناه بعيني جافير اللتين ترمقانه[1] كأنهما عينا صقر، ثم تنهّد في حزن، وركع على ركبتيه دون أن ينطق بكلمة أخرى.

وقبل أن يدرك الناظرون غرضه[2] كان قد انزلق تحت العربة.

وانقضت لحظة انتظار مخيفة.

حاول الأب مادلين، وهو منبطح على بطنه، أن يرفع العربة فوق ظهره، وأن ينهض على يديه وركبتيه. وكرَّر هذه المحاولة مرة أخرى، ولكن بغير جدوى[3].

وصاح الناظرون: أخرج أيها الأب مادلين.

وقال فوشليفان نفسه: أخر ودعني أيها الأب مادلين. لقد أصبح موتى محقَّقًا، فلا تقتل نفسك معي.

فلم يُجِبْ مادلين. وظلّت العجلات تغوص بالتدريج، فحبس القوم أنفاسهم.

صار من المستحيل على الأب مادلين نفسه أن يخرج من تحت العربة.

---

(1) ترمقانه: تنظران إليه.

(2) يدرك الناظرون غرضه: يفهمون هدفه.

(3) جدوى: فائدة.

وفجأة، اهتزت العربة هزّة عنيفة. وبدأت العجلات ترتفع من الأوحال،

وهتف صوت مختنق: النجدة... أسرعوا!

كان ذلك صوت مادلين وهو يبذل جهدًا أخيرًا. فخرج القوم من ذهولهم، وهجموا على العربة، لأن شجاعة الرجل الواحد تثير شجاعة الآخرين.

وهكذا امتدّت عشرات السواعد المفتونة[1]، ورفعت العربة، فنجا فوشليفان.

وبرز مادلين من الأوحال، وهو شاحب اللون، والعرق يتصبّب على جبينه، وقد تمزقت ثيابه، وتلطخت بالأوحال.

وأقبل فوشليفان على منقذه، وراح يقبّل ركبتيه، فيما تحول مادلين إلى جافير، ونظر إليه في هدوء وسكينة، وعلى وجهه مسحة من الألم النبيل[2].

وأمر الأب مادلين، فنُقل فوسليفان إلى المستشفى لمعالجته.

وفي صباح اليوم التالي، وجد فوشليفان في فراشه ورقة مالية ذات ألف فرنك، ورقعة بخط الأب مادلين عليها هذه الكلمات:

«ثمن العربة والجواد اللذين ابتعتهما[3]».

واندملت[4] جروحُ فوشليفان، ولكنه أصيب بعرج، فاستعان مادلين بقس المدينة، وبالراهبات اللائي[5] يعنين بالمرضى في المستشفى.

وأوجد لفوشليفان عملاً كبستاني في دير سان انطوان بباريس.

---

(1) المفتولة: المجدولة العضلات أي القويّة.

(2) النبيل: الشريف.

(3) ابتعتهما: اشتريتهما.

(4) اندملت: التحمت وقاربت الشفاء.

(5) اللائي: اسم موصول مختص بجمع المؤنث.

الفصل الرابع

قرارة الهاوية

عادت فانتين إلى مونفورميل فلم تجد هناك مَنْ يتذكّرها أو يعرفها. ولكن من حُسن الحظّ أنها وجدت مصنع الأب مادلين مفتوحًا أمامها كساعدَي الصديق الحميم[1].

تقدّمت إلى المصنع وطلبت عملاً، فأُرسلت في الحال إلى قسم العاملات. وكانت المهنة غريبة عنها جديدة عليها، فمُنحت أجرًا قليلاً يوازي[2] خبرتها وإنتاجها؛ ولكنها قنعت بهذا الأجر، لأنها وجدت فيه الكفاية.

واغتبطت[3] الفتاة المسكينة حين شعرت بأنها تستطيع أن تعيش من كدّها[4] وعرق جبينها. وعاودها نشاطها السابق. وانتعشت فيها الرغبةُ في العمل، فابتاعت مرآة صغيرة لتنعم فيها بتأمل شبابها الغضّ[5] وشعرها الذهبي وأسنانها اللؤلؤية. وتسبت في غبطتها أشياء كثيرة. وأصبح كل تفكيرها منصبًّا على صغيرتها

(1) الصديق الحميم: الصديق المختصّ، المقرَّب.

(2) يوازي: يعادل، يساوي.

(3) اغتبطت: فرحت.

(4) كدّها: عملها.

(5) الغض: الطري الناعم.

كوزيت، وعلى الأموال التي تستطيع أن توفرها لها من أجرها المحدود.

واستأجرت غرفة صغيرة، وجلبت لها أثاثًا وعدت أن تدفع ثمنه من أجرها على أقساط.

ولما لم يكن في استطاعتها أن تزعمّ أنها متزوجة، فإنها حرصت كل الحرص على كتمان أمر ابنتها. وراحت ترسل إلى تيناردييه بانتظام الأجر الذي اتفقا عليها.

كان اسمها هو الكلمة الوحيدة التي تعرف كيف تكتبها، فاضطُرت أن تلجأ إلى أحد الكتبة العموميين، ولوحظ عليها ذلك في المصنع، فتهامست بعض الخبيثات.

- إن فانتين تكتب بانتظام إلى صاحب حانة في بولانجيه.

ومن سوء حظُها أن الكاتب العمومي كان من أولئك الذين لا يملأون يطونهم بالخمر دون أن يفرغوا جَعبتهم[1] من الأسرار. وكانت النتيجة أن ذاع بين العاملات في المصنع أن لفانتين ابنة. ودفع الفضول إحدى العاملات، فتطوّعت للسفر إلى بولانجيه، وعادت تقول إنها رأت الطفلة بعيني رأسها.

على أن ذلك كله استغرق وقتًا.

وفي أحد الأيام، بعد أن قضت فانتين في المصنع أكثر من عام، جاءت رئيسة العاملات، وأعطتها خمسين فرنكًا باسم مادلين، عمدة المدينة وصاحب المصنع، وقالت لها إن المصنع في غنى عن عملها[2]، وإن العمدة ينصحها

(1) الجعبة: الكيس، والمقصود هنا بإفراغ الجعبة من الأسرار أنه يبوح بكل الأسرار التي يطلع عليها في الرسائل.

(2) في غنى عن عملها: لا يحتاج إلى عملها.

بمغادرة المدينة.

حدث ذلك في الشهر نفسه الذي حتّم[1] فيه تيناردييه أن يكون الأجر خمسة عشر فرنكًا بدلاً من اثنى عشر.

ذُعرت فانتين....

لم يكن في استطاعتها أن تبرحَ المدينة، فهي تدين لصاحب المنزل ببعض المال، ولم تدفع من ثمن الأثاث غير القليل، والفرنكات الخمسون لا تكفي لسداد هذه الديون.

غمغمت بضعَ كلمات على سبيل التوسّل[2] والاستعطاف[3]، ولكن رئيسة العاملات طلبت إليها في خشونة أن تبرح[4] المصنع في الحال، لأن المصنع ليس بحاجة إلى فتيات من طرازها[5].

وانصرفت فانتين، والعار يكاد يسحق جسمها النحيل.

إذًا قد افتضح أمرّها. وعرف الجميع زلّتها، فماذا تفعل؟

نصحتها إحدى صديقاتها أن تقابل العمدة وتستعطفه وتثير عاطفة الرحمة في نفسه الكريمة، ولكنّها خجلت أن تفعل ذلك.

وبعد.... ماذا تستطيع أن تقول له؟ ألا يكفي أنّ الرجل أعطاها خمسين

(1) حتّم: فرض وحكم.

(2) التوسل: الرجاء، الطلب بإلحاح.

(3) الاستعطاف: طلب العطف.

(4) تبرح: تغادر.

(5) من طرازها: من نوعها، على شاكلتها.

فرنكًا على سبيل الإحسان؟!

ثم أليس الرجل حرًّا في تطهير مصنعه من مثيلاتها؟

ولكن في الواقع أن الأب مادلين لم يكن يعلم من أمرها شيئًا، فإنه اعتاد أن يتجنّب قسم العاملات، وقد أناط[1] هذا القسم بامرأة جاءه، بها القسّ وأوصاه بها خيرًا. فأولاها ثقتَه[2]، وترك لها حرية التصرّف. وقد ظنّت هذه المرأة حين اتهمت فانتين وحاكمتها، وقضت في أمرها، أنها لم تفعل إلا ما يقضي به الواجب برًّا[3] بالثقة التي وضعها مادلين فيها.

أما الخمسون فرنكًا التي قدّمتها إلى فانتين، فإنها اقتطعتها من مبلغ وضعه الأب مادلين بين يديها، ووقفه على[4] عمل الخير والإحسان، ولم يكن لزامًا عليها أن تقدم عنه حسابًا.

وحاولت فانتين أن تجد عملاً في أحد المنازل، ولكن الناس جميعًا تجنّبوها، ونفضوا أيديهم منها[5].

ولم تستطع مغادرة المدينة، فقد قال لها صاحب الأثاث:

- إذا حاولت الفرار، أبلغت أمرك إلى الشرطة كأنك سارقة.

وقال لها صاحب المنزل:

---

(1) أناط: كلّف به.
(2) أولاها ثقته: منحها ثقته، ركن بها.
(3) برًا: إخلاصًا.
(4) وقفه على: خصَّصه لـ...
(5) نفضوا أيديهم منها: رفضوامساعدتها.

- إنك ما زلت في مقتبل العمر، وحسناء، وفي استطاعتك أن تدفعي.

وزَعت فانتين الفرنكات الخمسين بين صاحب المنزل وصاحب الأثاث، واشتغلت بتطريز القمصان لجنود حامية المدينة[1]، لقاءأَجْرٍ زهيد لا يكاد يشبع جوعًا.

وفي هذه الفترة، بدأ تخلّفها[2] عن إرسال النقود إلى تيناردييه.

ولما قلَّ ربحها، اضطرت أن تشرك معها في الغرفة عجوزًا تدعى مرغريت.

وشعرت بالحنين إلى ابنتها، وخطر لها وسط هذا الشقاء أن ترسل في طلبها.

ولكن كيف تأتي بها وهي تدين لتيناردييه بمبلغ جسيم، ولا تملك أجر المركبة التي تحمل إليها ابنتها؟!

* * *

كانت فانتين قد طُردت من المصنع في نهاية الشتاء، فانقضي الصيف، وعاد الشتاء التالي.

وفي الشتاء يتجمّد ماء السماء، وتتحجّر قلوب الناس، فضيّق الدائنون الخناق على المرأة التعسة، لأن أرباحها تضاءلت[3]، وديونها تضاعفت، وفي الوقت نفسه اشتدّ إلحاح تيناردييه، وتوالت[4] رسائله.

وقد كتب إليها في أحد الأيام يقول إن كوزيت عارية البدن، وإنها إذا أرادت

(1) حامية المدينة: فرقة العسكر التي تحميها وتدافع عنها.

(2) تخلفها: تراجعها، تقصيرها.

(3) تضاءلت: قلّت.

(4) توالت: تتابعت.

أن تنقذ ابنتها من الموت بردًا، فعليها أن تسارع إلى إرسال عشرة فرنكات على الأقل ثمنًا لثوب من صوف.

وقد ظلّت فانتين ممسكة بهذه الرسالة طول النهار. ولما هبط الليل قصدت الى حانوت حلاق في ركن الشارع، وحلّت جدائلها فانسدل[1] شعرها البديع حتى مسّ فخذيها.

هتف الحلاق: ما أجمل هذا الشعر!

فسألته: كم تدفع ثمنًا له؟

- عشرة فرنكات.

- قُصَّه إذًا.

وابتاعت لابنتها ثوبًا من الصوف بعثت به إلى تيناردييه.

وأرغى[2] تيناردييه وأزبد[3]، لأنه كان يريد الفرنكات العشرة وأعطى الثوب لابنته الكبرى، وظلت كوزيت ترتعد من البرد.

وقالت فانتين لنفسها:

- لن تشعر ابنتي بقساوة البرد بعد الآن، فقد كَسَوتُها[4] بشعر رأسي.

ووضعت على رأسها قلنسوة[5] صغيرة، أخفت جمجمتها الملساء التي لم

(1) انسدل: أُرخِي، أُرسِلَ من دون رباط.

(2) أرغى: ضجَّ غاضبًا وهدّد.

(3) أزبد: ضجَّ غاضبًا وهدّد.

(4) كسوتُها: ألبستُها.

(5) قلنسوة: نوع من ملابس الرأس.

تتلْ[1] كثيرًا من جمالها.

ولما وجدت أنها لا تستطيع بعد الآن أن تعالص[2] شعرها الجميل، تبدّل شعورها، وأظلمت نفسها، وبرمت الحياة[3]، وبدأت تكره كل شيء حولها.

قبلاً كانت تشاطر[4] الناس احترامهم للأب مادلين، فلما طردها، أو توهّمت أنه طردها، وكان سببًا في شقائها، استحال احترامها إلى احتقار، وحبها إلى كراهة، وأصبحت أشد مقتًا[5] له من ألد أعدائه[6]، فإذا مرّ بها بصقت على الأرض، وإذا مرّت ببابه ضحكت ساخرة، أو ترنّمت بأغنية.

وأبصرتها إحدى عجائز المصنع ذات ليلة وهي تضحك وتغني، فقالت:

- هذه الفتاة ستنتهي إلى أسوأ مصير.

واتخذت فانتين لنفسها عشيقًا من أول رجل راودها عن نفسها[7].

اتخذته عشيقًا، رغم أنها لا تحبه. ولكنها فعلت ذلك غيظًا وغضبًا، لتبكّت[8] العاملات اللائي شمتن بشقائها وبؤسها.

---

(1) لم تتل من جمالها: لم تُنقص من جمالها.

(2) تعالص: تعقد.

(3) برمت بالحياة: ضجرت من الحياة.

(4) تشاطر: تشارك، تُقاسم.

(5) مقتًا: كرهًا.

(6) ألد أعدائه: أشدّهم عداء.

(7) راودها عن نفسها: أغراها.

(8) تبكّت: تؤنب.

ولكن عشيقها كان وغدًا[1]، وكان يشبعا ضربًا. فهجرته مشمئزة كما قبلته مشمئزة.

ومحا الشقاء كل عاطفة نبيلة في نفسها إلا عاطفة الحنان والأمومة.

كانت تحبّ ابنتها حبَّ عبادة، وكلما انحدرت في قرارة الهاوية، تألّق هذا الحب وأضاء جوانب نفسها المظلة المفعمة[2] باليأس والحنق[3].

قالت لنفسها: متى أصبحت غنية، فإنني أبعث في طلب ابنتي كوزيت، ونعيش معًا. ولن تستطيع آية قوة أن تفرّق بيننا بعد ذلك.

وضحكت. وسعلت.

وفي أحد الأيام، تسلّمت فانتين رسالة من تيناردييه يقول فيها: «لقد أصيبت كوزيت بالحمى الصفراء، والعقاقير[4] الطبية قد كلفتنا كثيرًا، ولم يعد في استطاعتنا دفع ثمنها بعد الآن. وإذا لم ترسلي أربعين فرنكًا قبل انقضاء أسبوع ماتت ابنتك».

قرأت فانتين هذه الرسالة، وانفجرت ضاحكة. ثم خرجت إلى الشارع وهي لا تزال تضحك وتغنّي. وسألها سائل عن سبب مرحها وسرورها، فأجابت:

- أتسألني عما يضحكني؟! إن أحدهم يطلب مني أربعين فرنكًا فهل سمعت بأعجب من هذا؟!

(1) وغدًا: دنيئًا، خسيسا.
(2) المفعمة: المليئة.
(3) الحنق: الغضب.
(4) العقاقير: الأدوية.

ومرّت بسوق المدينة، ورأت جماعة من الناس يدورون بمركبة كبيرة قد وقف فيها رجل يرتدي ثوبًا أحمر.

كان الرجل طبيب أسنان متجوّلاً، وكان يعرض على الجمهور العقاقير المسكنة والمساحيق والأسنان الاصطناعية. ويغري الناس بخلع أسنانهم المتداعية[1].

وأصغى الناس إلى حديثه اللبق[2]، وضحكوا. وضحكت فانتين، فأبصر الطبيب أسنانها اللؤلؤية وهتف:

ما أبدع أسنانك أيتها الحسناء الضاحكة إذا فكّرت في الخلاص من سنيك الأماميّتين، فإنني على استعداد لأن أدفع جنيها ثمنًا لكل سن.

فهتفت فانتين بدورها: يا له من خاطر[3] مخيف!!

وقالت امرأة عجوز لها فم الطفل الرضيع:

- جنيهان! ما أسعد هذه الفتاة!

وأوسعت فانتين الخطي، ووضعت أصابعها في أذنيها، لكي لا تسمع صوت الطبيب، وهو يصيح في أثرها:

فكري في الأمر أيتها العزيزة. جنيهان أفضل في هذا الزمن من الأسنان. وإذا وافقت فإنني في انتظارك الليلة في حانة «بّاك دارجان».

(1) المتداعية: التي توشك أن تسقط.

(2) اللبق: الظريف، الحاذق.

(3) خاطر: فكرة.

وعادت فانتين إلى غرفتها وهي تتميّز[1] غيظًا وغضبًا. وحدّثت مرغريت بما حدث، وصاحت: هل رأيت في حياتك رجلاً شَرّ[2] من هذا الطبيب؟! يريد أن ينتزع السنّين الأماميتين من فمي لكي أبدو قبيحة دميمة[3]، مخيفة المنظر.

- لَخير لي أن أُلقيَ بنفسي من النافذة وأموت، ذلك أفضل ألف مرة من ضياع أسناني.

فسألتها مرغريت: وما الثمن الذي عرضه عليك؟

- إنه عرض عليّ جنهين.

- أي أربعين فرنكًا.

وهنا ظهرت على وجه فانتين علامات الهمّ والتفكير. وتناولت رسالة تيناردييه، وأعادت قراءتها، ثم قالت:

- هل تعرفين ما هي الحمى الصفراء؟ وهل تتطلّب هذه الحمى كثيرًا من العقاقير والأدوية؟

فأجابتها مرغريت: أظن ذلك.

- وهل تعتقدين أن هذه الحمى تصيب الأطفال؟.

- إنها تفتك بهم[4] أشد مما تفتك بالكبار.

(1) تتميّز: تتقطّع.
(2) شر: أكثر شرًا أي أشد قسوة.
(3) دميمة: قبيحة.
(4) تفتك بهم: تبطش بهم.

فأعادت فانتين قراءة الرسالة. ولما هبط الليل تسلّلت من غرفتها وخرجت إلى الشارع.

وفي الصباح، دخلت مرغريت إلى غرفت فانتين لتوقظها كالمعتاد لأنهما كانتا تشتغلان بالتطريز مَعًا؛ ولكنها وجدّتها جالسة في فراشها وخيل إليها أنها كبرت في تلك الليلة عشرة أعوام.

هتفت: يا إلهي... ماذا دهاك[1] يا فنتين؟

فأجابت فانتين: لا شيء. إنني في خير حال. ولن تكون الحاجة إلى الأودية والعقاقير الطبية سببًا في موت ابنتي بالحمّى الصفراء، إنني مطمئنة ناعمة البال.

قالت ذلك، وأشارت إلى جنيهين يلمعان فوق المائدة وابتسمت؛ ولكنها كانت ابتسامة مخيفة. فقد انفرجت[2] شفتاها عن هوة عميقة مظلمة، وسأل من ركن[3] فمها خيط من الدم.

وأرسلت الأربعين فرنكًا إلى تيناردييه وفرك تيناردييه كفّيه ارتياحًا لأن كوزيت لم تكن مريضة.

قذفت فانتين بمرآتها من النافذة. واستعاضت عن غرفتها الفسيحة بركن مظلم في الطابق الأرضي. وأفقدها العوز خيلاءها[4]، كما أفقدها حياءها. فراحت

---

(1) دهك: أصابك.

(2) انفرجت: انفتحت.

(3) ركن: زاوية.

(4) خيلاءها: إعجابها بنفسها.

تسير في الشارع في خرق مهلهلة[1]، إما لإهمالها وإما لضيق وقتها.

واستبدّ بها الدائنون، فكانوا يرابطون لها[2] في الشارع، ويقتحمون[3] عليها غرفتها.

واشتدّت عليها وطأة السعال، وشعرت بألم مؤمن كامن تحت ضلعها الأيسر.

ولكنها ظلت تعمل سبع عشرة ساعة في النهار، إلى أن خطر لذوي الشأن أن يستخدموا السجينات لصنع أقمصة الجنود، وعندئذ سدّت في وجه فانتين جميع أبواب الرزق.

وفيما هي في هذا الضيق القاتل، إذا بها تتسلّم رسالة من تيناردييه يقول فيها إنه انتظر طويلاً، حتى ضاق صدره. وإنها إذا لم تبعث إليه بمائة فرنك في الحال، فإنه يلقي ابنتها – التي لم تبرأ[4] من مرضها بعد – على قارعة الطريق[5].

وقرأت فانتين هذه الرسالة وهتفت: مائة فرنك... يا إلهي! أين المهنة التي أستطيع أن أربح منها مائة سنتيم في اليوم؟! يجب أن أبيع كل ما تبقى.

ونزلت الفتاة التعسة إلى الشارع لتعرض للبيع أثمن ما تحرص عليه المرأة الشريفة.

* * *

(1) مهلهلة: بالية.

(2) يرابطون لها: ينتظرونها حتى تأتي، يتربّصون بها.

(3) يقتحمون: يدخلون بالقوّة.

(4) تبرأ: تشفى.

(5) قارعة الطريق: وسطه.

الفصل الخامس

ملاك وشيطان

بعد ثمانية أو عشرة أشهر، في ليلة شديدة البرد والصقيع، كان أحد المتبذلين[1] يسير متسكعاً[2] في الطريق، وقد دسّ يديه السمينتين في جيوب معطفة السميك.

ووقع بصرُ الرجل على امرأة تسير جيئة وذهابًا، أمام نافذة مقهى الضبّاط.

وكانت المرأة تردي ثوبًا رقيقًا كثباب المراقص، ينحسر[3] عن صدرها، ويكشف عن ساعديها.

كانت من أولئك المخلوقات التعسة التي تتسلّل تحت جنح الظلام وتتسكَع أمام المقاهي والحانات، لتغري المارة وتلفت إلى نفسها الأنظار.

وأراد الرجل أن يداعيها ولكنه كان سمجًا[4]، فكانت دعاباته كالقذائف.

قال لها: ما أشد بشاعتك! أليست لك أسنان؟!

ولم تلق المرأة إليه بالاً، بل لم تنظر إليه. واستمرّت تروح وتجئ بانتظام،

(1) المتبذلين: أدنياء السلوك والخُلق.

(2) متسكعًا: ماشيًا على غير هديّ.

(3) ينحسر: يتكشف.

(4) سمجًا: قبيحًا.

فوق الأرض المغطاة بالثلوج.

ومضى الرجل في إلحته[1]، وراح يرميها بوابل[2] من السخرية اللاذعة والدعابات السمجة.

وكأنما ضايقه ألا تحفلّ[3] المرأة به، فانتظر حتى دارت على عقبيها[4]. ثم تسلّل وراءها بخفة، وألتقط حفنة من الثلج، ودسّها بين كتفيها العاريتين.

وأفلتت من فم المرأة صرخة مزعجة، ووثبت على الرجل كالفهد وراحت تغرز أظافرها في وجهه بوحشية، وترسل من فمها المجرّد[5] من الأسنان سيلاً[6] من الشتائم، بصوت أكسبته[7] الخمر خشونة مخيفة.

كانت هذه المرأة فانتين. وكان الرجل من الموسِرين المعروفين في المدينة، ويُدعى «باماتآبوا».

وامتلأ الجو بصراخ المرأة، وشتائم الرجل، فازدحم المارّة. وخرج الضباط من المقهى، ودار الجميع بالرجل والمرأة وراحوا يصفقون ويضحكون.

---

(1) الحتة: وقاحته.

(2) الوابل: المعنى الأصلي هو المقبر الشديد، والمرادُ، هنا، أن عبارات السخرية كانت كثيرة ومتلاحقة.

(3) تحفل: تهتمّ.

(4) العقب: مؤخَرة القدم: ودارت على عقبَيها: رجعت من حيث أتت.

(5) المجرّد: الخالي.

(6) السيل: الما المجتمع المتدفق، والمراد هنا كثرة الشتائم الموجهة إليها.

(7) اكسبته: أعطته.

كان الرجل يحاول عبثًا أن يتخلصَ من براثن[1] المرأة، وقد سقطت قبعته، وتهدّلت[2] ثيابه. والمرأة تضرب بيديها، وتركل بقدميها وقد انكشف رأسها، فبدت بلا شعر، وانفرجت شفتاها، فبدت بشعة مقيتة[3] مخيفة.

وفجأة برز رجل طويل القامة، وراح يشقّ طريقه وسط الزحام حتى وصل إلى حيث كانت المرأة، فأمسك بثوبها الحريري الملوّث بالأوحال وقال لها بلهجة الأمر:

- اتبعيني.

ورفعت المرأة رأسها، وأبصرت الرجل، فاختنق صوتها وشحب لونها وارتجفت خوفًا وفزعًا.

عَرفت أن هذا الرجل المفتش جافير.

أما غريمها[4] فإنه انتهز تلك الفرصة، وتوارى عن الأنظار.

وسار جافير نحو مكتب الشرطة، وهو ممسك بثوب المرأة، وتبعته المرأة كالآلة الصماء، ولم ينطق أحدهما بكلمة.

كان مكتب الشرطة قائمًا في غرفة ضيقة، منخفضة السقف. لها باب من زجاج يحرسه شرطي مسلّح، فدخل جافير تلك الغرفة، واجتذب فانتين، وأغلق

(1) براثن: أظافر.
(2) تهدلت: تدلت.
(3) مقيتة: كريهة.
(4) غريمها: خصمها، عدوّها.

الباب في وجه الفضوليّين[1] الذين تبعوهما.

وألبعَت[2] فانتين في أحد أركان الغرفة كالكلب المذعور، وجلس جافير أمام مكتبه وتناول ورقة وقلمًا، وراح يكتب.

وفي ذلك العهد، كانت مصائر هذه الطبقة من النساء هن إرادة رجال الشرطة.

وكانت القضيّة واضحة، فهناك بغيّ[3] تحرّشت بأحد المارة، واعتدت عليه وشهد مفتش الشرطة بعينيه هذا العدوان.

واستمرّ جافير يكتب وهو صامت، ثم ذيل الورقة باسمه[4]. وطواها وقدّمها إلى أحد رجال الشرطة وهو يقول: اذهب بهذه المرأة إلى السجن.

وتحوّل إلى فانتين وأردف: ستقضين في السجن ستة أشهر.

فرفعت الفتاة التعسة رأسها في دهشة وصاحت:

- ستة أشهر! ستة أشهر في السجن، حيث لا أربح سوى سبعة سنتيمات كل يوم؟ وماذا يكون من أمر كوزيت؟ ماذا يكون من امر ابنتي؟ ثم إنني أدين لتيناردييه بمئة فرنك ونيف، أفتعلم ذلك يا سيدي المفتش؟

وعقدت يديها فوق صدرا متوسّلة، واجتازت الغرفة سيرًا على ركبتها حتى وصلت إلى مكتب المفتش وهتفت:

- أسألك الرحمةَ يا مسيو جافير. أؤكد لك أنني لم أذنب. لو انك رأيت

(1) الفضولي: الذي يتدخل فيما لا يعنيه.

(2) البعت: انزوت تستتر.

(3) بغي: فاجرة تكسب المال بفجورها.

(4) نيل الورقة باسمه: كتب اسمه في ذيل الورقة أي في آخرها.

البداية لاقتنعت بأنني لم أذنب. لو أنك رأيت البداية لاقتنعت بأنني لم أذنب. إنني لا أعرف هذا الرجل، وقد وضع الثلج بين كتفي، فجُنَّ جنوني، وقبل ذلك كان يهزأ بي، ويسخر مني، فقلت لنفسي: «صبرًا.... هذا رجل يريد أن يلهو، فلا ضير[1] عليه» ولزمت جانب الصمت. ولكنه مضى في عبثه وبَغْيِه[2]، حتى وضع الثلج بين كتفي. ألا يوجد مَنْ يشهد على صدق كلامي يا مسيو جافير؟ إنني أخطأت حين وطئت[3] قبعة الرجل وأتلفتها، ولكن أين ذهب الرجل؟ إنني على استعداد لأن أطلب منه الصفح والمغفرة. أعفُ عني هذه المرة يا مسيو جافير! لا شك أنك لا تجهل أن السجين لا يربح أكثر من سبعة سنتيمات، ويجب عليّ أن أدفع مائة فرنك، وإلا طُردت ابنتي، وتُركت على قارعة الطريق.

أواه... يا كوزيت! يا ابنتي العزيزة! ماذا يكون من أمرك أيتها الصغيرة المسكينة ؟! رحمة بي يا مسيو جافير.

فقال جافير: لقد أصغيت إليك. فهل قلت كل ما عندك؟ اذهبي الآن. ستقضين في السجن ستة أشهر.

وأولاها ظهره[4]. فاقترب الشرطيّ من الفتاة وأمسك يساعدها.

وكان الباب قد فُتح في هدوء قبل بضع دقائق ودخل منه رجل لم يشعر به أحد.

وقد وقف هذا الرجل لصق الباب، فحجبه جسمُ الشرطي عن عيني جافير.

---

(1) ضير: ضرر.

(2) بغيه: تعدّيه، ظلمه.

(3) وطئت: دست.

(4) أولاها ظهره: أدار لها ظهره.

وسمع الرجل توسّلات فانتين وضراعتها[1]. ولم يأتِ بحركة أو ينطق بكلمة.

ولما أمسك الشرطي يساعد الفتاة واجتذبها[2] بعنف، والفتاة تأبى[3] أن تنهض من مكانها، برز الرجل من الظلام، وقال محدّثًا الشرطيّ: أرجوك أن تنتظر لحظة.

ونظر جافير إلى المتكلم، وعرف إنه الأب مادلين، فرفع قبّعته وأحنى قامته في احترام، وغمغم: طاب مساؤك يا سيدي العمدة!

وأحدثَتْ كلمة العمدة تأثيرًا عجيبًا في فانتين، فإنها نهضت من مجثمها[4] في الحال كأنه شبح يبرز من الأرض، وانتزعت ساعدها من قبضة الشرطي بقوة، ووثبت إلى حيث كان الأب مادلين، فرمقته بنظرة وحشيّة وهتفت: أهذا أنت أيها العمدة؟!

وقهقهت ضاحكة، وبصقَت على وجهه، فمسح الأب مادلين وجهه بيده، وقال:

- أيها المفتش جافير أطلق سراح هذه المرأة.

ومرّت بجافير لحظة خُيّل إليه فيها أنه سيفقد عقله.

أتبصق بغيّ على وجه العمدة؟ تلك في نظره جريمة مستحيلة الوقوع، وإذا وقعت فهي أشد نكرًا[5] من الكفر.

---

(1) ضراعتها: طلبها المعونة بِذُلّ.

(2) اجتذبها: شدّها نحوه.

(3) تأبى: ترفض.

(4) مجثمها: مكان جلوسها.

(5) النكر: الأمر الشديد القبح؛ والمُنكر: ما ليس فيه رضى الله من قول أو فعل.

ولما رأى العمدة يمسح وجهه في هدوء وسمعه يقول: «أطلق سراح هذه المرأة»، استولى عليه ذهول[1] ألجم[2] لسانه، وشلّ تفكيره، وجعله يجمد في مكانه كالصنم.

كذلك أحدثت عبارة العمدة تأثيرًا عجيبًا في فانتين، فرفعت ساعديها العاريين وتعلقت بالباب كمن يخشى السقوط. ثم أجالت حولها نظرة شاردة، وراحت تقول بصوت خافت كأنها تتحدث إلى نفسها:

- أنا حرّة طليقة! ولن أقضي في السجن ستة أشهر؟! مَنْ ذا الذي قال ذلك؟ لا يمكن أن يكون القائل هو هذا العمدة الشرير. أنت الذي قلت ذلك يا مسيو جافير الطيب القلب. سأصارحك إذًا بالحقيقة، وستطلق سراحي. لقد كان هذا العمدة الأثيم[3] علّة[4] مصائبي، فإنه أصغى إلى وشاية[5] الراشين فطردني من مصنعه. ومنذ ذلك العهد لم أربح ما يكفيني. وبهذه المناسبة يجب أن ألفت[6] رجال الشرطة إلى أمر جدير بالاهتمام، وهو ضرورة منع نزلاء السجون من الإضرار بأرزاق الفقراء. فالنساء في السجون يصنعن أقمصة الجند بأجر زهيد جعل عملنا مستحيلاً. وقد كان يتعيّن عليّ أن أنفق على

(1) ذهول: دهشة: تعجّب.
(2) ألجم: أسكت.
(3) الأثيم: الخاطئ، المذنب.
(4) علّة: سبب.
(5) الوشاية: النميمة، الكلام السيّء.
(6) ألفت: أنبّه.

ابنتي الصغيرة كوزيت، فاضطررت أن أسلك طريق[1] الفساد وأضرب بالشرف عرض الأفق.. وجريمتي الآن هي أنني وطئت بقدمي قبعة ذلك الرجل. ولكن الرجل أتلف ثوبي بالثلج الذي دسّه في ظهري، ومثيلاتي لا يملكن في الغالب غير ثوب واحد. وأؤكّد لك يا مسيو جافير أنني لم أتعمّد[2] فعل الإضرار بأحد، وأني أعرف نساء أشدّ مني رداءة! ولكنهن أسعد مني حظًا. هل قلت إنني حرة طليقة يا مسيو جافير؟

وأصغى إليها الأب مادلين بانتباه شديد حتى فرغت[3] من الكلام فسألها:

- قلت إنك مدينة ببعض المال، فكم يبلغ دينك؟

فتحوّلت إليه فانثنت وهتفت: هل تحدّثتُ إليك؟

ثم نظرت إلى الشرطيّ واستطردت:

- حدّثني أيها الشرطي، ألم ترَ كيف بصقت على وجهه؟ إنك جئت لتخيفني أيها العمدة الشرير، ولكني لا أخشاك، ولا أخشى أحدًا غير مسيو جافير الطيّب القلب.

ونظرت إلى المفتش مرة أخرى وأردفت:

- لقد أدركتُ الآن أنك رجل مُنصف[4] يا مسيو جافير. والواقع أن الحادث في غاية البساطة، فقد وضع الرجل الثلج في ثوبي لإضحاك الضباط في

(1) أسلك الطريق: أسير فيه.
(2) لم أتعمّد: لم أقصد.
(3) فرغت: انتهت.
(4) منصف: عادل.

المقهى، وللضباط كل الحق في أن يلهوا ويضحكوا، فنحن معشر النساء لم نُخلق إلا لإدخال المسرّة إلى قلوب الرجال وحضرت أنت في هذه الأثناء يا مسيو جافير، ولما كان الواجب يقضي عليك بأن تصون[1] الأمن والنظام، فإنك جئت بي إلى هنا، ظنًّا منك أنني المخطئة. ثم فكّرتَ في الأمر، وتبينتَ الحقيقة[2]، فأطلقت سراحي، من أجل ابنتي الصغيرة، لأن وجودي في السجن يغلّ[3] يدَيّ، ويمنعني من أن أعولَها[4]. وإني أعاهدك[5] يا مسيو جافير ألا أفعل في المستقبل ما يستوجب إحضاري إلى هنا، وليفعل بي الناس ما شاءوا، فلن اتذمر[6] ولن أحرّك ساكنًا[7]. وإذا كنت الليلة قد صرخت، وأحدثت هذه الضجة، فما ذلك إلا لأن برودة الثلج أزعجتني، وأنا مريضة كما يجب أن تعلم، إنني أسعل باستمرار وأشعر كأن نارًا تستعر[8] في صدري. نأولتني يدك أدلّك على موضع الألم، ناولني يدك ولا تخف.

وتناولت يده الخشنة، ووضعتها على صدرها الضعيف وهي تبتسم.

ثم أصلحت ثوبها بسرعة، وقصدت إلى الباب، وقالت وهي تحيّي الشرطيَّ بابتسامة:

---

(1) تصون: تحمي، تحفظ.

(2) تبينت الحقيقة: عرفتها.

(3) يغلّ: يقيّد.

(4) أعولها: أوفّر لها معيشتها.

(5) أعاهدك: أحطك عهدًا، أعدك.

(6) اتذمر: أتأفف.

(7) لن أحزن ساكنًا: لن أفعل شيئًا.

(8) تستمر: تشتعل.

– لقد قال مسيو جافير إنني أستطيع الانصراف، وهآنذا أنصرف.

وألقت بيدها على مَقْبِض الباب وهمَت بالخروج.

كان جافير حتى هذه اللحظة مطرقًا[1] رأسه لا يبدي حراكًا. فلما سمع مَقْبِضَ الباب يتحرّك، رفع رأسه كمن يستيقظ من نوم عميق، وصاح بالشرطيّ بلهجة صارمة[2]:

– أيها الشرطيّ، ألا ترى أن المرأة تهمّ بالفرار؟ مَنْ ذا الذي أمرك بإطلاق سراحها!؟

فقال مادلين: إنني أمرته.

وسمعت فانتين صوت جافير، فارتجفت وتركت مَقبض الباب. ثم سمعت صوت مادلين فتحوّلت إليه.

ولم تنطق بكلمة بعد ذلك، بل راحت تنقل البصر بين مادلين وجافير كلما تكلم أحدهما.

قال جافير:

– يا سيدي العمدة، ذلك لا يمكن أن يكون. فهذه المخلوقة قد أهانت رجلاً محترمًا.

فأجاب مادلين بصوت هادئ وبلهجة رقيقة:

– أصغ إلي يا مسيو جافير. إنك رجل أمين. ويقيني[3] أنني لن أجدَ صعوبة

(1) مطرقًا: حانيًا.

(2) صارمة: قاسية.

(3) يقيني: علمي الأكيد.

في إقناعك. والحقّ أنني ممرت بمكان الحادث بعد انصرافك بهذه الفتاة، فرأيت زِحامًا[1]، فاستفسرت عن سببه وعرفت الحقيقة.

لقد كان الرجل مخطئًا، وكانت العدالة تقضي[2] بأن تقبضَ عليه بدلاً منها.

- ولكن هذه المخلوقة التعسة قد أهانت سيدي العمدة منذ لحظة.

فأجاب مادلين: ذلك من شأني وحدي.

- عفوًا يا سيدي! إنها جريمة ليست من شأنك[3]، ولكنّها من شأن المحكمة.

فقال مادلين: يا مسيو جافير إنّ الضمير هو المحكمة العليا. لقد سمعت كلام المرأة، وإني أعرف ما أنا صانع.

- أما أنا يا سيدي العمدة فإنني لا أكاد أفهم ما أرى.

- في هذه الحالة يكفيك أن تُطيع.

- إنني أطيع واجبي. والواجبُ يقضي بأن أرسل هذه المرأة إلى السجن لتُمضي فيه ستة أشهر.

فأجاب مادلين في لطف: أصغ إليّ جيدًا يا مسيو جافير. هذه المرأة لن تقضيّ في السجن يومًا واحدًا!

وسمع جافير هذه الكلمات الحاسمة[4]. فنظر إلى العمدة بحدّة قائلاً:

---

(1) الزحام: تدافع الناس في مكان.

(2) تقضي: تفرض، توجب.

(3) ليست من شأنك: لا علاقة لك بها.

(4) الحاسمة: النهائية، التي لا تقبل الجدل.

- يؤسفني أن أعارضَك يا سيدي العمدة، وهذه أول مرّة في حياتي أعارض فيها أحد رجال السلطة، ولكني أرجو أن تلاحظَ أنني لم اتخطَّ[1] حدود واجباتي. فهذه المرأة قد أهانت مسيو باماتابوا، وهو رجل معروف يملك ذلك القصر الشاهق الكائن في شارع «سيلاند» عند طرف المدينة. والبتّ[2] في هذه القضية إذًا من اختصاص شرطة المدينة، وأنا مُصرّ على معاقبة هذه المرأة.

فعقد مادلين ساعديه فوق صدره، وقال بصوت صارم لم يسمعه أحد في المدينة من قبل: بل إن هذه القضية من خصائص شرطة الضواحي، لأن الرجل يقطن طرف المدينة. والموادُّ 9 و11 و15 و66 من قانون العقوبات تجعل من حقّي وحدي أن أقضيَ فيها، وقد قضيت بإطلاق سراح المرأة.

فحاول جافير أن يبذل مجهودًا أخيرًا وقال:

- ولكن يا سيدي العمدة...

فقاطعه مادلين: وإني ألفت نظرك إلى المادة 81 من القانون الصادر في 13 ديسمبر سنة 1799 بشأن حجز الأبرياء بغير حقّ.

- عفوًا يا سيدي... أرجو أن تسمح لي..

- إنني لا أسمح لك أن تزيد كلمة أخرى.

- ومع ذلك...

(1) لم اتخط: لم أتعدَّ، لم أتجاوز.

(2) البتّ: إصدار الحكم.

- أترك هذه الغرفة.

فأحنى جافير قامته باحترام عظيم، وانصرف:

كانت فانتين لا تزال واقفة بالباب ترقب ما يحدث وهي ذاهلة، مذعورة.

شهدت ذلك النضال[1] العجيب بين رجلين يسيطران على مصيرها، وبين أيديهما حريتها وحياتها، ومصير ابنتها. وسمعت أحد الرجلين يتكلّم كالشيطان، والآخر يتكلّم كملاكها الحارس. ورأت الملاك يهزم الشيطان[2].

بَيْدَ أن[3] الأمر الوحيد الذي أذهلها وجعلها ترتجف من قمّة رأسها إلى اخْمص[4] قدميها هو أن منقذها وملاكها الحارس كان الرجلُ نفسّه الذي تمقته[5] أكثر مما تمقت أي إنسان آخر في الوجود. كان هو العمدة الذي طَالما ظنّته سبب شقائها وأصل محنتها[6]. وقد أنقذها في الوقت الذي لطّخت[7] فيه وجهه بتلك الإهانة المخيفة.

أصغت إلى حديث الرجلين. وشعرت مع كل كلمة من كلمات الأب مادلين كأن ظلام الكراهة ينقشع من قلبها لكي يفسح سبيلاً لعاطفة جديدة، هي مزيج

---

(1) النضال: الصراع.

(2) يهزم الشيطان: ينتصر عليه.

(3) بيدّ أن: غير أن.

(4) اخْمص: باطن القدم.

(5) تمقته: تكرهه.

(6) محنتها: مصيبتها.

(7) لطَخْت: لوثت.

من الارتياح والثقة والحب والإجلال[1].

وما إن انصرف جافير حتى تحوّل إليها مادلين، وقال بصوت خافت، وهو صوت الرجل الرزين[2] الذي يبذل جهدًا كبيرًا ليحبس دموعه:

- لقد سمعت قصّتك ولا أعرف شيئًا عما ذكرت. ولكني أعتقد وأشعر بأنك ذكرت الحقيقة، ولم يكن لي علم بأنك تركت المصنع. فلماذا لم تلجأي إليّ؟! ولكن أصغي أليّ، سأحدثك بما سأفعله من أجلك.

سأقوم على سداد ديونك، وسأحضر ابنتك، أو اذهبي إليها إذا أردت. وفي استطاعتك أن تعيشي هنا، أو في باريس، أو في أي مكان تريدين. وسأمدّك بالمال أينما كنت، لكي تستردي سعادتك المفقودة وتعودي إلى حياة الشرف والكرامة. بل إنني أقول لك أكثر من ذلك... أقول لك إنه إذا صحّ كل ما ذكرت، ولا شكّ عندي في صحّته، فإنك لم تكوني قط في نظر الله إلا امرأة طاهرة فاضلةً كريمة.

مسكينة أنت أيتها المرأة.

وكان ذلك أكثر ما تستطيع فأنتين التعسة أن تحتمل.

أتعود إليها فأنتين؟ وتنفض عن حذائها تراب الرزيلة[3]، وتعيش مع ابنتها حرّة سعيدة محترمة موفورة الحاجة؟

ألا إن هذا هو النعيم الذي ليس في الدنيا ولا الآخرة نعيم مثله.

نظرت في ذهول إلى الرجل الذي يتحدث إليها، ولم تستطع إلا أن تردِّد:

آه.... آه.

(1) الإجلال: الاحترام.

(2) الرزين: الوقور.

(3) الرزيلة: الخطيئة.

وترنّحت[1] وسقطت على ركبتها أمام الأب مادلين، وقبل أن يلمحها تناولت يده وألصقَتها بشفتها، ثم أُغميَ عليها.

وأمر بها الأب مادلين، فنُقلت إلى المستشفي الملحَق بمنزله، والذي أعدّه خصيصًا لإيواء المرضي من العمال، وأوصي الراهبتين اللتين تقومان على العناية بالمرضي أن تعنيا[2] بها أشد عناية.

وقضت فأنتين شطرًا كبيرًا من الليل، وتُهذي[3] وتصيح بصوت مرتفع، ثم هبطت وطأة [4] الحمي، نامت نومًا عميقًا.

ولما فتحت عينيها قبيل ظهر اليوم التالي، شعرت بأنفاس تتردّد على مقربة منها، فاطلّت من كدّة[5] الفراش وفي عينيه نظرة إشفاق ورجاء وألم. فتتبعت نظراته، ووقع بصرها على تمثال السيد المسيح.

سألت في خجل: ماذا تصنع؟!

وكان الأب مادلين قد قضي بالقرب من الفراش ساعة أو بعض ساعة في انتظار أن تستيقظ، فتناول يدها وجسّ[6] نبضها، وسأل: كيف حالك؟

- إنني في خير حال، فقد نمت نومًا عميقًا.

---

(1) ترنّحت: تمايلت.

(2) أن تعنيا: أن تهتما.

(3) تهذي: تتكلم بغير المعقول.

(4) وطأة: شدّة.

(5) كدة: مسُر رقيق للحماية من العرض.

(6) جسّ: تفحُص باللمس.

فأجاب عن سؤالها الأول: لقد كنت أبتهل[1] للشهيد المصلوب.

وكان أجدرَ به[2] أن يقول: لقد كنت أبتهل للشهيدة الممدّدة على الفراش.

وكان الرجل قد قضى الليل كلّه في البحث والاستفسار حتى علم حقيقة الخبر وعرف قصّةُ فأنتين المؤلمةَ.

قال: مسكينة أنت أيتها الأم، لقد تألّمت كثيرًا. ولكن لا تحزني وآلامك من النوع الذي يجعل من البش ملائكة. والجحيم الذي صُليت[3] فيه هو الدهليز الموصل إلى النعيم.

ودعى نبأ الجدل العنيف الذي دارٌ بين مفتش الشرطة والعمدة، فلما وقع بصر موظّف البريد في اليوم التالي على رسالة بخط جافير، وعليها اسم مدير الشرطة في باريس، أيقن[4] أن المفتش أرسل يستقيل من منصبه.

أما الأب مادلين، فإنه كتب فورًا إلى تيناردييه، وكان قد علم من فانتين أنها تدين لصاحب الحانة بمائه وعشرين فرنكًا، فأرسل إليه ثلاث مئة فرنك وأمره أن يبعث بكوزيت في الحال، لأن أمها المريضة تنظرها.

وتسلّم تيناردييه هذا المبلغ، فدهش، وقال لامرأته:

– يجب ألا تترك هذه الطفلة، فسوف تكون لنا كالبقرة الحلوب وأكبر ظنّي أن أحدهم قد وقع في غرام أمها.

(1) ابتهل: أتضرع وأرجو وجاة حارًا.

(2) أجدر به: أحق به، الأفضل له.

(3) صُليت: أحرقت.

(4) آيات: تحقق.

وأجاب عن رسالة مادلين بأن مرض كوزيت كلَّفه مائة فرنك أخرى.

فبعث إليه مادلين بهذا المبلغ، مُضافًا إليه مائتا فرنك. وألح عليه أن يرسل كوزيت على عجل.

فقال تيناردييه، كلا، كلا. يجب أن نحتفظ بالفتاة. إنها منجم[1] يدرُّ علينا[2] ذهبًا.

ولم تبرأ فأنتين من سقمها[3]. وكانت الراهبتان قد استقبلتاها أولا بشيء من النفور[4] والاشمئزاز. ولكن لم تمض أيام قلائل حتى لطفُ فأنتين نفورهما، وأثارَ حنانُها وأمومتها الرقيقة عاطفةَ الرحمة والإشفاق في قلبيهما.

وراح مادلين يزورها مرتين كل يوم، فتسأله فأنتين في كل مرة:

- هل أري ابنتي قريبًا؟

فيجيبها: ربما غدًا. إنني أنتظرها في أية لحظة.

فيُضيء وجهها الشاحب، وتهتف: كم أكون سعيدة!

ولم تتبدّل حالتها. فقد أضرّت بها حفنة الثلج التي دسَها الرجل في ظهرها، واشتدُّ سعالها.

وفحصها الطبيب وهزّ رأسه، فنظر إليه مادلين مستفسرًا.

---

(1) منجم: نفق يَحفر تحت الأرض لاستخراج المعدن والفحم.

(2) يدرّ علينا: يعطينا بوقره.

(3) سقمها: مرضها.

(4) النفور: الاشمنزاز.

قال الطبيب: هل قلت إنّ لها ابنة تريد أن تراها؟

- نعم.

- إذًا فأحضرها على عجل.

فقطب مادلين حاجبه. وسألته فأنتين: ماذا قال الطبيب؟

فابتسم مادلين على كره منه[1] وأجاب:

- إنه طلب أن أعجّلَ بإحضار الطفلة، لأن وجودها يبرئك[2] من سقمك.

فصاحت: أنك صدق الطيب! ولكني لا أدري لماذا أبطا تيناردييه.

ولم يرسل تيناردييه الطفلة، ألتمس[3] لذلك أسخف الأعذار. فقد قال إن كوزيت لا تزال مريضة، ومن المجازفة[4] بصحتها أن يسمح لها بالسفر في الشتاء.

وضاق[5] مادلين ذرعًا[6]، فقال:

- سأبعث من يأتي بكوزيت. وإذا قضت الضرورة فإنني أذهب أنا بنفسي.

وطلب إلى فأنتين أن توقع باسمها على رسالة جاء فيها:

«مسيو تيناردييه....

---

(1) على كره منه: رغُما عنه.

(2) يبرئك: يشفيك.

(3) ألتمس: بحث عن.

(4) المجازفة: المخاطرة.

(5) ضاق: لم يحتمل، لم يقدر.

(6) ذرعًا: لم يحمل، لم يقدر.

«أريد أن تَعَهَدَ[1] بابنتي كوزيت إلى حامل هذه الرسالة، وسيتولّى عني سداد ما عليّ من ديون».

وفي صباح أحد الأيام، بينما كان الأب مادلين في مكتبة يستعدّ للسفر إلى بولانجيه ويرتب أوراقه الرسمية، إذا بالخادم ينبئه بأن المفتش جافير يرجو مقابلته.

وشعر الأب مادلين بانقباض حين سمع هذا الاسم، ولكنه قال:

فدخل جافير وأحنى قامته للأب مادلين.

لم يكن في نظراته شيء من الحقد، أو الريبة[2]. ولكن مسحة من الحزن كانت واضحة على سحنته[3] الصارمة التي كأنما نُحتت من «الجرانيت».[4]

وضع مادلين الفنم من يده، وتحوّل إلى المفتش وسأل: ماذا وراءك يا جافير؟

فظلّ جافير صامتًا كأنه يفكر، ثم قال بصوت مرتفع:

- لقد حدث أمر منكر يا سيدي. فقد أخلَّ أحد صغار الموظفين بواجباته حيال[5] رجل السلطة. وقد جئت بحكم واجبي لإبلاغكم.

- ومن هو هذا الموظَف؟

- أنا.

- ومن هو جل السلطة الذي يشكو الموظف؟

---

(1) تعَهد: تكلّف الاعتناء.

(2) الريبة: الشك.

(3) سحنته هيئته.

(4) الجرانيت: صخَر بركاتي أسود اللون

(5) حيال: تجاه.

- أنت يا سيدي العمدة. وقد جئتك الآن لأنبهك إلى المطالبة بفصلي من العمل.

ففتح مادلين فمه في دهشة وعجب. واستطرد جافير:

- ستقول إنه في استطاعتي أن أقدِّم استقالتي ولكن الاستقالة لا تكفي، فإنني تورَّطت[1] في خطأ استحقُّ عليه العقاب، ولذلك يجب أن أطرد من الخدمة طردًا.

وصمت لحظة ثم أردف:

- يا سيدي العمدة، إنك قسوت في معاملتي منذ أيام بغير حق، فكن قاسيا اليوم بحق.

فهتف مادلين:

- ما معنى كل هذا؟! إنك تفهم نفسك، وتريدني أن أطلب أنقلك.... و....

- بل أرجو أن تطلب طردي.

- ولكني لا أفهم شيئًا من كل هذا.

- فتنهَّد جافير وقال ببرود، ولكن بحزن.

- اعلم إذًا يا سيدي العمدة أن ذلك الخلاف الذي شجر بيننا منذ ستة أسابيع قد أغضبني وأثار حقدي عليك، فوشَيتُ بك[2] إلى مدير الشرطة في باريس.

* * *

(1) تورطت: وقعت في ورطة «وتورطت في خطأ: إقترفت خطأ.

(2) وشيت بك: فضحت أمرك.

لم يتعوّد الآب مادلين أن يضحك، ولكنه انفجر الآن ضاحكًا وهتف:

- هل وشيت بي بصفتي عمدة طغي[1] بسلطته على سلطة رجال الشرطة؟!

- بل بصفتك سجينًا سابقًا في ليمان طولون.

فامتقع لون الأب مادلين. ومضي جافير في حديثه دون أن يرفع بصره عن الأرض:

- لقد حسبتك ذلك السجين، فإن ما بدا من قوة عضلاتك في حادث فوشليفان والشَبه العجيب، الذي لمحته في تقاطيع وجهك، والمعلومات التي ذهبت نستقيها من قرية «فافيرول». كل ذلك حملني على الارتياب بأنك جان فالجان، وهو سجين سابق رأيته منذ عشرين سنة حين كنت حارسًا في ليمان طولون. وقد علمت من أم هذا السجين فيما بعد أنه سرق أمتعة أحد الأساقفة، واغتصب[2] قطعة تقود من أحد الغلمان وضاع أثره منذ ثمانية أعوام رغم الجهود التي بُذلت في البحث عنه.

فقال الأب مادلين بقلّة اكتراث وهو يتصفّح[3] دفترًا بين يديه:

- وماذا كان الردّ الذي تلقّيته من باريس؟

- جاءني الرد بأنني مجنون، وهي الحقيقة.

- من حُسن الحظ أن تعترف بذلك.

---

(1) طغي: تجاوز الحدّ.

(2) أغتصب: أخذ عنوة.

(3) يتصفّح: يقلّب الصفحات بنظرة عاجلة.

- وهل أستطيع الإنكار..... وقد قُبض على جان فالجان الحقيقي؟

فأقُفل الدفترُ الذي كان بين يدَى مادلين، ورفع رأسه ونظر إلى جافير دهشًا مستفسرًا.

قال جافير:

- الواقع، أنه كان في مدينة «إبلي» رجل رقيق الحال متقدّم في السن يدعي «شاتماتيو» وقد ضُبط[1] هذا الرجل أخيرًا متلبَسًا بسرقة[2] تفاح من إحدى الحدائق، وأَرسل إلى سجن «أراس». وصادف أن كان في ذلك السجن سجين قضي بضعة أعوام في ليمان طولون. فما كاد يبصر شاتماتير حتى صاح:

- إنني أعرف هذا الرجل. لقد رأيتُه في ليمان طولون. أنظرْ إليّ يا هذا، ألستَ أنت جان فالجان؟

فأنكر شانمانيو وأصرّ على الإنكار. بَيْدَ أن سجينين آخرين عرفاه في الحال، فلما وشيت بك، جاءني الرد بأنني معتوء، وأن جان فالجان مسجون فعلاً رهن المحاكمة[3].

ولكني أردت أن أتحقق من الأمر بنفسي. فاتصلت بذوي الشأن في دارس»، وسمحوا لي بمقابلة السجين.

- وهل قابلته؟

- الحقُّ يا سيدي العمدة أن ذلك السجين هو جان فالجان. وقد رأيته

(1) ضُبط: ألقي القبض عليه.
(2) متلبساً بسرقة: في وقت ارتكاب السرقة.
(3)

وعرفته. فأرجو صفحك[1].

فلم يجبه مادلين، بل سأل بسرعة: وماذا يقول هذا الرجل؟!

- إن موقفه زاد حرجًا يا سيدي العمدة، لأن قضيته لم تعد قضية شيخ مسكين سرق بضع تفاحات بل قضية مجرم ذي سوابق سطا[2] قبلاً على منزل أحد الأساقفة، واغتصب عنوة[3] مال غلام ضعيف. وهو لن يُحاكم الآن أمام محكمة الشرطة، بل سُيقدّم إلى محكمة الجنايات. وسيكون جزاؤه السجن المؤبد.

على أن جان فالجان رجل ماكر[4]، وأي إنسان في موقفه كان لابد أن يحتجَ، ويقاوم، ويقسم أنه ليس جان فالجان. أما هذا الشقيّ، فإنه يزعم أنه لا يدري مما حوله شيئًا، ويقول إنه شالماتيو» ويرفض الإقلاع[5] عن زعمه[6] ويتظاهر إلى جانب ذلك بالبلاهة والغباء، ولكن الأدلة كافية، ويوجد أربعة شهود — أنا واحد منهم — يؤكدون أنه جان فالجان، وقد دُعيت فعلاً لأداء الشهادة في محكمة جنايات «أراس».

كان الأب مادلين قد عاد إلى عمله، فراح يكتب تارة ويقرأ تارة أخري.

ثم قال فجأة: كفي! كفي يا جافير. هذه التفاصيل لا تهمّني كثيرًا. ووقتنا أثمن من أن يُصرف في غي أعمالنا. ألم تقل إنك ستذهب لأداء الشهادة في

(1) رهن المحاكمة: قيد المحاكمة، تُجري محاكمته.
(2) صفحك: عفوك.
(3) عنوة: بالقوة.
(4) ماكر: محتال.
(5) الإقلاع: التوقف، الامتناع.
(6) عن زعمه ادعائه.

محكمة أراس بعد أسبوع أو عشرة أيام؟

- بل قبل ذلك يا سيدي.

- متي إذاً؟

- غدًا، وسأبدأ رحلتي إلى أراس الليلة.

- وهل تستمرّ المحاكمة طويلاً؟

- يومًا على الأكثر، وقد يصدر الحكم في المساء، ولكني لن أنتظر صدوره، بل سأعود أدراجي[1] بعد أداء الشهادة مباشرة.

قال مادلين ببساطة: حسنًا.

وكان المنتظَر بعدئذ أن ينصرف لم يَبْرَح مكانه.

قال الأب مادلين: ماذا عندك أيضًا؟

- أريد أن أذكرك بأن تطلبُ طردَيَ.

فنهض مادلين واقفًا وقال:

- إنك رجل شريف يا جافير. وأنا اقدّرك[2] واعتقد أنك تبالغ في تجسيم[3] هفوتك[4]، وأصرّ على بقائك في منصبك.

فقال جافير في هدوء: إنني لا أسمح بذلك يا سيدي العمدة.

- دعني أقول لك مرة أخرى، إن هفوتك من شؤوني الشخصية ولكن جافير ثم يسمع غير صوت ضميره، فقال:

(1) سأعود أدراجي: سأعود من حيث أتيت.

(2) قدّرك: أحترمك.

(3) تجسيم: تكبير.

(4) هفوتك: غلطتك الصغير.

- يا سيدي العمدة، إنني أعامل نفسي، كما يجب أن أعامل الآخرين، وكثيرًا ما شعرت بقسوتي على المُذنبين والخاطئين فكنت أقول: كن على حذر يا جافير – فالويل لك إذا هفوت.

ولقد هفوتُ وحقت عليَّ العقوبة[1].

إنّ من مصلحة المجتمع أن يكون خُدامه مُثُلاً عُليا في النزاهة. وقد أصبحتُ بعد هذه الهفوة غير جدير بخدمة المجتمع.

إنني قويّ الساعدين يا سيدي العمدة، وسأفلح الأرض أو أصبح عاملاً، وكل ما أطالب به الآن، وهو طرد المفتش جافير.

فقال مادلين: سوف ننظر في ذلك.

وبسط إليه يده، ولكن جافير تراجع بخطوة، وقال في حزم:

- عفوًا يا سيدي! ينبغي للعمدة ألا يضع يده في يد جاسوس إنني أصبحت جاسوسًا منذ أسأت استخدام سلطة وظيفتي.

وأحني رأسه باحترام، ومشي إلى الباب، وهناك نظر وراءه، وقال دون أن ينظر في وجه العمدة: سأستمرّ في عملي، حتى يأتي خَلَفي[2].

وسمع مادلين وقع أقدامه الثقيلة وهو يبتعد بخطوات متّئدة[3] ورزينة.

* * *

(1) حقت على العالوية: وجبت على العقوبة، صرت أستحقها.
(2) خلفي: الذي سيتولى المنصب من بعدي.
(3) متئدة: متهلة، متأنية.

الفصل السادس

زوبعة في جمجمة

ذهب مادلين بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة فانتين كالمعتاد. وكانت تنتظره دائمًا بفارغ الصبر كما لو كان يحمل إليها الدفء والضوء. وقد استبدّت بها الحمّي[1] في ذلك اليوم، فلم تكد تري الأب مادلين حتى هتفت: أين كوزيت؟

فأجابها وهو يبتسم: ستأتي قريبًا.

وطالت زيارته أكثر من المعتاد، وقضي في غرفتها ساعة. وأوصي الراهبتين أن توفَرا لها أسباب الراحة ما استطاعتا إلى ذلك سبيلاً، ولوحظ عليه أن أكتاب[2] حين همس الطبيب في أذنه كلامًا.

وعاد مادلين بعد ذلك إلى مكتبه، ولاحظ أحد الموظفين أنه يطيل النظر إلى خريطة مثبتة بالجدار، تبيّن طق فرنسا.

وفي المساء، قصد العمدة إلى بيت رجل يدعي سكوفلير، عرف أنه يؤجّر المركبات والجياد للراغبين في استجئارها.

(1) استبدّت بها الحمَى: استدّت عليها.

(2) إكتاب: حزن، المتهم.

وكان سكوفلير وقتند في منزله، يشتغل برَتق[1] أعنه[2] الجياد، فسأله مادلين:

- هل أجد لديك جوادًا كريمًا[3] يا سكوفلير؟

فأجابه الرجل: كلُّ جيادي من كرام الخيل يا سيدي. فماذا تعني بجواد كريم؟

- إني أريد جوادًا يَقْوى على قَطْع عشرين مرحلة في اليوم، ويبقي محتفّظا بنشاطه في اليوم التالي.

- لديَ جواد أبيض صفير يفي بفرضك[4] يا سيدي العمدة، ولكنّه عنيد لا يمكنك أن تمتطيه[5]، ومن الخير أن تشدّه إلى مركبة، فهل تستطيع قيادة المركبة؟

- نعم.

- ويجب كذلك أن تسافَر بمفردك وبغير أمتعة حتى لا تُثقلَ كاهل[6] الجواد.

- اتفقنا.

- وأجر هذا الجواد ثلاثون فرنكًا يوميًا.

فناقده[7] مادلين ثلاثة جنيهات وهو يقول: إليك أجر ثلاثة أيام.

- حسنًا، متى تريد الرحيل؟

---

(1) الرتق: الإصلاح.
(2) أعنّه: جمع عنان؛ سَيْر اللجام الذي يُمسك به الجواد.
(3) الجواد الكريم: الجواد الأصيل.
(4) يفي بفرضك: يحقق حاجتك.
(5) أن تمتطيه: أن تركبه.
(6) الكاهل: أعلى الظهر.
(7) نقده: أعطاه الثمن نقدًا، دفع له نقودًا.

- أرسل الجَواد والمراكبة إلى منزلي في منتصف الساعة الرابع من صباح غد.

ولا شك أن القارئ قد أدرك بذكائه أن الأب مادلين لم يكن في الواقع إلا جان فالجان.... وبحسبنا[8] أن نذكرَ الآن ما كان من أمر هذا الشريد بعد حادث الغلام جرفيه.

استحال جان فالجان بعد هذا الحادث رجلاً غير الرجل. فأصبح كما أراده الأسقف أن يكون. ونجح في الاختفاء، وباع صحاف الأسقف واحتفظ بالشمعدانين على سبيل التذكار.

ووصل فالجان إلى مونفورميل في الظروف التي أوردناها، وتفتّق ذهنه عن الابتكار[9] الذي أنعش المدينة وجلب له الثروة والمجد، وعاش مطمئنًا ناعم البال، سعيدًا بأنَّ الماضي يحزنه، وبأن الشطر[10] الثاني من حياته يكاد أن يمحقُّ الشطر الأوَل.

وعلى الرغم من شدة حرصه وحلوه فإنه احتفظ بشمعداني الأسقف وليس ثوب الحداد حزنًا عليه، واستفسر عن عائلة أخته في فافيرول. وأنقذ حياة فوشليقان رغم تلميحات جافير.

كان ينظر إلى الأمور نظرة العقلاء الأنقياء العادلين، الذين يرون أن واجبهم الأول ليس حيال أنفسهم.

---

(8) بحسبنا: يكفينا.

(9) الابتكار: الاختراع.

(10) الشطر: القسم.

ولكن ينبغي أن تقول إن مأزقا كمأزقه الحالي لم يعرضْ له[1] قط فيما مضي. وقد أذهله وأدهشه أن يسمعَ بأذنيه ذلك الاسمَ الذي دفنهُ منذ زمن بعيد.

أحسّ بالسماء تبرق وترعد فوق رأسه، وخطر له وهو يصغي إلى كلام جافير أن ينطلقَ في التوّ[2] فيفشي بنفسه[3]، وينقذ شانماتيو، ويحلَّ في السجن محلّه.

وآلمه هذا الخاطر كما لو كان جرحًا في لحمه. ثم زال الألم، وقال لنفسه: لننتظر.

وأحنقه[4] ذلك الشعور الفطري الكريم، وتراجع عن موقفه البطولي. وقضي بقيُة ذلك النهار في تلك الحالة، هدوء في الظاهر وعاصفة في الباطن[5].

واضطرب ذهنه، وتلاطمت خواطره، فلم يتبيّن فكرة واحدة واضحة. ولم يكن في استطاعته أن يقول عن نفسه أكثر من أنه أصيب بلطمة[6] أفقدته الوعَي.

وبعد أن تناول عشاءه في المساء، راح يستعرض موقفه، ولاحظ أنه لا يزال سيّد الموقف رغم حَرَجه[7].

قال لنفسه: وممّ أخاف؟ كان يوجد باب واحد يستطيع ماضيّ أن يقتحمَ منه حاضري. وقد أُغلق هذا الباب، وأُغلق إلى الأبد. ولن يُزعجني جافير بعد

(1) يعرض له: يواجهه.
(2) في التوّ: حالّا.
(3) يشي بنفسه: يكشف أمر نفسه.
(4) أحنقه: أغضبه.
(5) الباطن:عكس الظاهر، الداخل أعماق نفسه.
(6) لطمه: ضربه على الوجه.
(7) حَرجه: صعوبته.

الآن، لأنه اطمأنّ إلى مكان غريمه جان فالجان، ومن المحتمل كذلك أن يغادر جافير هذه المدينة، وقد حدث كل ذلك دون أن يكون لي فيه إصبع، فلماذا اليأس والتشاؤم؟!

إنّ العناية الإلهية دبرَت كل شيء، فلماذا لا أدعُ الأمور تسير في مجراها الطبيعي؟

ولكن خُيِّل إليه أن الاسقف ينظر إليه من القبر، وأنه يري في الأب مادلين العمدة إنسانًا مقيتًا حقيقًا[1] باللعنة، ويرى في جان فالجان السجين إنسانًا طاهرًا نقيّ الضمير حقيقًا بالإعجاب والإكبار[2].

سيرى الناس قناعه الزائف ويري الأسقف وجهه على حقيقته.

سيري الناس حياته، أما الأسقف فسيري ضميره.

كلا.... كلا.... يجب أن ينطلق إلى «أراس»، وينقذ جان فالجان الزائف، ويرشد إلى جان فالجان الحقيقي.

وأسفاه! ستكون هذه أعظم تضحياته، وأمرّ انتصاراته، وآخر خطواته، ولكنه يجب أن يخطوها. فما أشقاه! وما أتعسه! إنه لن يُطهِّر نفسه في عين الله حتى يتلوّث بالأوحال في عين الناس.

قال: يجب أن أؤدّي واجبي، وأنقذ ذلك الرجل.

قال: ذلك بصوت مرتفع، دون أن يلاحظ أنه رفع صوته.

وعمد إلى دفاتره، فراح يراجعها ويرتّبها. وألقي في النار طائفة[3] من

(1) حقيقا: جديرًا.

(2) الإكبار: التعظيم.

(3) طائفة: مجموعة.

صكوك الديون التي عجز المدينون عن أدائها، وكتب رسالة بعنوان «مدير بنك لافيت بشارع دارتوا بباريس».

ولما فرغ[1] من ذلك، كان الليل قد انتصف، فتهالك في مقعده[2]، وبذل جهدًا عنيفًا لكي يجمع شتات أفكاره، وغمغم: نعم.... لقد حزمت أمري على أن أشي بنفسي.

ثم تذكّر فانتبه فجأة، وهتف: ولكن.... صبرًا! ماذا يكون من أمر هذه المرآة التعسة؟!

وهنا هبّت عاصفة جديدة، وبدت له فانتين كشعاع غير منتظر، وخيّل إليه أن كل شيء حوله قد تغيّر.

هتف: صبرًا. صبرًا. إنني لم أفكر حتى الآن إلا في نفسي، ولم أسأل إلا ضميري ولم أعبأ[3] إلا بمصيري، ولكن لنفترض أنني فكرت قليلاً في مصائر غيري؟

إذا وشيتُ بنفسي، أُطلِقَ سراح شانماتيو وأُرسل إلى السجن. فماذا يكون بعد ذلك؟ ماذا يحدث بعد ذلك؟

هنا مدينة ومصانع ومتاجر، ورجال ونساء، وشيوخ وأطفال، وأنا الذي أوجدت ذلك كله، وحينما توجد نار تستعر، فأنا الذي أشعلتها، وأنا الذي وضعت اللحم في الآنية التي فوقها.

أنا الذي أوجدت هذا النشاط، وهذا الرخاء، وهذه الحركة، وهذا الشراء. فإذا

(1) فرغ: أنتهى.
(2) تهالك في مقعده: تساقط على مقعده.
(3) أعبأ: أهتمّ.

ذهبت أقفرت[1] المصانع، وأغلقت المتاجر، وأجدبت[2] الحياة، وتفرَق الناس.

ثم هنالك تلك المرآة التعسة التي تألمت كثيرًا، وكنت على الرغم مني علّة[3] ألمها وشقائه، والطفلة التي اعتزمتُ[4] البحث عنها، وردَها إلى أمها، أفليس لهذه المرآة عليّ حق؟ أليس من حقها على أن ارفّه من آلامها، وأمحوَ إساءتي إليها؟ فإذا ذهبتُ فماذا يكون؟ ستموت الأبنة. نعم، ذلك سيحدث إذا وشيت أنا بنفسي....

وتردّد.... وارتجف. ثم أردف.

- إذا لم أش بنفسي قضي ذلك الرجل بقية حياته في الليمان، وهو جدير بهذه العقوبة، لأنه سرق، فليذهب إذًا، ولأبقَ هنا، وأواصل أعمالي. ومتى انقضت عشرة أعوام، أصبحت صاحب ملايين كثيرة أستثمرها[5] هنا وهناك. فتنشط الصناعة والتجارة، وتتضاعف الأسر السعيدة، ويعمّ[6] الرخاء، ويختفي الشقاء. ومع الشقاء تختفي الجرائم والرذائل بأنواعها. وتتوفر[7] هذه الأم التعسة على تربية ابنتها.

حقًا، إنني كنت مجنونًا حين فكرت في الوشاية بنفسي.

---

(1) أقفرت: خلت.

(2) أجدبت: أمحلت.

(3) علّة: سبب.

(4) اعتزمت: قررت.

(5) استثمرها: أستفيد منها في مشروع فتدرّ عليّ المال.

(6) يعمّ: ينتشر.

(7) تتوفر على: تصرف همتها إلى.

أأكون سببًا في خراب مدينة، وموت أمٍّ، وتشرّد طفلة، لا لشيء إلا لرغبتي في أن أقوم بدور الرجل الكريم النبيل، لكي أنقذ من السجن لصًّا مجهولاً، لا قيمة له في الحياة ولا وزن؟

هناك اعتبارات جديرة بإنقاذ المجرم وتضحية البرئ، ومن هذه الاعتبارات أن أنتشلَ[1] كوزيت الصغيرة من البؤرة[2] التي تنتظرها والتي انزلقت[3] إليها أمها من قبل.

كلا. كلا. يجب أن أتركَ الأمور تسير في مجراها الطبيعي.

سأظلّ الأب مادلين، والويل لجان فالجان!

وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابًا، ثم وقف وقال:

- لقد حزمتُ أمري[4]، ويجب ألّا أتردّد، وهناك بعض خيوط لا تزال تربطني بجان فالجان ومن الضروري قصمها[5]. نعم في هذه الغرفة شاهدا صامتان يجب إعدامهما.

وتناول شمعدانَي الأسقف، وقذف بهما في النار المستعرة بالموقد.

ووقف يرقب الفضّة وهي تذوب.

وفجأة، سمع في أعماقه صوتًا يهتف به: جان فالجان... جان فالجان.

فانتصب شعر رأسه، وتصبّب العَرَقُ على جبينه.

(1) انتشل: انتزع، اسحب، أُخرج.
(2) البؤرة: مركز أو نقطة تجمّع: والمراد هنا تخليصها مما يمكن أن تتعرّض له.
(3) انزلقت: سقطت.
(4) حزمتُ أمري: اتخذت قراري.
(5) قصمها: فسخها.

ومضي الصوت يقول: أحسنت صنعًا يا جان فالجان، فامض فيما بدأت، قيد[1] الشمعدانين فإن ذكراهما لا تسرّ، وانسَ الأسقف، إنسَ كلَ شيء، واقض على شانماتيو. هذا حسن! لقد انتهي كلُّ شيء الآن، فهنّئ نفسك. إن هذا الرجل العجوز الذي لا يعلم ما يراد به، والذي كُلُّ ذنبه أن اسمك يخيِّم فوقه كالكابوس، هذا الرجل العجوز سيؤخذ بجرائمك[2] وآثامك[3]، وسيقضي ما بقي من أيامه في هوان[4] ومذلّة. هذا حسن! كن أنت رجلاً أمينًا، وابقَ عمدة كما أنت، واستمتع بالاحترام والمجد والغني، واجلب الرخاء لهذه المدينة، وساعد الفقراء، وتعهَّد اليتامى بالعطف والإحسان. وعش سعيدًا، كريمًا ناعم البال، بينما يحمل البري، وزرك[5]، ويرزح[6] تحت ثقل اسمك ويقضي حياته مكبَلاً باغلالك[7]، نعم، كل هذا حسن أيها الوغد[8]!

وانحدرت حبَات العرق على جبينه، واستقرّت نظراته الشاردة على الشمعدانين.

ومضي الصوت يقول:

---

(1) قيد: إقضِ على، دَمِّرَ.

(2) سيؤخذ بجرائمك: سيحكم عليه بجرائم أنتَ ارتكبتَها.

(3) آثام: مفردها إثم: خطيئة.

(4) الهوان: الذلّ.

(5) وزرك: حملك الثقيل.

(6) يرزح: يسقط ولا يستطيع النهوض.

(7) مكبَلًا يا غلالك: مقيّدًا بقيودك.

(8) الوغد: الدنيء، الخسيس.

- جان فالجان، سوف ترتفع من حولك أصوات كثيرة تطريك[1] وتباركك، وسينبعث من الأعماق صوت واحد خافت يلعنك، فأصغِ أيها الأثيم، كل هذه البركات سوف تسقط إلى الأرض، أما اللعنه فستصل وحدها إلى السماء.

كان هذا الصوت الذي انبعث من أعماق ضميره هادئًا خافتًا في البداية قد أصبح الآن هائلاً[2] مدوّيًا[3]، حتى خيّل إليه أنه ليس صوته ولا صوت ضميره.

فنظر حوله في ذعر وصاح: هل يوجد أحد هنا؟

ثم ضحك وأجاب: ما أشد غباوتي! فما من أحد.

ولكنه كان مخطئًا.

كان يوجد واحد لا تراه العيون.

واجتذب الشمعدانين من النار، وردّهما إلى مكانهما فوق المائدة ثم راح يمشي في الغرفة مشية الثمل[4].

وما زال هذا شأنه[5] حتى دقت الساعة الثالثة.

قضي خمس ساعات وهو يروح ويجيء ولا يقرّ له قرار[6]، إلى إن أنهكه[7]

---

(1) تطريك: تمدحك.
(2) هائلًا: مخيفًا.
(3) مدويًا: صارخًا.
(4) الثمل: السكران.
(5) شأنه: حاله.
(6) يقرّ له قرار: يثبت على رأي.
(7) أنهكه: أتعبه.

التعب. فارتمي في مقعدة واستغرق في النوم.

واستيقظ بعد قليل على وقع حوافر جواد أمام المنزل. ثم سمع طرقًا بباب غرفته.

سأل: من هذا؟

- أنا يا سيدي.

وعرف مادلين صوت خادمه.

قال الخادم: لقد جاءت المركبة يا سيدي.

- أية مركبة؟

- المركبة التي أمرت بإعدادها.

- آه... نعم.

ولو رآه الخادم في تلك اللحظة لهاله[1] انقلاب سحنته.

وانقضت بضعُ دقائق في صمت مُطبق[2]. ثم سأل الخادم:

- ماذا أقول للسائق يا سيدي؟

- قل له إنني سأحضر في الحال.

* * *

(1) هاله: أرعبه، أدهشه.

(2) مطبق: شامل.

الفصل السابع

المحاكمة

وصل الأب مادلين إلى «أراس» في الساعة الثامنة مساء، ولم يكن يعرف شوارعها ومسالكها[1]. فسأل أحد المارّة: هل لك أن ترشدَني إلى محكمة الجنايات؟

فأجاب الرجل:

- سِرْ معي فأرشدك إليها، وإذا كان في نيتّك أن تشهد المحاكمة فاعلم أنك جئت متأخرًا. لأن المحكمة تغلق أبوابها في الساعة السادسة.

واجتاز به بعض شوارع المدينة. ثم أومأ[2] دار المحكمة وقال:

- هما هي يا سيدي، ولكنك حسن الحظّ بغير شك، فالنور ينبعث من النوافذ ومعني هذا أن المحاكمة مستمرة حتى الساعة.

وقصد الأب مادلين إلى الغرفة التي ينبعث النور من نوافذها، ووجد أحد الحجَاب[3] واقفًا ببابها.

سأله:

(1) مسالكها: طرقاتها.

(2) أومأ: أشار.

(3) الحجاب: مفردها الحاجب: البوّاب.

- ألا أستطيع الدخول؟

فأجاب الحاجب:

- كلا، فالقاعة غاصّة[1] بالناظرين، وليس فيها متّسع للمزيد[2].

ثم أردف بعد لحظة: ثمّةَ مقعدان خاليان خلف رئيس المحكمة، ولكن لا يُسمح لغير موظفي الحكومة بالجلوس فيهما.

فأطرق مادلين رأسه، وبدت على وجهه علامات التفكير، ثم أخرج من جيبه ورقة وقلمًا وكتب اسمه ووظيفته، ودفع بالورقة إلى الحاجب وهو يقول:

- أرجو أن تذهب بهذه الورقة إلى رئيس المحكمة.

فتناول الحاجب الورقة، وألقي عليها نظرة سريعة، تواري خلف الباب! كان الأب مادلين يستمتع بشهرة لا يعرف مداها، وكان رئيس المحكمة، كغيره من أهل «أراس»، قد سمع عنه الشيء الكثير، فلما قرأ اسمه على الرقعة[3] سمح له بالدخول في الحال.

وعاد الحاجب إلى الرجل التعس الذي نروي قصته، فوجده حيث تركه.

قال له: على سيدي أن يتبعُني؟

فتبعه مادلين إلى غرفة فسيحة، في وسطها مائدة مستطيلة، تحيط بها طائفة من المقاعد، وعلى المائدة مصباح زيتيّ ترسل ذبالته[4] ضوءًا ضعيفًا

(1) غاصّة: ممتلئة.

(2) للمزيد: أي للمزيد من الناس.

(3) الرقعة: الورقة.

(4) ذبالته: فتيلته.

ممتقعًا[1]. قال الحاجب:

- هذه هي غرفة المشورة يا سيدي، وهذا الباب يؤدّى إلى قاعة الجلسة.

وأومأ بأصبعه إلى باب الغرفة، وتركه وانصرف.

وبقيّ مادلين وحده في الغرفة. حاول أن يجمع شتات أفكاره[2]، ولم يوفّق. فقد جرت العادة أن يضلّ[3] عقل الإنسان حين يكون الإنسان في أشدّ الحاجة إلى التفكير السليم.

أرسل بصره إلى الباب الذي يفصل بينه وبين قاعه الجلسة، وتصبب العرق على جبينه.

نظّر إلى الباب كما ينظر الحمل إلى عين الذئب. ولو أصغي لَسمع جلبةً[4] شديد منبعثة من القاعة المجاورة. لم يصغ ولم يسمع.

وفجأة، تقدّم من الباب، وفتحه، ودخل.

لم يشعر به أحد من النظّارة[5]. لأن جميع العيون كانت تنظر إلى رجل جالس بين شرطيين عن يسار رئيس المحكمة.

كان ذلك الرجل هو ضالّته[6]. لم يبحث عنه، بل ذهب إليه بصره بالفطرة

(1) ممتقعًا: أصفر اللون.

(2) شتات أفكاره: ما تشتّت وتفرّق من أفكاره.

(3) يضّلّ: يتيه: يضيع.

(4) جلبة: ضجّة.

(5) النظارة: المشاهدون.

(6) ضالته: غايته.

كأنه كان يعرف سلفًا أين يجده.

خيِّل إليه أنه يري نفسه مع اختلاف بسيط في الملامح. أما المظهر والثياب فكمظهره وثيابه يوم دخل مدينة برينول، وفي قراره نفسه ذلك الكنز المقيت من الكراهة التي نمت وترعرعت خلال تسعة عشر عامًا قضاها في الليمان.

قال لنفسه وهو يرتجف: يا إلهي، هل أصبح هكذا مرة أخرى؟

كان المتهم يناهز الستين من عمره وعلى وجهه المتجعد مسحة من الذهول والبلادة والغباوة.

وكان رئيس المحكمة قد شعر بالباب حين فُتح، فحوَّل رأسه، ورأي القادم، وأدرك أنه عمدة مونفورميل، فحيَّاة بإحناء رأسه.

وكذلك حيّاه المدّعي العمومي[1]، وكان قد قابله مرارًا في مونفورميل حين ذهب إليها بحكم وظيفته.

وجلس الأب مادلين على مقعد خلف رئيس المحكمة، ووجد نفسه ينظر إلى قاضٍ وكاتب وشرطة وعدد لا يُحصي من الوجوه.

ولقد رأي كل ذلك قبلاً، منذ سبعة وعشرين عامًا.

وهكذا، بدأ الماضي ينبعث من مرقده[2].

كان المحامي يتكلّم ويحاول دفع التهمةّ عن المتهم. فأثبت أن جريمة السرقة لم تثبت ماديًا وأن أحدًا لم يرَ المتهم حين تسلّق الشجرة وانتزع غصن

---

(1) المدّعي العمومي: القاضي الذي يتّهم باسم الدولة.

(2) مرقد: مكان النوم.

التفاح، وقد ضبط الغصن معه، ولكنه اقرّ[1] أنه عثر به ملقي على الأرض فتناوله، فأين إذًا الدليل على أنه سارق؟

وعبَّر الدفاع عن أسفه لأن المتهم ينكر أنه جان فالجان، ويصرٌ على الإنكار رغم شهادة الشهود الأربعة. وكان أحرى[2] به أن يعترف بما لا يمكن إنكاره لكي يحظى [3] برحمة القاضي.

ومضي المحامي في دفاعه فقال: إذا سلمنا بأنه جان فالجان، فكيف يكون ذلك دليلاً على أنه سرق غصن التفاح؟

ثم تكلم عن شخصية المتّهم، وقال إنه نصح له أن يعترف بحقيقة أمره ولكنه رفض، وكان مخطئًا، فهلاً تشفع له [4] حالتُه العقليّة في هذا الخطأ؟

إن مظاهر البلاهة بادية عليه، فقد مكث في شقاء الليمان تسعة عشر عامًا، كانت كافية لأن تعصف بقواة العقلية[5] وليس أدل على سفاهته[6] وفساد تفكيره من إصراره العجيب على إنكار اسمه وشخصيته، ولكنه على كل حال جدير بالشفقة والرحمة.

ثم تكلّم المدعى العمومي، فشكر للدفاع إنصافه وسلامة تقديره، وسجّل عليه

(1) وينبعث من مرقده: أي نعود إليه الذكريات الماضية.

(2) اقر: اعترف.

(3) أحري: أجدر.

(4) يحظي: ينال.

(5) تشفع له: تعذره.

(6) تعصف بقواه العقلية: تذهب بقواه العقلية.

سفاهته: جهله وطيشه.

تسليمه[1] بأن المتهم هو جان فالجان. ثم سأل: ومن هو جان فالجان هذا؟ وأجاب عن هذا السؤال فوصف جان فالجان بأنه وحش في صورة إنسان، ومجرم ذو سوابق لم يصلحْه الليمان. وأسهب[2] في وصف جرائمه، وذكر كيف اغتصب نقودٌ الغلام جرفيه. ثم سأل. أيَّة رحمة يستحقُّها رجل كهذا أقدم على هذا الجرائم، وضُبط متلبِّسًا بالسرقة. ثم هو بعد ذلك ينكر جرائمه وينكر سرقاته، بل ينكر اسمه وشخصيته؟ إن هناك مائة دليل ودليل على أنه جان فالجان. وهناك أربعة شهود يقرُّون أنه جان فالجان. وهو مع ذلك ينكر، ويصرّ على الإنكار ظنًا منه أن الإنكار يمحو شخصيتَّه ويمحو ماضية ويمحو جريمته!

وكان المتهم يصغي إلى مرافعة المدَّعي العمومي، وهو مفتوح الفم وعلى وجهه علامات الدهشة المقرونة[3] بالإعجاب.

وفي بعض الأحيان، كان يهزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار، وعلى سبيل الاحتجاج الصامت، ولكنه لم يحاول الكلام.

ولفت المدعى العموميَ نظر المحلِّفين إلى حركات المتهَّم، وإلى صمته وجموده المصطنع[4] الذي لا يدلّ على البلاهة والغباوة بقدر ما يدلّ على المكر والدهاء، والرغبة في تضليل العدالة.

وختم المدعى مرافعته بأنه يحتفظ بقضية جرفيه ويطالب بتشديد العقوبة على المتّهم.

---

(1) تسليمه: اعترافه، إقراره.

(2) أسهب: توسَّع في الموضوع.

(3) المقرونة: المصحوبة، المرافَقَة.

(4) مصطنَع: مزيَف، يتظاهر به المتّهم.

ونهض الدفاع، فهنّأ المدّعي العمومي على مرافعته البارعة، وردّ في كثير من الفتور[1] على قليل من نقط الاتهام.

وحان وقت الفصل في أمر المتهم فتحوّل إليه الرئيس، وطلب إليه أن يصغي بانتباه، وأردف: إنك في مركز دقيق جدير بالتفكير، وأدلة الاتهام واضحة ساحقة[2]، ولكني أطلب للمرة الأخيرة أن تجيبَ في صراحة عن هذين السؤالين: هل تسلَّقت الشجرة وقطعت غصن التفاح؟ وهل أنت جان فالجان؟

فهز المتهم رأسه ببطء... ثم فتح فمه وتكلّم فقال:

- أما السؤال الأول، وهزَّ رأسه مرة أخرى ونظر إلى قبَّعته، وكان ممسكًا بها ثم نظر إلى سقف القاعة، ثم عاد إلى الصمت فقال المدعى العمومي بلهجة صارمة:

- أيُّها المتَّهم، إنك مضطرب لا تستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تُطرح عليك... واضطرابك هذا يدينك وصمتك يفضحك.

- أيُّها المتَّهم، إنك مضطرب لا تستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تُطرح عليك.... واضطرابك هذا يدينك[3] وصمتك يفضحك.

ما لا شك فيه أن اسمك هو جان فالجان وليس شانماتيو، وأنك ولدت في فافيرول، وكنت تشتغل بالتحطيب.

مما لا شك فيه كذلك أنك تسلّقت الشجرة وقطعت الغصن وأردت أن تفرَّ

(1) الفتور: البرودة.
(2) ساحقة: قاطعة مُفْحمة.
(3) يدينك: يحكم عليك.

به. وهذه كلها حقائق، ليس في إستطاعتك أن تنكرّها، وليس في استطاعة السادة المحلّفين أن يغفلوها[1].

وكان المتهم قد جلس. فما إن فرغ المدعي العمومي من كلامه، حتى وثب من مكانه بسرعة وهتف:

- إنك رجل شرير. هذا كل ما أوردت أن قولَه فخانني التعبير.

إني لم أسرق شيئًا. وقد وجدت الغصن مُلقى على الأرض فالتقطته ولم يُدرَ بخَلَدي أنه سيجلب عليّ كل هذه المتاعب.

لقد قضيت في السجن ثلاثة أشهر ولا أدري لماذا. وسمعتك تحمل عليَّ[2] الآن، ولا أعلم لماذا. وهذا الشرطي الواقف بجانبي يضربني بمرفقه[3] بين الفينة والفينة ويقول لي: «لماذا لا تجيب؟». ولكني لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدي، لأنني لم أتلقَّ العلم في المدرسة وما أنا إلا رجل فقير.

إنني لم أسرق، ولقد التقطت شيئًا وجدته ملقى على الأرض.

أما جان فالجان الذي تحدّثني عنه فإنني لا أعرفه، وأما اسمي فهو شانماتيو.

وإنّ من البراعة حقًا أن تذكر لي أين ولدت، لأنني لا أعرف أين ولدت، ولا أعلم عن أبويّ إلا أنهما كانا يجوبان الآفاق، ويضربان في الأرض على غير هدى[4].

وقد ذهبت إلى فافيرول في أحد الأيام، ولكن ألا يستطيع الإنسان أن

---

(1) أن يغفلوها: أن يسهوا عنها، أن يهملوها.

(2) تحمل عليّ: تهاجمني.

(3) المرفق: المفصل بين الساعد والعضد.

(4) يضربان على غير هدى: يسيران في ضَياع.

يذهب إلى فافيرول دون أن يذهب إلى الليمان؟

أنا أؤكّد لك أنني لم أسرق، وأن اسمي شانماتيو، ولكني واثق من أنك ستَمضي في مضايقتي، ولست أدري في الحق لماذا يتّخذني الجميع هدفًا لغضبهم ونقمتهم.

فصاح المدّعي العمومي: إن دفاع المتهم، وعباراته الملتوية[1] التي تنطوي على[2] إنكار صريح، ورغبة أكيدة في تضليل العدالة، وإيقاع الشك في نفوس المحلفين، والتظاهر بالبلاهة والسّفَه[3]، تضطرّني أن أرجوَ سيدي الرئيس في دعوة شهود الإثبات ومناقشتهم مرّة أخرى للتحقّق من شخصية المتهم وإزالة كل شك من نفوس المحلفين.

فقال الرئيس: يجب أن ألفتّ نظر الاتهام إلى أن الشاهد الرابع، وهو المفتش جافير، قد انصرف عقب[4] أداء الشهادة، لمباشرة بعض واجبات وظيفته في إحدى القرى المجاورة.

فقال المدّعي العمومي: إذًا فبحسبي أن ألفت حضرة المحلّفين إلى الأقوال التي أدلى بها لي المفتش في هذه المحكمة منذ بضع ساعات، فقد أكّد أنه يعرف المتّهم، وأنه رآه في ليمان طولون، حيث قضى تسعة عشر عامًا بتهمة السطو، ومحاولة الفرار، ووصفه بأنه رجل شرير، عنيف الخلق، مطبوع على

---

(1) الملتوية: الكاذبة، الخادعة.

(2) تنطوي على: تتضمّن.

(3) السفه: الجهل، الطيش، الخفّة.

(4) عقب: بعد.

الإجرام، وقال إن هناك جريمة أخرى منسوبة إليه فضلاً عن[1] سرقة التفاح، وتلك هي جريمة اغتصاب قطعة نقود من غلام صغير يُدعي جرفيه، ويظنّ كذلك أنه سرق بعضَ الأمتعة من منزل أسقف كريم في برينول.

وقد تركَت هذه العبارات الصريحة أثرها العميق في نفوس السامعين فنظروا إلى المتهم نظرتهم إلى رجلٍ كُتب له الضياع.

ثم طلب الاتهام دعوة الشهود الثلاثة الآخرين، فأصدر الرئيس أمره إلى الحاجب. وما هي إلا لحظة حتى فُتح باب غرفة الشهود، ودخل الشاهد الأول، وهو رجل في الستين في عمره يُدعى بريفيه.

قال له الرئيس: إنك لا تستطيع أن تحلف اليمين القانونيّة يا بريفيه لأنك استهدفت فيما مضى لعقوبة جرّدتك[2] من اعتبارك.

فأطرق الشاهد رأسه، واستطرد الرئيس: ولكني أعتقد أن الله قد وهب كلّ إنسان – حتى ذلك الذي جرَّده القانون من اعتباره – بقيّة من الشعور بالشرف والإنصاف، وإني أستجد فيك هذا الشعور في هذا الموقف الدقيق. ولا حرج[3] عليك أن تعدلَ عن شهادتك إذا خامرك[4] شك في أنك أخطأت. أيها المتهم قفْ. وأنت يا بريفيه، انظرْ إلى المتهم وأنبئنا، أما زلت تعرف فيه زميلك في الليمان المدعوّ جان فالجان؟!

---

(1) فضلًا عن: إضافة إلى.
(2) جرّدتك: حرمتك.
(3) لا حرج: لا إثم.
(4) خامرك: خالطك، لحقك.

فنظر بريفيه إلى المتهم، ثم تحوّل إلى الرئيس وأجاب:

- نعم يا سيدي. وكنت أول مَنْ عرفه. فهذا الرجل هو جان فالجان الذي قضى في ليمان طولون تسعة عشر عامًا، وهو يتظاهر الآن بالبلاهة. ولكنه كان في الليمان داهية ماكرًا[1].

وجئ بالشاهد الثاني، ويُدعى شنيلديو. فدخل القاعة وهو في ثياب السجن. كان ما يزال من نزلاء الليمان.

وتحدّث إليه الرئيس كما تحدّث إلى بريقيه. وأوصاه أن يفكّر ويحاسب نفسه، ثم طلب إليه أن يقول ما عنده، فقال الشاهد:

- نعم، إنني أعرفه. وكيف لا أعرفه حقَّ المعرفة وقد كنّا مشدودَيْن إلى سلسلة واحدة؟!

وجيء بالشاهد الثالث ويدعى كوشباي. وقد كان كذلك من نزلاء الليمان. فهو من أولئك التعساء الذين صبّتهم الطبيعة في قالب الوحوش وتركت للمجتمع أن يصنع لهم الأقفاص.

وسأله الرئيس عمّا إذا كان يصرّ على شهادته الأولى. فأجاب بالإيجاب[2] في غير تردّد وقال: نعم، هذا الرجل هو جان فالجانِ. وكنا نلقّبه بالرافعة، لقوته الهائلة[3].

وهكذا دقَّ الشهود آخر مسمار في تابوت المتهم. وقد أصغى المتهم إلى

(1) داهية ماكرًا: محتالًا.

(2) لجاب الإيجاب: أجاب موافقًا.

(3) الهائلة: العظيمة.

أقوالهم في دهشة بيّنة[1]، حتى سأله الرئيس بقوله:

- هل سمعتَ أيها المتّهم؟ هل لديك ما تريد أن تقوله؟

فأجاب: أقول إن هذا كله عظيم.

فانفجر بعض النظّارة ضاحكين.

لم يكن ثمّة شك في ضياع الرجل.

وفي هذه اللحظة حدثت حركة بالقرب من رئيس الجلسة، وقال قائلٌ بصوت واضح جليّ[2]: بريفيه! شنيلديو! كوشباي! انظروا هنا!

ومرت رعدة[3] في أجساد الذين سمعوا هذا الصوت.

كانت نبراته مؤلمة مخيفة.

وتحولت جميع الأبصار إلى مصدره[4]، ورأت رجلاً واقفًا وراء الرئيس في المكان الذي يخصّصونه للنظارة الممتازين.

وهتف الرئيس والمدّعي العمومي وعشرات ممن يعرفون عمدة مونفورميل:

- الأب مادلين.

نعم. كان المتكلّم هو الأب مادلين، وقد برز في أشعّة الضوء المنبعث من المصباح.

---

(1) بينة: واضحة.

(2) جليّ: واضح.

(3) رعدة: رجفة.

(4) مصدره: أي مصدر الصوت، المكان الذي يصدر منه الصوت.

كان مرتّب الثياب كالعادة، ولكنه شديد شحوب[1] الوجه، وقد استحال شعر رأسه الذي كان سنجابيًا[2] في الصباح إلى كتلة بيضاء كالثلج.

حدث هذا التحوّل خلال الساعة التي قضاها في قاعة الجلسة.

وسادت في القاعة جلبة أعقبها[3] صمت عميق، وحبس الناس أنفاسهم، وانتظروا بأعصاب توشك أن تنفصمَ[4].

لم يصدّق أحدُهم أنّ هذا الرجل الهادئ هو صاحب ذلك الصوت المؤلم الذي رنَّ في جنبات[5] القاعة منذ لحظة.

قبل أن يتمكّن رئيس الجلسة والمدّعي العمومي من الكلام، وقبل أن يأتي الحراس والحُجّاب بحركة، اقترب من الشهود الثلاثة، ذلك الرجل الذي عرفه الجميع حتى الآن باسم مادلين وسألهم: ألا تعرفونني؟

فذهل[6] الثلاثة وهزّوا رؤوسهم سَلْبًا[7].

– أيها السادة المحلّفون، أطلقوا سراح المتهم. يا سيدي الرئيس، مُرْ[8] بالقبض عليّ. إنّ الرجل الذي تبحثون عنه ليس هو هذا المتهم، ولكنه أنا. أنا

---

(1) شحوب: اصفرار.

(2) سنجابيًا: بلون السنجاب وهو حيوان لونه أزرق رمادي.

(3) أعقبها: تلاها، تبعها..

(4) تنفصم: تنفصل، تنفسخ.

(5) جنبات: جوانب.

(6) ذهل: اندهش: تعجّب.

(7) سلبًا: نفيًا.

(8) مُرْ: الأمر من أمر.

جان فالجان.

وخُيّل كأن قاعة الجلسة قد استحالت إلى ركن في مدينة الموتى. فلا حسّ ولا حركة ولا صوت. بل لا نفس يتردد. فقد شعر الجميع بذلك الذعر المقدّس الذي يستولي على قلوب الجماهير حين تقع أبصارهم على شيء لا تدركه[1] عقولهم.

وكان رئيس الجلسة أوّل مَنْ ملك نفسه. فارتسمت على وجهه آية من آيات الحزن والشفقة، وتبادل مع المدّعي العمومي نظرة سريعة، وبضعَ كلمات في همس.

ثم تحوّل إلى النظارة، وسأل بلهجة فهم الجميع مغزاها: أليس بينكم طبيب؟

وقال المدّعي العموميّ: أيها السادة المحلّفون، إن هذه المفاجأة العجيبة التي غطلت المحاكمة قد بعثت في نفوسنا شعورًا لا حاجة بنا إلى التعبير عنه.. فكلكم تعرفون، لو سماعًا[2]، مسيو مادلين المحترم، عمدة مونفورميل. فإذا كان في القاعة طبيب فإنا نضمّ أصواتنا إلى صوت الرئيس ونرجوه أن يشرف على مرافقة مسيو مادلين إلى منزله.

ولكن الأب مادلين تحوّل إليه، وقال بلطف:

- شكرًا لك يا سيدي، ولكني لست مجنونًا وسأثبت ذلك في الحال.

إنني أؤدي واجبي. فأنا السجين موضع المناقشة في هذه القضية، وفي استطاعتكم أن تلقوا القبض علي. فإنني لم أقل غير الحقيقة والله شاهد على ما أفعل وأقول.

---

(1) تدركه: تفهمه.

(2) سماعًا: عبر السمع، أي سمعتم به.

إنني تواريت تحت اسم مستعار، وصرت غنيًا، وأصبحت عمدة، وكنت أريد أن أعيش شريفًا بين الشرفاء، ولكن يخيّل إليّ أن ذلك مستحيل.

توجد أشياء كثيرة لا أستطيع أن أبوحَ[1] بها. لأنها تنصبُّ على حياتي الخاصة، ولكني أقول لكم إنني سرقت الأسقف حقًا، وسطوت على نقود جرفيه، وقد صدَقوا حين قالوا لكم إن جان فالجان مجرم خطر.

اصغوا إليّ أيها السادة. إن رجلاً انحدر إلى قرارة الهوّة[2] المرحلة التي انحدرت إليها لا حقَّ له في أن يُسدِيَ[3] النصائح إلى المجتمع، ولكني أقول لكم إن السجون تخلق المجرمين.

لقد دخلت ليمان طولون فلاحًا مسكينًا ساذجًا قليل الذكاء. فجعل الليمان مني رجلاً آخر.

كنت غبيًا، فأصبحت شريرًا، وقتلت القسوة في نفسي كل ما هو شريف ونبيل، إلى أن حدث حادث ردني إلى سواء السبيل[4]، ولكن معذرة فإنكم لا تستطيعون أن تفهموا كل كلامي... بيد أنكم ستجدون في منزلي قطعة النقود التي سرقتها من جرفيه منذ ثمانية أعوام، وليس عندي ما أقول أكثر من ذلك. فألقوا القبض عليّ. يا إلهي، إن المدعي العمومي يهزّ رأسه، ولعله يقول لنفسه إن الأب مادلين قد جُنّ، ولكن هذا كثير. أطلقوا سراح هذا الرجل على الأقل. كيف هذا، ألا يعرفني هؤلاء الشهود.

(1) أبوح: أصرّح، أعترف.

(2) قرارة الهوّة: أعماق الهاوية.

(3) يسدي: يعطي.

(4) سواء السبيل: الطريق المستقيم.

ليت جافير كان موجودًا، لكان عرفني في الحال.

وليس في استطاعت كاتب أن يصف نبرات الحزن والأسقف التي امتزجت بصوته حين نطق بهذه العبارات.

وتحوّل مادلين إلى الشهود الثلاثة وقال:

- ولكني أعرفكم. ألا تذكرني يا بريفيه؟

وتردّد قليلاً ثم أردف:

- ألا تذكر الشق الذي أحدثتُه في قيودك في أحد الأيام، تمهيدًا للفرار؟

فنظر إليه بريفيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في ذعر وهلع.

واستطرد مادلين: وأنت يا شنيلديو، ألم تحترق كتفك اليمين في أحد الأيام؟ أجبني.

فأجاب الشاهد: هذا صحيح.

- وأنت يا كوشياي. ألم تكتب بالوشُم[1] الأخضر على ساعدك الأيسر تاريخ عودة الإمبراطور نابوليون؟ أكشفْ عن ساعدك.

فكشف كوشباي عن ساعده، ورأي القوم ذلك التاريخ موشومًا عليه.

وعندئذ تحوّل مادلين إلى النظّارة ثم إلى المحلّفين، وارتسمت على شفتيه ابتسامة تركت أثرًا دائمًا في نفوس جميع الذين رأوها.

كانت ابتسامة فوز، ولكنها كانت كذلك ابتسامة يأس.

قال: هل اقتنعتم بأنني جان فالجان؟

وفي هذه اللحظة، لم يكن في القاعة قضاة ومحلّفون، ونظّارة وشرطة.

---

(1) الوَشْم: رسم يُغرز في الجلد بالإبرة، أخضر اللون لا يزول.

كانت هناك فقط عيون تحملق[1]، وصدور ترتفع وتهبط.

قال جان فالجان: ليس في نيّتي أن أشغل المحكمة بأمري أكثر من ذلك: ما دامت المحكمة لم تأمرْ بالقبض عليّ، فإنني سأنصرف الآن لتصفية[2] بعض الشؤون، والمدعي العمومي يعرفني ويعرف المكان الذي سأذهب إليه، وله متى شاء أن يأمر بإلقاء القبض عليّ.

ومشى إلى الباب، فلم يرتفع صوت، ولم تمتدّ يد لمنعه.

جمد القوم جميعًا في مقاعدهم، فقد كان الموقف من نوع تلك المواقف العظيمة النبيلة التي تحمل الجموع على الانكماش[3]، وإفساح السبيل لرجل واحد!

ولما وصل إلى الباب، تحول إلى النظارة وقال:

- لعلكم جميعًا ترونني جديرًا بالشفقة. يا إلهي! كلما فكرت فيما كان بمقدوري أن أفعله، خيّل إلى أنني جدير بالحسد!

ومهما يكن الأمر، فإنني كنت أفضّل لو أن شيئًا من كل ذلك لم يحدث.

* * *

(1) تحملق: تفتح عينيها وتنظر نظرًا شديدًا.

(2) لتصفية: لإنهاء، لإنجاز.

(3) الانكماش: الانقباض، عدم القيام بحركة.

الفصل الثامن

الغريمان

انبثق الفجر.. وكانت فانتين قد قضية ليلة مسهّدة[1] محمومة، ثم استغرقت قبيل الصبح فيما يشبه الإغماء، فانتهزت الراهبة «سمبليس» هذه الفرصة وتسلّلت[2] إلى الغرفة المجاورة، لكي تعدّ جرعة أخرى من الدواء.

وفيما الراهبة في عملها بين القناني والعقاقير، إذا بها ترى ظلاً يحجب عنها ضوء المصباح، فحوّلت رأسها، وأفلتت من بين شفتيها آهة دهشة.

كان الأب مادلين قد دخل دون أن تشعرّ به.

هتفت: أهذا أنت يا سيدي؟

فأجابها بصوت خافت: كيف حال المرأة التعسة؟

- إنها قضت ليلة هائلة، ولكنها اطمأنّت حين استفسرت عن سبب غيابك، فقلت لها إنك ذهبت إلى بولانجيه لإحضار ابنتها.

وأدركت الراهبة من نظراته أنه لم يحضر الابنة فاستطردت:

- ولكنها ستراك الآن يا سيدي، ولا ترى ابنتها، فماذا نقول لها؟ ففكّر لحظة، ثم قال: سوف يلهمنا الله ما يجب عمله.

(1) ليلة مسهّدة: لا تستطيع فيها النوم.
(2) تسللت: خرجت بهدوء وخفية.

وحانت من الراهبة نظرة إلى وجه مادلين وهتفت:

- يا إلهي. ماذا حديث لك يا سيدي. لقد ابيضّ شعرك.

- ماذا تقولين؟

فقدمت إليه الراهبة مرآة صغيرة، فتناولها وأطلّ فيها ونظر إلي شعر رأسه، وقال: هذا صحيح.

قال ذلك بقلّة اكتراث، وبلهجةِ الرجل الذي يفكّر في أمر آخر.

سأل: هل أستطيع أن أراها؟

- هل في نيّتك أن تأتيها بابنتها يا سيدي؟

- طبعًا، ولكن ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة.

- ربما كان من الخير ألا تراها قبل أن تأتيها بابنتها. وبذلك تظلّ على اعتقادها بأنك لم تعد، ويسهل علينا إقناعها وتهدئتها، ولا نكون بحاجة إلى الكذب.

- ففكر مادلين قليلاً ثم قال في هدوء:

- كلا يا أختاه، يجب أن أراها، لأنّ الوقت ضيّق.

- في هذه الحالة تستطيع أن تذهب إليها يا سيدي، ولو أنها نائمة.

فدخل إلى غرفة فانتين، وقصد إلى الفراش، ورفع الكلّة.

كانت فانتين نائمة، وأنفاسها تضطرب في صدرها بصوت كالحشرجة[1] وقد استحال اصفرارها إلى بياض.

---

(1) الحشرجة: تردّد صوت النفس عند الموت.

وارتجفت أهدابها[1] الطويلة الجميلة، ذلك الأثر الوحيد الذي بقي لها من جمالها الغابر[2]. بل ارتجف جسدها كله كأن لها أجنحة توشك أن تمتدّ وتطير بها.

ووقف الأب مادلين أمام الفراش بغير حراك، وراح ينقل البصر بين المريضة وتمثال المسيح المصلوب كما فعل منذ شهرين، يوم جاء لزيارتها للمرّة الأولى.

كانا في الموقف نفسه. هي نائمة، وهو يبتهل[3]. ولكن في خلال الشهرين اللذين انقضيا بين الوقتين، كان شعرها قد خطّه الشيب[4]، وشعره قد استحال إلى كتلة من الثلج.

وفتحت فانتين عينيها، وأبصرتْه، وابتسمت في هدوء. وقالت بابتسامة:

- وكوزيت؟

نطقت بهذا الاسم بلهجة الثقة والإيمان والطمأنينة فلم يجد مادلين ما يقوله.

استطردت: لماذا لم تضعْها في فراشي لكي أراها حالما[5] أفتح عينَي؟

فتمتم كلامًا غير مسموع وغير مفهوم، ومن حُسن الحظّ أن الطبيب جاء في تلك الساعة، وكان مادلين قد أرسل في طلبه.

قال الطبيب: رفّهي[6] عن نفسك يا ابنتي، فطفلتك هنا.

---

(1) أهدابها: أجفانها.

(2) الغابر: الماضي.

(3) يبتهل: يتضرّع.

(4) خطة الشيب: ترك آثارًا بيضاء فيه.

(5) حالما: عندما.

(6) رفّهي: خففي.

فلمعت عينا فانتين وأشرق وجهها، وضمت يديها بحركة تعبّر عما تعبّر عنه الصلاة عن قوّة وحرارة ودَعة[1].

وهتفت: أواه.. أحملها إليّ إذًا.

كانت لا تزال تتخيّل كوزيت تُحملُ على السواعد.

قال الطبيب: صبرًا! صبرًا! ليس الآن. إن منظر الطفلة يثيرك، فيؤذيك. يجب أن تبراى من سقمك أولاً.

- لقد برأتُ من سقمي. قلت لك إنني برأت من سقمي! إني أصرّ على رؤية ابنتي.

فقال الطبيب: تأمّلي كم أنت مضطربة، وكم أنت عنيفة! متى هدأت ثائرتك[2] حملتها إليك بنفسي.

فسقط رأسها فوق صدرها وقالت: عفوًا يا سيدي الطبيب... أنا لست غَضبى. فأنا أعلم تمامًا أنني سأكون سعيدة، وقد رأيت الليلة في أحلامي أشياء كثيرة بيضاء ووجوهًا باسمة، وفي استطاعت سيدي الطبيب أن يأتيني بابنتي كوزيت متى شاء، فأنا لست محمومة. إنني شفيت تمامًا، ولكني سألزم الهدوء كما لو كنت مريضة. حتى إذا رأيتني هادئة قلت «يجب أن أردّ إليها ابنتها».

ثم التفتت إلى مادلين، وكان قد جلس على حافة فراشها، وراحت تلقي عليه عشرات الأسئلة: هل كنت موفقًا في رحلتك يا سيدي؟ ما أكرمك إذ تجشمت[3]

---

(1) الدّعة: السكينة.

(2) ثائرتك: غضبك الشديد.

(3) تجشمت: تكلّفت المشقّة.

متاعب السفر من أجلي؟ فقط أخبرني كيف حال كوزيت؟ هل احتملتْ عناء السفر؟ وأسفاه لا شك أنها لن تعرفني... لا شك أنها نسيَتْني خلال هذه السنوات الطويلة. فيا للمسكينة، هل وجدتَ ثيابها نظيفة؟ هل كانت مدام تيناردييه تُعني بها؟ أواه... كم أودّ أن أراها. ألم ترَ كيف هي جميلة يا سيدي؟ ألا يمكن إحضارها هنا، ولو دقيقة واحدة؟ في استطاعتك أن تأتيّ بها متى شئتَ لأنك العمدة هنا.

فتناول يدها بين يديه، وأجاب:

- إن كوزيت جميلة، وهي بخير حال، وسترينها بأسرع ما يمكن. فقط هدئى روعك. إنك تتكلمين بحدة. والانفعال يؤذيك، وينشط نوبة السعال.

والواقع أنها أخذت تسعل بشدة. ثم لزمت الصمت لكي توهم القوم بأنها غير منفعلة، وغير مريضة، فيحملوا إليها ابنتها.

وظل مادلين ممسكا بيدها وراح ينظر إليها بقلق.

لم يكن هناك شك في أنه جاء ليقول لها شيئا، ثم غلب عليه التردد.

وكان الطبيب قد انصرف، فلم يبق بالقرب منهما سوي الراهبة سمبليس.

وفجأة أومأت فانتين بيدها تطلب الصمت وهتفت:

- إنني أسمع صوتها. إني أسمع صوتها.

وحبست أنفاسها، وأرهفت أذنيها[1]، وأصغت.

سمعت صوت طفلة تلهو أمام المنزل..... ولعلها ابنة أحد العمال.

كانت المصادفة من نوع تلك المصادفات الخفية التي تسوقها الأقدار في

(1) أرهفت آذنيها: أنصتت، أصغت.

الوقت المناسب لتخلق بها جو المآسي في هذه الحياة.

كانت الطفلة تعدو[1] في الشارع لتدفئ جسمها، وهي تضحك بصوت مرتفع.

صاحت فانتين: إنها كوزيت. لقد عرفت صوتها.. إنها...

وصمتت. وكان صمها فجائيا. فرفع مادلين رأسه، ونظر إليها.

وجد أنها كفت[2] عن التنفس، وقد انقلبت سحتها انقلابا مخيفا وارتسمت في عينيها نظرة ثابتة يخالطها ذعر لا يوصف.

صاح: يا إلهي! ماذا دهاك[3] يا فانتين؟

فلم تجبه ولم تحول عينيها عن الشيء الذي كانت تنظر إليه. فقط مست ساعده بيدها، وأومأت إليه أن ينظر إلى الوراء، ففعل. ورأي جافي.

أما ما حدث في محكمة أراس فهو أن الأب مادلين ما كاد يبرح قاعة الجلسة حتى أفاق المدعى العمومي من ذهوله. فنهض واقفا على قدميه. وصرح بأن المفاجأة الغريبة التي حدثت لا تغير وجهة نظره[4] بحال. وعبر عن أسفه للنوبة العصبية الغريبة التي أصابت عمدة مونفورميل المحترم. ثم أصر على إدانة شانماتيو، بصفته جان فالجان.

وكان إصراره يتعارض[5] مع الشعور العام، شعور الجمهور وشعور المحكمة

---

(1) تعدو: تركض.

(2) كفت: توقفت، امتنعت.

(3) دهاك: أصابك.

(4) وجهة نظره: رأية.

(5) إصراره: تشبثه بموقفه، عناده.

وشعور المحلفين، ولم يفوت[1] الدفاع هذه الفرصة[2]، ولم يجد صعوبة في التدليل على براءة المتهم بعد اعتراف الأب مادلين.

واختلي المحلفون[3]. وأصدروا حكمهم ببراءة المتهم.

على أن المدعى العمومي كان لا يزال يطلب إنسانا باسم جان فالجان.

فلما أفلت شانماتيو من قبضته، حول بصره إلى الأب مادلين. وبعد مداولة[4] قصيرة مع رئيس المحكمة أصدر أمره باعتقال عمده مونفورميل. وأرسل الأمر إلى المفتش جافير لإنفاذه[5].

وقد كان من المتعذر[6] على الذين رأوا المفتش جافير حين دخل غرفة فأنتين أن يشعروا بما يعتمل[7] في نفسه. فقد كان الرجل هادئا رزينا كالعهد به[8] دائما. ولم يلاحظ عليه الجنود الأربعة الذين رافقوه إلى منزل العمدة ورابطوا ببابه[9] أنه أوسع الخطي أو أبدل مشيته المتئدة[10] الرزينة.

---

(1) يتعارض: لا يتوافق، يناقض.

(2) يفوت الفرصة: يجعلها تفوته، أي تمر دون أن يستفيد منها.

(3) اختلي المحلفون: اجتمعوا في خلوة انعزلوا.

(4) مداولة: مناقشة.

(5) لإنفاذه: لتنفيذه.

(6) المتعذر: الصعب والمستحيل.

(7) يعتمل: ينفعل، يضطرب.

(8) كالعهد به: كعادته.

(9) رابطوا ببابه: لازموا بابه.

(10) المتئدة: المتباطئة، المتمهلة.

ووقع بصر خادم مادلين على جافير ورجال الشرطة. ولم يخامره[1] شك فقد اعتاد رجال الشرطة زيادة العمدة لأعمال تتصل بمهام وظيفته.

ووصل جافير إلى غرفة فانتين وفتح الباب بخفة الممرضة أو خفة الجاسوس. ووقف وقبعته على رأسه، ويده مدفونة في صدر معطفه.

والتقت عينا مادلين بعيني جافير. ولم يأت المفتش بحركة، ولم تتقلص[2] عضلة واحدة من عضلات وجهه. ولكن الكراهية التي تعتمل في أعماقه طفت[3] على وجهه كما يطفو الكدر[4] فوق سطح الماء، فتركت على ملامحه مسحة مخيفة، جعلته اقرب إلى الأبالسة منه إلى الآدميين.

ولم تكن فانتين قد رأت جافير منذ خلصها العمدة من قبضته، فصور لها عقلها السقيم أنه جاء لإلقاء القبض عليها.

لم تقو على رؤية سحنته المخيفة، فدفنت وجهها بين كفيها وصاحت في ألم:

– أنقذني يا مسيو مادلين.

فتهض جان فالجان، ولن ندعوه بعد الآن بغير هذا الاسم. وقال للمرأة في رقة ولطف: لا تنزعجي، إنه لم يأت في طلبك.

ثم تحول إلى جافير وقال: إنني أعرف ما تريد.

(1) يخامره: يداخله، يخالطه.
(2) تتقلص: تنضم، يصغر حجمها.
(3) طفت: ظهرت.
(4) كدر الماء: طينه وما علاه من طحلب.

فأجاب جافير: هلم[1]، وأسرع.

كان في نبرات صوته شيء. ولم ينتظر الجواب بل تقدم خطوة أخرى واستطرد: ألا تأتي؟

فأجالت، فأنتين البصر حولها.

لم يكن في الغرفة سوى الراهبة والعمدة، فإلى مَنْ يتحدث جافير إذا بهذه اللهجة المهينة؟

وصور لها الوهم أن جافير يوجه إليها هذا الكلام، ومرت في جسدها رعدة قوية.

ولكنها ما نبثت أن رات شيئا عجيبا، شيئا لم تر أعجب منه في أسوا أحلامها.

رأت جافير يقبض على عُنق العمدة، ورأت العمدة يطرق رأسه.

خيل إليها أن نهاية العالم قد دنت. [2]

صاحت: سيدي العمدة!

فضحك جافير ضحكة مخيفة كشفت عن جميع أسنانه، وقال: لا يوجد عمدة هنا.

ولم يحاول جان فالجان التخلص من اليد التي تقبض على عنقه.

قال: يا جافير...

ولكن المفتش قاطعة بقوله: «قل يا سيدي المفتش»!

(1) هلمّ: انهض (اسم فعل).

(2) دنت: اقتربت.

فقال جان فالجان: أود أن أتحدث إليك على انفراد يا سيدي.

فأجاب جافير: تكلم. إن الناس يتحدثون إلىَّ بصوت مرتفع.

- إن لي رجاء لا يجب أن يسمعه سواك.

- ماذا يهمني رجاؤك؟

فقال جان فالجان بسرعة، وبصوت شديد الخفوت[3]:

- أمهلني ثلاثة أيام. ثلاثة أيام فقط لأحضر ابنة هذه المرأة التعسة. إنني على استعداد لأن أدفع أي مبلغ تريده، وفي استطاعتك أن ترافقني إذا شئت.

فصاح جافير: أنت تهزل بغير شك. في الحق لم يخطر لي قط أنك على مثل هذه البلاهة. هل تريدني أن أمهلك ثلاثة أيام لكي تلوذ[4] بالفرار؟[5] تريد أن تذهب لإحضار ابنة هذه المرأة؟ ما أوسع حيلتك، وأخصب خيالك!.

وارتجفت فانتين وهتفت: ابنتي لإحضار ابنتي! وإذا فهي ليست هنا. أجيبيني أيتها الراهبة، أجيبيني أيتها الأخت، أين كوزيت؟ إنني أريد أبنتي يا سيدي العمدة.

فضرب جافير الأرض بقدمه وصاح: ألا تكفين[6] عن الثرثرة أيتها المرأة؟

---

(3) الخفوت: انخفاض الصوت.

(4) تلوذ بالفرار: تلجأ إلى الهرب.

(5) تكفي: تتوقفي

(6) البغايا: النساء الساقطات.

ما أعجب بلدا عمدته من المجرمين وبغاياه[1] يخدمن ويعني بهن كالتبيلات! ولكن الأوان قد آن لتغيير ذلك كله.

ونظر إلى فانتين واستطرد وهو يضيق الخناق[2] على جان فالجان:

- لا يوجد هنا مسيو مادلين، ولا يوجد عمدة، وإنما يوجد لص وقاطع طريق وسجين سابق يدعي جان فالجان.

فنهضت فانتين على مرفقها، ونظرت إلى جان فالجان، ونظرت إلى جافير، ثم نظرت إلى الراهبة، وفتحت فمها كأنها تريد الكلام، ولكن لم ينبعث من بين شفتيها سوي حشرجة خشنة.

واصطكت[3] أسنانها، وانبست أصابع يديها، ثم انقبضت[4]، وسقط رأسها فجأة على الوسادة، وبقيت كذلك مفتوحة العينين والفم.

ومد جان فالجان يده إلى اليد الممسكة بخناقة ورفعها كما لو كانت يد طفل. وقال محدثا جافير: إنك قتلت هذه المرأة.

فصاح جافير في غضب كفي! كفي! إنني لم أجئ الآن لكي أصغي إلى هذا الإسفاف[5].... فوفّر على نفسك الكلام. إن رجال الشرطة في انتظارك بالباب، فهلمّ بنا وإلا اضطررت إلى تصفيد[6] يدّيك.

وكان في ركن الغرفة فراش قديم اعتادت الراهبتان أن ترقدا فيه كلما

(1) آن: حان.

(2) يضيق الخنا: يطوقه بشده وإحكام.

(3) اصطكُت: تضاربت من خوف أو برد.

(4) انقبضت: انكمشت، عكس انبسطت.

(5) الإسفاف: الكلام الفارغ.

(6) تصفيد: تقييد بالسلاسل.

أنهكهما السهر. فمشي جان فالجان إلى هذا الفراش ومدَّ يده القوية وانتزع إحدى قوائمه ونظر إلى جافير. فتراجع مفتش الشرطة حتى إلتصق بالباب.

ومشي جان فالجان ببطء، والقائمة الحديدية ما تزال في يده، إلى أن وقع بجان الفراش وهناك أدار رأسه، وقال بصوت خافت لا يكاد يسمع: إنني أنصح لك بألا تزعجني في هذه الحظة.

ومن المحقق[1] أن جافير أرتجف من قمة رأسه إلى أخمس قدميه. خطر له أن ينطلق فيدعو رجال الشرطة، ولكنه خاف أن ينتهز[2] جان فالجان هذه الفرصة[3] ويلوذ بالفرار.

أما هذا الأخير، فإنه أسند مرفقيه على حافة الفرش، ووضع رأسه بين كفيه، وراح يتأمل فانتين وقد سكنت حركتها، وألقي الموت على وجهها قناعا رهيبا.

ظل يتأمل الجثة المسجّاة[4] وتقاطيع وجهه تُعبّر عن إشفاق لا وصف له.

ثم انحني فوق فانتين، وتحدث إليها بصوت خافت؟

ولم يسمع أحد حديث هذا الطريد[5] إلى المرآة الميئة. فتُرى هل سمعته المرآة؟ قالت الأخت سمبليس فيما بعد أن جان فالجان ما كان يكفَّ عن

(1) المحقق: الأكيد.

(2) ينتهز: يغتنمها.

(3) الفرصة: يغتنمها.

(4) المسجاة: الساكنة.

(5) الطريد: الهارب.

الكلام، حتى تلاعبت ابتسامة عجيبة على شفتي فانتين وفي عينيها اللتين أذهلهما الموت.

وتناول جان فالجان رأس فانتين ووضعه على الوسادة كما تفعل الأم الثكلي[1] برأس طفلها.

ثم زرَّر[2] قميصها بإحكام[3] وأغمض عينيها.

وكانت إحدى يديها تتدلّى من جانب الفراش. فتناولها جان فالجان ورفعها إلى شفتيه.

ونهض واقفًا بعد ذلك، وتحوّل إلى جافير وقال له:

- أنا الآن رهن إشارتك. [4]

وأُلقي جان فالجان في سجن المدينة. وأحدث نبأ القبض عليه ضجة عجيبة. ولكن ما يؤسف له أن جميع الناس أنكروه[5] وتنكّروا له[6] حين علموا أنه كان في أحد الأيام من نزلاء الليمان. فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نسي الناس كل ما قدّم من خير. ولم يذكروا من أمره إلا أنه سجين سابق.

وهكذا تلاشي الشبح الذي عرفه الناس باسم مادلين. وأُغلق المصنع

---

(1) الثكلي: التي فقدت ولدها.

(2) زرَّر: أدخل الأزرار في العري

(3) بأحكام: بإتقان

(4) رهن إشارتك: طوع أمرك.

(5) أنكروه: لم يتعرّفوا إليه.

(6) تنكّروا له: أعرضوا عنه.

واقفر[1] الشارع. ولم يبقَ في منزله مساء ذلك اليوم، سوى خادمته العجوز والراهبتين الساهرتين على جثة فأنتين.

وقد ذهلت الخادمة ورفضت حواسها أن تصدق شيئًا مما حدث.

فلما كان المساء، حملت المصباح إلى غرفة الأب مادلين كما اعتادت أن تفعل.

غير أن ما كادت تدخل الغرفة، حتى رأت يدًا تدفع النافذة من الخارج، ثم أبصرت الأب مادلين يثب منها.

وعقد الخوف لسانها لحظة، ثم هتفت: يا إلهي! يا سيدي العمدة، كنت أظن أنك....

فقاطعها: إنني في السجن! إنني كنت هناك حقًّا. ولكني انتزعتُ أحد قضبان النافذة، ووثبت منها، وهأنذا. إبعثي إليَّ بالأخت سمبليس. ستجدينها حتمًا في غرفة تلك المرآة المسكينة.

وتناول الشمعدانين، ولفهما في اقمصته ثم جلس يكتب.

وفُتح الباب في هدوء، ودخلت الراهبة سمبليس.

كانت ممتقعة اللون، محمرّة العينين، والشمعة ترتجف في يدها.

كانت في الصباح راهبة يعصمها[2] الزهدُ[3] والإيمان عن سائر الانفعالات التي تعصف بطمأنينة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ثم جاءت أعاصير[4] ذلك

(1) اقفر: خلا.
(2) يعصمها: يمنعها من الوقوع الخطأ.
(3) الزهد: بغض الدنيا والعمل للآخرة.
(4) أعاصير: مفردها إعصار: ريح شديدة.

النهار فردتّها امرأة تبكي وترتجف.

وكان جان فالجان قد فرغ من كتابة رسالته، فدفعها إلى الراهبة وقال:

- يا أختاه، هل لك في أن تحملي هذه الرسالة إلى القسّ؟

ولم تكن الرسالة مغلقة، فقلبتها الراهبة بين يديها.

قال جان فالجان: اقرأيها إذا شئت.

فقرأت فيها: «إنني أعهد إلى قس مونفورميل بكل ما أملك هنا، وأرجوه أن يوزّع على الفقراء كل ما يتخلّف[5] من ثروتي بعد نفقات دفن المرآة التي ماتت هذا الصباح».

حاولت الراهبة أن تتكلم. فعجزت، ثم تمتمت بعد صمت قصير:

- ألا تريد أن تُلقي نظرة أخيرة على تلك المرآة التعسة؟!

فأجاب: كلا. إنهم يطاردونني. وإذا يطاردونني. وإذا قُبض عليّ في غرفتها فقد تنزعج طمأنينتها.

وما كاد ينطق بهذه العبارة، حتى سمع جلبة ووَقْعَ خطوات على السلم، ثم سمع الخادمة وهي تصبح بصوت ثاقب[6]: أقسم لك يا سيدي أن أحدًا لم يدخل المنزل هذه الليلة.

فقال صوت رجل: ولكني أرى ضوءًا في تلك الغرفة.

وعرف جان فالجان صوت جافير.

---

(5) يتخلّف: يبقي.

(6) تاقب: هنا بمعني مرتفع يخترق الجدار، فقد يسمعه جان فالجان.

وكانت الغرفة مشيَدة[1] بحيث إذا فتح بابها أخفي وراءه ركنًا ضيقًا فأسرع جان فالجان إلى هذا الركن وتواري فيه. وخـرَت[2] الراهبة سمبليس على ركبتيها[3] بجانب المائدة.

وفُتح الباب، ودخل جافير. فلم ترفع إليه الراهبة عينيها. كانت تصلّى.

ورآها جافير، فجمد في مكانه، واستولي عليه الارتباك.

كان مطبوعًا على احترام مصادر السلطة والنفوذ بأنواعها، ويري أن السلطة الدينية أعلى السلطات جميعًا. فالراهب في نظرة رجل طاهر لا يعرف الختل[4] والخداع، والراهبة في نظرة مخلوقة طاهرة لا تكذب، ولا تأثم[5]. فلما رأي الراهبة، خطر له[6] أن ينسحب ثم خطر له أن يبقي وأن يلقي سؤالًا واحدًا على الأقل.

ولم تكن الراهبة سمبليس قد كذبت في حياتها. وقد كان جافير يعلم منها ذلك ويجلّها من أجله.

سأل: هل أنت وحدك في هذه الغرفة يا أختاه؟

فرفعت الراهبة رأسها وأجابت: نعم.

---

(1) مشيَّدة: مبنية.

(2) خزت على ركبتيها: سجدت، ركعت.

(3) الختل: الغدر.

(4) تأثم: تقترف خطيئة.

(5) خطر له: فكّر في أن.

(6) يجلّها: يحترمها.

- معذرة إذا ألححت[1] في السؤال. ولكن ألم يقع بصرك في هذا المساء على مجرم هارب يدعي جان فالجان؟

فاجابت الراهبة: كلا.

وكذبت الراهبة مرتين وبسرعة، وبغير تردّد.

فقال جافير: أرجو المعذرة إذاً.

وأحني قامته باحترام، وانصرف.

وبعد ساعة، كان رجل يشقّ طريقه وسط الضباب في الطريق إلى باريس. وقال الذين أبصروه إنه كان يحمل حُزمة وعصا.

كان هذا الرجل هو جان فالجان.

والآن، كلمة أخيرة عن فانتين.

إن لنا جميعًا أمًّا واحدة هي الأرض، وقد رُدّت فانتين إلى أمها.

وقد ظن القس أنه يؤدي واجبه على أكمل وجه إذ احتفظ لنفسه بأكبر قسط من المال الذي تركه جان فالجان للفقراء. فعمد إلى تبسيط إجراءات الدفن بقدر الإمكان. ووارى جثمان فانتين في أحد أركان المقبرة العامة حيث توضع أجداث[2] الفقراء.

---

(1) ألححت: أصررتُ.

(2) أجداث: قبور.



القسم الثالث – كوزيت

الفصل الأول

المنقذ

اعتُقِل: جان فالجان في باريس، وأُعيد إلى الليمان. ولاشك في أن القُرَّاء يحمدون[1] لنا تجاوزنا عن التفاصيل المؤلمة التي اقترنت[2] باعتقاله. وبحسبنا هنا أن نوردَ فقرة عن اعتقاله نشرتها في ذلك العهد جريدة «جورنال دي باري».

قال الجريدة: «حوكم أخيرًا أمام محكمة «فار» مجرم خطر يدعي جان فالجان، أُلقيَ القبض عليه في ظروف تلفت النظر. فقد استطاع هذا الشقيُّ أن يفلَ من رقابة الشرطة. وكان من الدهاء والبراعة بحيث عُيِّن عمدة لإحدى مدن الشمال حيث ابتكر صناعة جديدة درّت[3] عليه أرباحًا طائلة.

«ولكن السلطات ذات الشأن[4] ما لبثت أن أزالت النقاب[5] عن وجهه وألقت القبض عليه.

(1) يحمدون: يشكرون.
(2) اقترنت: ارتبطت.
(3) درت: أعطت بكثرة.
(4) ذات الشأن: التي من صلاحيتها هذا الأمر.
(5) النقاب: الحجاب، الستار؛ وأزالت النقاب عن وجهه هنا بمعني كشفت أمره.

«وكان قد اتخذ لنفسه عشيقة، هي فتاة من أهل المدينة، وقد توفيت هذه الفتاة أثر نوبة أصابتها ساعة القبض عليه.

«ويستمتع هذا الشقيُّ بجسم المارد، وقوّة العمالقة، وقد استطاع بفضل قوته أن يفرَّ من سجن المدينة، ولكنه اعتُقل في باريس بعد ثلاثة أو أربعة أيام في اللحظة نفسها التي كان يهمُّ فيها بركوب إحدى عربات البريد إلى مدينة بولانجيه.

«والمظنون أنه انتهز فرصة تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة التي قضاها حرًّا طليقًا، فسحب من أحد المصارف الكبرى مبلغًا جسيمًا يتراوح بين ست مائة وسبع مائه ألف فرنك، يقال إنه أخفاها في مكان لا يعرفه سواه، وضاعت سُدي[1] جميع الجهود التي بذلت لاكتشافه.

«وقد حوكم جان فالجان أمام محكمة «فار» بجريمة سرقة أرتكبها منذ ثمانية أعوام وقضت عليه المحكمة بالسجن المؤبد، وأرسل في الحال إلى ليمان طولون».

وفي أحد أيام أكتوبر من ذلك العام، نشرت إحدى صحف تولون النبأ التالي:

«غرق أمس أحد المسجونين الذين يشتغلون في ترميم السفينة أوريون، وذلك أثناء محاولته العودة إلى السفينة بعد أن أنقذ أحد بحارتها من الغرق.

ولم يعثر على جثته. والمظنون أنها غاصت تحت السفينة ورقم هذا السجين 9430 واسمه جان فالجان».

* * *

(1) ترْتق: تُضَلِح.

آن لنا أن نطوف حول تيناردييه وزوجته وأن ننظر إليهما من جميع النواحي.

كان تيناردييه في الخمسين من عمره، وكانت زوجته في الأربعين. فالتوازن بين الزوجين حاصل في السن؛ ولكنه مفقود فيما عدا ذلك

كانت المرأة طويلة القامة، عريضة المنكبين، لها جسم الفيل وقوة الثور ونشاط النمر، فهي التي تنظف الحانة، وترتب الأسرَّة. وهي التي تضع الطعام وتغسل الثياب وترتق[1] الخرق الممزقة، ولا مساعد لها في ذلك سوى كوزيت.

كانت إذا صاحت اهتزَّ ما حولها من أثاث وآدميين. وإذا سمعها الناس تتكلم قالوا هذا شرطي، وإذا رأوا كيف تُعامل كوزيت قالوا إنها جلاد.

إما الرجل فكان قصيرًا هزيلاً صغير الجسم بارز العظام. يُخيل للناظر أنه مريض وما هو بمريض؛ ولكن ذلك سرٌّ دهائه وختله.

يسره أن ينادم[2] زُبُنَه ويفاخ بأنه لا يثمل[3] أبدًا. وقد جعل شعاره تجريد الزبون من ماله بأية طريقة.

لذلك لم يكن عجيبا أن تسوء حاله، وأن تربو[4] ديونه على ألف وخمس مائة فرنك.

* * *

رفعت مدام تيناردييه آنية الماء وأطلت عليها، فانكمشت كوزيت وارتجفت.

(1) ختله: غدره.

(2) ينادم: يجالس الآخرين ويشرب معهم.

(3) يثمل: يسكر.

(4) تربو: تزيد.

هذه الآنية قد علّمت الابنة المسكينة أن تهتم وتكتئب، ولمّا بلغت الثامنة من عمرها. فقد جعلت مدام تيناردييه من واجبات كوزيت أن تجلب الماء للحانة. وجلب الماء للحانة معناه اجتياز مسافة شاسعة في أية ساعة من ساعات الليل والنهار للوصول إلى عين الماء التي تستقي منها القرية.

نظرت مدام تيناردييه في آنية الماء. فحبست كوزيت أنفاسها، وساد الصمت لحظة كانت الفتاة في خلالها تتطلع إلى شفتي المرآة كما يتطلع المتهم إلى شفتي القاضي في انتظار الحكم.

وأخيرا هزت المرآة كتفيها وقالت:

- هذا الماء يكفي.

فتنفست كوزيت الصعداء، وعادت إلى عملها؛ ولكنها راحت تعد الدقائق بفروغ صبر في انتظار أن تسمح لها سيدتها أن تذهب لتنام.

وفجأة، دخل أحد نزلاء الحانة وقال مزمجرًا:

- إن جوادي يحترق ظمأ ولم يقدم له أحد ما يروي ظمأه.

فقالت مدام تيناردييه: بل قدمنا له حاجته من الماء.

- أؤكد لك أنه لم يتناول قطرة واحدة من الماء.

فتسلك كوزيت من تحت المائدة حيث كانت تتواري لستر جسدها الذي لا يستره ثوبها المهلهل، وقالت: نعم. قدمت له الماء بنفسي، وداعبته، وربّتُّ[1] على عنقه الطويل.. وكانت كاذبة.

صاح الرجل:

(1) ربّتُ: ضربتُ بيدي برفق. وذلك لإظهار المحبّة أو الاستحسان.

- ها هي فتاة كالفأر تعرف كيف ترسل كذبة أضخم من الجبل. إن الجواد لم يشرب على الإطلاق، وإنه يتنفس بطريقة أعرفها كلما برَّح به الظمأ.

فأصرَّت كوزيت على كذبها، وقالت بصوت لا يكاد يُسمع: بل إنه شرب كثيرًا.

فقال الرجل بصوت أجش[1]:

- كفي. كفي. أريد ماء لجوادي، وإلا رحلت به في الحال. فنامت كوزيت تحت المائدة. وترك هذا التهديد أثره الفعَّال في نفس مدام تيناردييه، فقالت:

- هذا هو الحق. إذا كان الجواد ظمآن فمن الإنصاف[2] أن يشرب.

ونظرت حولها واستطردت: أين ذهبت الشيطانة الصغيرة؟!

فخرجت كوزيت من مخبها كالفأر المبلل بالماء.

قالت المرآة: قدمي للجواد حاجته من الماء.

فأجابت كوزيت بصوت خافت: ولكن لا يوجد ماء يا سيدتي.

- احملي الآنية وانطلقي بها إلى الينبوع.

فتناولت آنية أكبر منها حجمًا وسارت نحو الباب ببطء.

قالت المرآة:صبرًا! عرِّجي[3] في عودتك على حانوت الخباز و اشترى رغيفًا. إليك خمسة عشر سنتيمًا.

وألقت إليها قطعة النقود. فوضعتها كوزيت في جيب مئزرها، ووقفت في

(1) صوت أجش: صوت خشن.

(2) الإنصاف: العدل.

(3) عرَجي: ميلي.

الباب لا تبدي حراكًا. ولعلها كانت تأمل أن يأتي مَنْ يفدها من هذه الورطة.

وأبصرتها المرآة فصرخت بصوت كالرعد: ألا تذهبين؟؟! فخرجت كوزيت وأغلقت الباب وراءها.

وقع بصرها أمام الحانة على حانوت لبيع لعب الأطفال. وكان الحانوت ما يزال مفتوحًا لأن الليلة هي ليلة عيد الميلاد.

وكان صاحب الحانوت قد وضع ببابه دمية كبيرة ترتدي ثوبًا بديعًا مزركشًا، لم تسنح لها الفرصة لمشاهدتها عن كثب[1].

كانت هذه الدمية موضع إعجاب سكان القرية جميعًا مِمّن تقل أعمارهم عن عشرة أعوام، ولكن أحدًا منهم لم تكن عائلته من سعة الحال[2] بحيث تستطيع إهداء هذه الدمية بمناسبة العيد.

ووقفت كوزيت ذاهلة[3] أمام تلك الدمية البديعة، وتأملت ثوبها الحريري وشعرها الناعم الطويل، وقالت لنفسها: ما أسعد هذه الدمية!

وبينما كانت تملأ عينيها الواسعتين بجمال الدمية، وقد ذهب بها[4] الخيال كل مذهب[5]، إذ بها تسمع صوتًا يردها إلى الحقيقة. كان صوت مدام تيناردييه، وقد أبصرت بها من النافذة.

---

(1) كثب: قرب.
(2) سعة الحال: الغنى.
(3) ذاهلة: مندهشة
(4) ذهب بها: أي في اتّجاه.
(5) كل مذهب: في اتجاهات متعدِّدة.

صاحت: ألم تذهبي بعد أيتها الضفدعة القذرة؟ صبرًا حتى ألحق بك!

وأغلقت النافذة بعنف. فأطلقت كوزيت ساقيها للريح، وما زالت تعدو والآنية الكبيرة بين يديها حتى خرجت من القرية، وتوغّلت[1] في ظلام الحقول.

وكانت كلما ابتعدت عن القرية زاد إحساسها بالوحشة[2]، وشعورها برهبة الليل. فراحت تنقر بأصابعها على الآنية لتحدث صوتًا يؤنسها ويشده من عزيمتها.

انطلقت من القرية عدوًا، وأوغلت في الحقول عدوًا، وأحست وهي تعدو برغبة شديدة في أن تصرخ وتستغيث[3].

لم تكن تُفكر... ولم تكن ترى.... فقد احتوى الليل جسدها الصغير، واحتلت ذهنَها صورةٌ واحدة هي صورة تلك المرآة الجهنمية رابضة[4] في انتظارها لتتهمها بالإبطاء، وتشبعها ضربًا وركلاً[5].

انحنت وملأت الآنية بالماء. ولم تشعر وهي تفعل ذلك بأن قطعة النقود انحدرت من جيب مئزرها، وسقطت في الينبوع.

وأرادت أن تحمل الآنية الممتلئة، فعجزت.

كان إسراعها قد أنهك قوّتها. فتريثت[6] قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم حملت

(1) توغلت: ذهبت بعيدًا، دخلت في العمق.

(2) الوحشة: الشعور بالرهبة عند وجود الإنسان منفردًا، وضدها الاستئناس، أو الأنس.

(3) تستغيث: تستنجد، تطلب الغوث أي النجدة.

(4) رابطة: مُلازمة المكان من دون أن تتركه.

(5) الركل: الضرب بالقدم.

(6) تريثت: تمهّلت.

الآنية وسارت بها بضع خطوات. وتريثت مرة أخرى لتستريح.

وحملت الآنية للمرة الثالثة ومشت بها محدوبة الظهر، مطرقةً[1] رأسها كعجوز في سن السبعين. واضطرت مرارًا أن تتوقف. وفي كل مرة كان الماء المثلج ينسكب على صدرها ويبلل قدميها.

حدث ذلك بين الحقول الموحشة[2] في جوف[3] ليلة من صميم الشتاء، ولم تَرَهُ عين غير عين الله.

لم تجرؤ الطفلة على البكاء خوفًا من سيدتها. فقد تعودت أن تشعر بسيدتها على مقربة منها في كل وقت وفي كل مكان.

وأنهكها[4] التعب أخيرًا، فوقفت وهتفت دون أن تشعر، وبصوت الإنسان الذي يئس من كل رحمة في الأرض أو في السماء: يا إلهي!

وفجأة، أحسَّت بالآنية يخف وزنها، فرفعت رأسها ورأت شبحًا ضخمًا يتناول الآنية من بين يديها.

كان شبح رجل كبير الجسم تبعها دون أن تشعر، وأراحها من حملها الثقيل. من العجب أن كوزيت لم يخالجها[5] في تلك اللحظة شعور بالخوف أو الفزع.

---

(1) مطرقة: منحنية الرأس.

(2) الموحشة: الخالية من الناس.

(3) جوف: داخل، عمق

(4) أنهكها: أضعف قواها.

(5) لم يخالجها: لم يخالطها، لم يشغلها.

الفصل الثالث

عابر السبيل

قال لها الرجل بصوت هادئ خافت: إن حملك ثقيل يا بُنَيَّة!

فأجابت في مذلة وتواضع: نعم سيدي.

- كم عمرك أيتها الصغيرة؟

- ثمانية أعوام يا سيدي.

- وهل حملت هذه الآنية مسافة طويلة؟

- إنني ملأتها من الينبوع.

- وإلى أين تقصدين؟

- إلى القرية، يا سيدي.

- كم تبعد من هنا؟

- إنها تبعد مسيرة ربع ساعة.

فوقف الرجل في مكانه، ثم سأل فجأة: إذاً، فأنت لا أمَّ لك؟

فأجابت كوزيت: لا أعلم.

واستطردت قبل أن يتمكن الرجل من الكلام:

- لا أظن أن لي أمًّا. إن لغيري من البنات أمهات؛ أما أنا فلا أمَّ لي. وأردفت بعد لحظة: أظن أنه لم تكن لي أم قط.

فوضع الرجل الآنية على الأرض، وألقى يديه الكبيرتين على كتفيها، وحاول أن يري وجهها في الظلام.

سأل: ما اسمك يا بنية؟

- كوزيت.

فمرت في جسد الرجل وعدة قوية، ونظر إلى الفتاة مرة أخرى. ثم رفع يديه عن كتفيها، وحمل الآنية واستأنف[1] السير.

سأل بعد قليل: ومَنْ الذي أرسلك لإحضار الماء في مثل هذه الساعة؟!

- مدام تيناردييه.

فقال الرجل بقلة اكتراث[2]، وبصوت يرتجف قليلاً:

- ومن هي مدام تيناردييه؟

- إنها سيدتي وزوجة صاحب الحانة.

- صاحب الحانة؟! إنني سأقضي ليلتي هناك، فأرشديني إلى الطريق.

وعلى الرغم من أن الرجل كان يمشي بخطي واسعة فإن كوزيت لم تجد صعوبة في مرافقته.

لم تعد تشعر بالتعب، وراحت تنظر إلى الرجل من وقت إلى آخر بشيء كثير

(1) استأنف: تابع.

(2) اكتراث: اهتمام.

من الثقة والطمأنينة.

سألها الرجل: أليس لمدام تيناردييه خدم؟! أليس في الحانة أحد سواك؟

- بل هناك فتاتان صغيرتان هما إبونين وأزيلما.

- وهل تخدمان مثلك؟

- إنهما ابنتا مدام تيناردييه.

- وماذا تصنعان إذًا؟!

- لا شيء. إنهما تلهوان وتلعبان بالدمي.

- وأنت؟

- إنني أقوم بالخدمة.

- كل النهار؟!

فرفعت إليه الفتاة عينيها الواسعتين، ولم يَرَ الرجل في الظلام دمعة ترقرقت[1] فيهما.

أجابت بصوت خافت: نعم يا سيدي.

ثم أردفت بعد قليل: إنني ألهو في بعض الأحيان بعد الفراغ من عملي، ولكنني لا أملك شيئًا من الدمى.

ووصلا إلى القرية، وسارت كوزيت بالرجل بين شوارعها المظلمة.

ولما مرا بحانوت الخباز، كانت الفتاة قد نسيت أمر الرغيف.

(1) ترقرقت: لمعت وتلألأت.

واقتربا من الحانة، فقالت كوزيت: لقد اقتربنا فدعني أحمل الآنية:

- لماذا؟

- خوفًا من أن تضربني سيدتي، إذا أبصرتك تحملها.

فأعطاها الآنية، وبعد لحظة كانا بباب الحانة، ولم تتملك كوزيت قبل دخولها من أن تختلس نظرة[1] إلى الدمية المعروضة بالحانوت.

وأقبلت مدام تيناردييه على الفتاة وهي تصبح:

- أين كنت أيتها الشقية؟ ولماذا أبطأت حتى الآن؟

فقالت لكي تتقي غضبها: هذا السيد يطلب غرفة يا سيدتي.

فاستحالت[2] قسوة المرآة إلى دعة، وفحصت الرجل بعين فاحصة، ولكنها ما كادت تري رثاثة ثيابه[3] حتى عاودها العبوس.

قالت في شيء من الخشونة: أدخل يا سيدي.

فدخل الرجل، وأرسلت المرآة بصرها إلى حيث كان زوجها، كأنما تستطلع رأيه، وكان جواب الزوج أنه قلب شفتيه باحتقار، وأومأ برأسه بإشارة معناها: اطرديه.

قالت للرجل: من دواعي الأسف يا سيذي أنه ليس لدينا غرفة خالية.

- إذًا دعيني أقضِ ليلتي حيثما اتفق[4]، ولو في الإسطبل. سأدفع الأجر

---

(1) تختلس نظرة: تلقي نظرة خفيَّة سريعة.

(2) استحالت: تحوّلت: تبدَّلت.

(3) رثاثة ثيابه: سوء حاله، ثوب رثٌ: بالٍ، ممزَّق.

(4) حيثما اتفق: في أي مكان.

الذي تطلبينه.

- هل تدفع أربعين سنتيمًا؟

- نعم.

وسمع أحد الزبائن هذا الحديث، فنظر إلى تيناردييه في دهشة وهتف:

- أربعون سنتيمًا؟ إن الأجر عشرون سنتيمًا فقط!

فأجابه تيناردييه في همس:

- نعم، ولكنه أربعون سنتيمًا لأمثال هذا الرجل. إنني لا أريد فقراء في حانتي.

- صدقت، فذلك يسيء إلى سمعة الحانة.

أما الرجل فإنه وضع عصاه، والحزمة التي عليها، وجلس أمام إحدى الموائد. فخفَّت[1] كوزيت، وقدمت له قدحًا وزجاجة نبيذ.

وبينما كانت تصب النبيذ في القدح، راح الرجل ينظر إليها باهتمام عجيب.

لم تكن كوزيت جميلة، ولكن كان يمكن أن تكون أجمل لو أنها تذوّقت طعم الراحة والسعادة.

كانت عيناها الواسعتان غائرتين[2] في محجريهما وقد انطفأ بريقهما لكثرة البكاء.

وسقط ضوء المصباح على جسمها فأبرز نحولها ونحافتها المخيفة. ولم

(1) خفَّت: اسرعت.

(2) غائرتين: غارقتين.

يكن ثوبها سوي قذرة مهلهلة تكشف ثقوبُها عن بشرتها[1] الشاحبة[2] المحتقنة[3] في بعض المواضع بتأثير الضرب والركل[4].

كان منظر الفتاة وصوتها ونظراتها وحركاتها تعبر عن شيء واحد هو الخوف. وقد بلغ من خوفها أنها لم تجرؤ على الاقتراب من نار الموقد رغم إرتجافها وتساقط قطرات الماء من ثوبها.

واستأنفت كوزيت عملها في سكون. والرجل الغريب لا يحوّل عينيه عنها إلى أن صاحت مدام تيناردييه فجأة:

- أين الرغيف أيتها الضفدعة القذرة؟

وكانت كوزيت قد نسيت الرغيف تمامًا. فلجأت إلى المعقل[5] الوحيد الذي يعتصم به[6] الأطفال الخائفون، وهو الكذب.

قالت: إنني وجدت حانوت الخباز مغلقًا.

- كان يجب أن تطرقي بابه.

- إنني فعلت ذلك، ولكنه لم يفتح الباب.

فقالت المرآة بصوت رهيب: سأتحقق من ذلك غدًا، والويل لك إذا كنت

---

(1) البشرة: ظاهر الجلد من الإنسان.
(2) الشاحبة: الباهتة اللون، المائلة إلى الاصفرار.
(3) المحتقنة: المبقعة، التي اجتمع فيها الدم.
(4) الركل: الضرب أو الدفع بالقدم.
(5) المعقل: الحصن والمجأ.
(6) يعتصم به: يلجأ إليه.

كاذبة! والآن، أين النقود؟

فدسّت[1] كوزيت يدها في جيب مئزرها، واخضر لونها في الحال. لم تجد قطعة النقود.

قلبت جيبها مرارًا، وبحثت فيها باهتمام مؤلم، ولكن بغير جدوى[2] صاحت المرأة: هل أضعتها أو لعلك تريدين سرقتها؟!

ومدت يديها نحو عصا في أحد الأركان[3] فصرخت كوزيت:

- رحماك يا سيدتي. لن أفعل ذلك مرة أخرى.

ولم يَفُتِ الرجلَ الغريبَ شيءٌ[4] ممّا حدث، فراح يبحث في جيوبه بسرعة دون أن يلفت إليه الأنظار.

وفي هذه الاثناء، كانت كوزيت تتراجع وتنكمش لتقيِ[5] جسمها العاري. ورفعت المرآة العصا بيدها، فصاح الرجلِ الغريب.

- عفوا يا سيدتي، لقد رأيت شيئا من جيب الفتاة، ولعله قطعة النقود المطلوبة.

وأحني قامته[6] وتظاهر بأنه يبحث ويفتش في أرض المكان، ثم نهض على

(1) دسّت: أدخلت.

(2) جدوى: نفع.

(3) أحد الأركان: احدي الزوايا.

(4) لم يفت الرجل الغريبَ شيء: لم يَغب عنه شيء، لم يَخْفَ عنه شيء.

(5) تقي: تحمي

(6) قامته: جسمه؛ يقال «هو طويل القامة» أو «هو قصير القامة».

الأثر وهو يقول: ها هي يا سيدتي.

فقالت: نعم. إنها هي

كانت قطعة من ذوات العشرين سنتيمًا. فأخذتها المرآة بغير تردد، وربحت في هذه الصفقة خمسة سنتيمات.

وحدقت[1] كوزيت بنظرة صارمة[2]، وقالت مهددة:

- حذار أن تعودي إلى مثل هذا.

وتسلك الفتاة إلى مكانها المألوف تحت المائدة، بعد أن رمقت الرجل[3] الغريب بنظرة تفيض بالشكر والثقة وعرفان الجميل.

وفُتح أحدُ الأبواب الجانبية بعد قليل، ودخلت منه إيبونين وأزيلما.

كانتا فتاتين بديعتين حقًا على شيء قليل من الجمال والأناقة، وكل منهما ترتدي ثوبًا من الصوف السميك يقيها شر البرد، ويبرز في الوقت نفسه تناسق أعضائها ورشاقة قامتها.

وألقت الأم على ابنتيها نظرة حنان وإعجاب، واستمرّت في عملها.

أما الفتاتان فقد وضعت كبراهما على الأرض دمية جميلة كانت في يدها، وشرعت مع أختها في مطاردة[4] هرة سوداء صغيرة.

ولاحظت مدام تيناردييه أن كوزيت لا تصنع شيئًا، وأنها ترقب ابنتيها في

---

(1) حدقت: نظرت بحدة.

(2) صارمة: حازمة.

(3) رمقت الرجلَ: نظرت إليه.

(4) مطاردة: ملاحقة.

عبثهما[1] فصاحت بها أهكذا تشتغلين؟ سأعرف كيف أجعلك تُقلعين[2] عن هذا الخمول[3].

- دعيها تلعب يا سيدتي، هذه ليلة عيد الميلاد.

ولو أبدى[4] هذه الرغبة زبون محترم يمكن أن تُفيدَ[5] الحانة منه، إذاً لرحبت به مدام تيناردييه وعملت على تحقيقها، أمّا والمتكلم هو هذا الزبون الوضيع[6]. فالأمر مختلف.

صارحت المرآة بحدَة: ما دامت تأكل فيجب أن تشتغل. إنني لا أستطيع إطعامها وإيواءها[7] لوجه الله.

فسألها الرجل بلهجة رقيقة لا تُنتظر من إنسان في رثاثة حاله[8]:

وماذا تريدينها أن تصنع يا سيدتي؟

- أن تصنع جوربًا[9] لابنتي.

فنظر الرجل إلى قدمي كوزيت العاريتين، وسأل:

---

(1) العبث: اللعب، اللهو.

(2) تُقلعين: تمتنعين، تكفين.

(3) الخمول: الكسل.

(4) أبدى: أظْهَرَ.

(5) تُفيد: تستفيد.

(6) الوضيع: القليل القدر.

(7) إيواءها: إقامتها، تأمين المنزل لها.

(8) رثاثة حاله: رداءه حالة، سوء حاله.

(9) الجورب: لباس القدم.

- كم من الوقت يستغرق صنع هذا الجورب؟

- ثلاثة أيام أو أربعة.

- وكم يساوي بعد أن يتم صنعه؟

فقلبت المرآة شفتها باحتقار، وأجابت: يساوي ثلاثين سنتيمًا على الأقل.

- هل تقبلين خمسة فرنكات ثمنًا للجورب؟

وكان تيناردييه قد سمع هذا الحديث، فوجد من واجبه الآن أن يتكلم.

قال: نعم يا سيدي ما دامت هذه رغبتك. إننا لا ننكر على زبائننا شيئًا، ولا نرفض لهم رغبة.

وقالت الزوجة: والدفع فورًا.

فوضع الرجل الفرنكات الخمسة على المائدة، وتحوّل إلى كوزيت، وقال:

- في استطاعتك أن تلعبي يا بنية.

فدس تيناردييه قطع النقود في جيبه، وعضت زوجته على شفتيها، ورمقت الرجل بنظرة بغض وكراهة.

وهتفت كوزيت وهي ترتجف: أصحيح هذا يا سيدتي؟! هل أستطيع حقًا أن ألعب؟

فأجابت المرآة بصوت رهيب: نعم.

فشكرتها الفتاة بشفتيها، وشكرت الزائر بقلبها، وغاصت[1] تحت المائدة.

---

(1) غاصت: غرقت، يقال: «غاص في الماء» إذا غطس فيه، والمعني هنا أنها اختفت تحت الطاولة.

واقتربت مدام تيناردييه من زوجها، وهمست في أذنه: مَنْ تظنّه هذا الرجل؟

فأجابها تيناردييه: لقد رأيت أصحاب ملايين يرتدون ثيابا عتيقة خشنة كثوب هذا الرجل.

ورأت كوزيت الدمية التي وضعتها أيونين على الأرض حين شرعت[1] في مطاردة الهرةً فتسللت من مخبئها بسرعة، واختطفت الدمية لتلهو بها، وهمَّت بالعودة إلى مكانها.

ولكن إيوتين لمحتها وصاحت: أنظرى يا أماه.

فنظرت الأم، ورأت كوزيت ممسكة بالدمية، فصرخت مستنكرة: كوزيت!

فذعرت كوزيت، ووضعت الدمية على الأرض في رفق[2] بحركة تدل على القنوط[3]. وعادت إلى مخبئها دون أن تحوّل عينيها[4] عن الدمية. وما لبثت أن انفجرت باكية بصوت مسموع.

ونهض الرجل من مكانه وسأل: ماذا حدث؟!

فأجابت المرآة: قد تجاسرت[5] هذه الشقية على لمس دمية ابنتي.

فقصد الرجل إلى الباب، وفتحه وخرج.

---

(1) شرعت: بدأت.

(2) في رفق: في رقة، يلطف.

(3) القنوط: اليأس.

(4) تحوّل عينيها: تحيد بنظرها.

(5) تجاسرت: جرؤت.

وانتهزت[1] مدام تيناردييه هذه الفرصة[2] وركلت كوزيت بقدمها ركلة جعلتها تصرخ.

وعاد الرجل بعد دقائق وبين يديه تلك الدمية الكبيرة الجميلة التي أسالت لُعاب الأطفال[3] جميعًا في القرية.

قال وهو يضع الدمية بين يدي كوزيت:هذه لك!

فوجمت[4] الفتاة، وذهلت[5] ولم تستطع الكلام، بل ولم تستطع التنفس.

أما مدام تيناردييه فإنها جمدت في مكانها، وتذكرت كلام زوجها، وراحت تسأل نفسها: ترى مَنْ يكون هذا الرجل؟! أسائلٌ[6] هو أم صاحب ملايين؟ ربما كان هذا وذاك. نعم، ربما كان لصًا.

* * *

(1) انتهزت: وجدت الوقت مناسبا.
(2) الفرصة: وجدت الوقت مناسبا.
(3) أسالت لعاب الأطفال جعلتهم تمنّون الحصول عليها.
(4) فوجمت: سكنت وعجزت عن التكلم من شدة الخوف.
(5) ذهلت: دُهشت.
(6) سائل: شحّاذ.

الفصل الرابع

مساومة

وشعرت مدام تيناديه بأنها لم تمقت[1] إنسانًا في الوجود كما أصبحت تمقت هذا الرجل المجهول الذي أرسلته العناية الإلهية إلى كوزيت.

وكأنما كانت سعادة كوزيت أكثر مما تطيق هذه المرآة رؤيته، لأنها ما لبثت أن أرسلت ابنتيها إلى مرقدهما[2]، ثم استأذنت الرجل المجهول في إرسال كوزيت إلى مخدعها[3]، لان المسكينة متعبة مُنْهَكَة القوى.

وانصرفت كوزيت بدميتها المحبوبة، وبقي الرجل المجهول في مكانه، وقد وضع مَرْفَقَيه[4] على المائدة، وأسند رأسه بين كفيه، وانصرف إلى التفكير.

وانقضت بضع ساعات، وانتصف الليل، وانصرف روّاد الحانة، والرجل الغريب قابع[5] في مكانه، لا يتكلم، ولا يحرّك ساكنًا.

(1) تمقت: تكره، المقت: الكره، الكراهية.

(2) المرقد: مكان الرقود (النوم) أي السرير.

(3) المخدع: الغرفة الخاصة.

(4) المرفق: قسم من اليد يصل بين الساعد والعضد.

(5) قابع: مقيم لا يتحرك.

وأخيرًا ضاقت المرآة ذرعًا[1]، فهمست في أذن زوجها:

- هل في نيّته أن يقضي الليل كله هكذا؟ سأنطلق إلى غرفتي، ولك أن تصنع به ما تشاء.

فذهب إليه تيناردييه، وسأله باحترام: ألا تشعر بالحاجة إلى النوم يا سيدي؟

فأجاب الرجل: نعم. نعم. إنك على حق. أين الإسطبل؟

فقال تيناردييه وهو يبتسم: سأدلّك إليه يا سيدي.

وتناول شمعة مضاءة، وحمل الرجل عصاه وحزمته، وصعدا إلى الطابق الأول، وانتهيا إلى غرفة أنيقة فاخرة الأثاث والرياش[2].

فهتف الرجل: ما هذا؟

فأجاب تيناردييه: هذه غرفتنا الشخصية، وقد ظلّت مغلقة منذ زفافنا.

فأجاب الرجل بخشونة: كنت أفضل أن أنام في الأسطبل.

وقبل بزوغ الشمس، كان الرجل المجهول مرتديًا ثيابه وحاملا حزمته وعصاه.

وأبصرته مدام تيناردييه، فهتفت: أترحل بهذه السرعة يا سيدي؟

- نعم. كم يجب أن أدفع.

فلم تجب مدام تيناردييه، وقدمت إليه قائمة حساب مرهق[3]. فتناولها، وألقي عليها نظرة شاردة. كان اهتمامه منصرفًا إلى شيء آخر.

---

(1) ضاقت المرآة ذَرعًا: تضايقت.

(2) الرياش: الأثاث الفاخر.

(3) مرهق: مُتعب، أي أن المبلغ المطلوب كان كبيرًا.

سألها: كيف حال العمل هنا؟

فأجابت، وقد أدهشها إنه لم ينفجر غاضبًا ساخطًا[1] بعد أن رأي قائمة الحساب:

- إن العمل لا بأس به.

واستدركت قائلة: ولكن الأزمة شديدة على كل حال، ومن حُسن الحظ أن بعض الزبائن الكرام من أمثالك يختلفون إلى الحانة[2] من وقت لآخر.

إن النفقات هنا باهظة يا سيدي، والفتاة الصغيرة وحدها تكلفّنا أكثر مما نطيق[3].

- مَنْ تعنين؟ أية فتاة صغيرة؟

- أعني كوزيت.

فقال الرجل بصوت هادئ، وبقلّة اكتراث: إذا افترضنا أنك تخلصت منها.

فصاحت، وفي عينيها نظرة بغض وكراهية: خذها، بالله، يا سيدي. خذها وأرِحْنا. فأباركك وأبتهل إلى الله من أجلك ليل نهار. هل تريد أن آخذها في الحال.

- نعم، إدعيها[4].

---

(1) ساخطًا: غاضبًا، ناقمًا.

(2) يختلفون إلى الحانة: يزورون الحانة؛ يتردّدون إليها.

(3) نطيق: نحتمل، نستطيع؛ «تكّلفنا أكثر ممّا نطيق»: تكلُفنا فوق قدرتنا.

(4) إدعيها: ناديها.

فصاحت المرآة تنادي الفتاة: كوزيت.

قال الرجل: كم يجب أن أدفع؟

ونظر إلى قائمة الحساب مرة أخرى، وغمغم[1] في دهشة: ثلاثة وعشرون فرنكًا؟!

وفي هذه اللحظة دخل تيناردييه وقال: الحساب ستة وعشرون سنتيمًا فقط.

فنظرت المرآة إلى زوجها مستنكرة، وصاحت: ستة وعشرون سنتيمًا فقط؟

فأجاب تيناردييه ببرود: نعم. عشرون سنتيمًا أجر الفراش، وستة سنتيَمات ثمن النبيذ... أما مسألة الفتاة، فإن لي فيها كلاما سأقوله لهذا السيد على انفراد.

فانسحبت المرآة، وقد تيناردييه مقعدًا للرجل، وقال بسذاجة مصطنعة.

- يجب أن أقول لك يا سيدي إنني أحبُّ الفتاة حبَّ عبادة.

فنظر إليه الرجل المجهول بحدة، وسأل: أية فتاة؟

- أية فتاة! كوزيت طبعًا. أليس في نيتك أن تأخذها؟ دعني أقول لك في صراحة إنني لا أوافق لأنني أطيق فراقها.

لقد تعهدتها بالعناية مذ كانت طفلة، لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم. أما زوجتي، وإن كان ضيقة الصدر[2] سريعة الغضب، فإنها تعطف كذلك على الفتاة وتحبها.

إنها كابنتينا، وليس أحب إلى من أن أسمع صوتها يدوي[3] بين جدران الحانة.

---

(1) غمغم: تكلم بصوت غير واضح.

(2) ضيقة الصدر: قليلة الصبر.

(3) يدوى: يرتفع.

وكان الرجل لا يزال ينظر إليه بإمعان. فاستطرد:

- ثم إنني لا أتركها هكذا لأول عابر سبيل. هَبّ أنني قسوت على نفسي، وتركت الفتاة تذهب معاك، أفلا يكون من واجبي أن أعرف مقرَها[1]، وأن أزورها لأتحقق من أنها سعيدة ناعمة البال![2] إنني لا أعرف حتى أسمك. فيجب على الأقل أن أري أوراقك الشخصية أو جواز المرور الذي تحمله أو شيء من هذا القبيل[3].

فأجاب الرجل في رزانة [4] دون أن يحوّل عينيه عن وجه تيناردييه:

- أصغ إلى يا مسيو تيناردييه! إن الإنسان لا يحتاج إلى جواز مرور لكي يبتعد عن باريس أربعة فراسخ[5]، وأنا إذا أخذت كوزيت فإنني آخذها وأمضي في سبيلي[6] ولا حاجة بك لأن تعرف اسمي وعنواني، إنني لا أريد أن يقع بصرها عليك بعد ذلك!

إنني سأقطع الخيط الذي يقيِّد[7] قدميها، وأتركها تطير. فهل يرضيك هذا؟

وأدرك تيناردييه منذ اللحظة الأولى أنه أمام رجل قوى الإرادة بقدر ما هو قوي العضلات. وكان قد اهتم بمراقبته في الليلة السابقة.

---

(1) مقرها: مكان إقامتها.

(2) ناعمة البال: تعيش حياة هانئة.

(3) من هذا القبيل: من هذا النوع من الأوراق الشخصية التي تعرّفك.

(4) رزانة: رصانة، هدوء ووقار.

(5) فاسخ: مفردها فرسخ وهو وحدة للمسافة تعادل حوالي 8 كلم.

(6) سبيلي: طريقي.

(7) يقيِّد: يربط.

فلم تَقُنْهُ حركة من حركاته، وأدهشته النظرات الغريبة الفاحصة التي كان يحدُج[1] بها الفتاة، فسأل نفسه: ترى ما سرّ اهتمامه بها؟ ومَنْ هو هذا الرجل. ولماذا يرتدي هذه الأسمال البالية[2]، وجيوبه عامرة[3] بالمال؟

ألقى على نفسه هذه الأسئلة، ولم يهتد إلى جواب، وقضى الليل كلّه في سُهْد[4] وتفكير.

كان من المستحيل أن يكون الرجل والد كوزيت. وإذاً لعله جدّها!.

إذا كان كذلك، فلماذا لا يعلن شخصيته وصفته؟

إذا كان لإنسان حق، فإنه لا يتردد في إثباته والحصول عليه، وإذًا فهذا الرجل لا صِلَةَ له بكوزيت، ولا حقّ له عليها.

وكان تيناردييه من الرجال الذين يفهمون حقيقة الموقف بنظرة واحدة، قد رأي أن الفرصة سانحة[5] للعمل بسرعة وصراحة.

قال: أصغ إلى يا سيدي، إنني أطلب ألفًا وخمس مئة فرنك.

فأخرج الرجل من جيبه حقيبة سوداء عتيقة، وتناول منها ثلاث ورقات مالية وضعها على المائدة وقال: جئني بالفتاة.

وما هي إلا لحظة حتى جاءت كوزيت، وأخرج الرجل من حزمته ثوب حداد

---

(1) يحدّج: يحدق؛ يقال حدَّج الشيء: حدق النظر إليه.

(2) الأسمال البالية: الثياب الرّثة.

(3) عامرة: مليئة.

(4) سُهْد: سَهَر، أرق.

(5) سائحة: مناسبة.

لفتاة في السابعة من عمرها.

قال محدثًا كوزيت: انطلقي بهذا الثوب إلى غرفتك أيتها العزيزة، وارتديه على عَجَل.

ولمَا تنفس الصباح، شاهد بعض أهل القرية شيخًا رثَ الثياب، وفتاة في ثياب الحداد يسيران جنبًا إلى جنب في الطريق المؤدية إلى باريس، وقد أمسك الشيخ يد الفتاة، وأمسكت الفتاة دمية كبيرة جميلة.

فأمَّا الشيخ فلم يعرفه أحد، وأما كوزيت فلم يعرفها في ثوبها الجديد إلا القليلون.

وكانت مدام تيناردييه قد أطلقت يد زوجها في العمل وتوقعت نتائج باهرة.

وانتظر تيناردييه نصف ساعة بعد رحيل كوزيت، ثم انتحي بزوجته، وأبرز لها الألف والخمس مئة فرنك، فسألته:

- هل هذا كل ما حصلت عليه؟ ورمقته شزَرًا[1]. فاطرق رأسه لحظة ثم قال:

- أنك على حق، وقد كنت مُغَفَّلاً[2]. إلى بقبعتي!

ودس النقود في جيبه وانطلق في أثر الرجل وكوزيت، وهو يقول لنفسه:

- نعم. إنني حمار عجوز، وهذا الرجل من أصحاب الملايين بغير شك. فقد أخرج من جيبه أولًا عشرين سنتيمًا، ثم خمسة فرنكات، ثم خمسين فرنكًا ثم ألفًا وخمس مئة. وفعل ذلك بكل بساطة، ولو طلبت خمسة عشر ألف فرنك لدفعها بغير تردّد؛ ولكني سألحق به.

(1) شزَرًا: بمؤخّر العينين.

(2) المغفَل: الغبيّ، من لا فطنة له.

وتذكر الثوب الذي أعدّة الرجل سلفًا لكوزيت، وحار في فهم هذا اللغز.

ولحق بالرجل والفتاة في دَغلٍ[1] بعيد عن القرية، وكان الرجل قد جلس تحت شجرة هناك ليسمح للفتاة ببعض الراحة.

واقترب تيناردييه بخفة، وفاجأ الرجل بظهوره، وقال وهو يلهث:

- عفوًا يا سيدي. إليك الألف والخمس مئة فرنك.

فنظر إليه الرجل في هدوء وسأل: ما معني هذا؟

فأجاب تيناردييه باحترام: معني هذا يا سيدي أنني أريد العودة بكوزيت.

فذعرت الفتاة وتعلّقت بساعد الرجل.

أما هذا فإنه نظر إلى تيناردييه بحدّة، وقال هو يتمهل بعد كل كلمة:

- تريد..... العودة..... بكوزيت؟

- نعم يا سيدي، ويجب أن أقول لك إنني فكرت في الأمر مليًا[2]، والواقع أنه ليس من حقي أن أترك الفتاة لك. فأنا رجل شريف كما ترى.

وهذه الفتاة ليست ابنتي، وقد استودعتها أمها، وإلى أمها يجب أن أردها.

ستقول لي: «إن أمها ماتت» حسنًا، في هذه الحال لا أسلم الفتاة إلى غير الشخص الذي يحمل تفويضًا[3] من أمها. فالأمر واضح كما تري.

فلم يجبه الرجل، ودس يده في جيبه، وأخرج حافظة النقود.

---

(1) دغل (جمعها أدغال): غاية كثيفة ملتفّة الأشجار.

(2) مليًا: بهدوء.

(3) التفويض: التوكيل للقيام بعض بعمل ما.

وهنا وثب قلب تيناردييه بين ضلوعه، وقال لنفسه:

- لقد صدقت ظنوني. ها هو يسعى إلى إرضائي وابتياع سكوتي.

أما الرجل فإنه أجال النظر حوله، وتحقق من إقفار المكان[1] من المارة. ثم فتح حافظة النقود ولم يخرج منها رزمة الأوراق المالية كما توقُّع[2] تيناردييه، بل أخرج قصاصة ورق صغيرة قدمها إلى تيناردييه وهو يقول:

- إنك على حق. اقرأ هذه الورقة.

فنشر تيناردييه الورقة في يده، وقرأ فيها ما يلي:

«مسيو تيناردييه

«أرجو أن تعهد بابنتي إلى حامل هذه الرسالة. وسيتولى عني[3] سداد[4] ما عليّ من ديون».

«فانتين»

سأله الرجل: هل تعرف هذا التوقيع؟

كان توقيع فانتين، فلم يستطع تيناردييه إنكارًا.

قال الرجل: في استطاعتك أن تحتفظ بهذه الرسالة لوقت الحاجة.

فطوى تيناردييه الورقة، وقال: ربما كان التوقيع مزوَّرًا ببراعة. ولكن ذلك

(1) إقفار المكان: خلوُّه، عدم وجود أحد فيه.

(2) توقّع الأمر: انتظر حصوله.

(3) يتولى عنّي: يقرك عنّي بالمهمة.

(4) سداد الديون: إيفاء الديون، دفع الأموال المستحقة.

لا يهمني كثيرًا. المهم أن تدفع الديون وهي كثيرة.

فنهض الرجل واقفًا، وقال: يا مسيو تيناردييه، يناير الماضي كانت والدة هذه الفتاة مَدينةً لك بمائه وعشرين فرنكًا. وفي فبراير أرسلت أنت إليها قائمة حساب بمبلغ خمس مئة فرنك، فبعثت إليك بثلاث مئة فرنك في نهاية ذلك الشهر، وبمثلها في بداية شهر مارس.

وقد انقضت تسعة أشهر، منذ ذلك العهد. والأجر الشهري المتَّفق عليه هو خمسة عشر فرنكًا. فيكون المجموع 135 فرنكًا.

ولكني أعطيتك منذ ساعة ألفًا وخمس مئة فرنك.

فشعر تيناردييه كأنه ذئب وقع في فخ. ولكنه اعتصم بالجرأة والقِحَة[1].

قال: أنا لا أعرف اسمك يا سيدي. فإذا لم تعطني ثلاثة آلاف فرنك فإني أعود بكوزيت.

فلم يزد الرجل على أن قال بهدوء: هلمَّى بنا يا كوزيت.

وحمل عصاه بيمناه، وتأبط ساعدها بيسراه واستأنفا السير.

ولاحظ تيناردييه ضخامة العصا وإقفار المكان، وأُسقط في يده[2].

قال وهو يدور على عقبيه[3]: إنني ما زلت مغفَّلا، كان يجب أن أتسلَّح بغدَّارتي[4].

---

(1) القحة: الوقاحة.

(2) أسقط في يده: تحيرَّ، شعر بفشله.

(3) العقب: مؤخرة القدم.

(4) غدارتي: آلة لإطلاق الرصاص أكبر من المسدس وأصغر من البندقية.

الفصل الخامس

الدير

لم يمت جان فالجان غرقًا كما أذاعت الصحف، لأنه في الواقع ما كاد يُنقذ البحّارَ الذي أشرف على الغرق حتى ألقى بنفسه في الماء وغاص حتى ابتعد عن السفينة، ثم اعتصم[1] بأحد القوارب، وتواري هناك حتى أرخي الليل سدوله [2].

وقد رأينا كيف ذهب إلى بولانجيه، وأنقذ كوزيت من براثن تيناردييه وزوجته، وعاد بها إلى باريس.

وقد كان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في حياة كوزيت. وكان سرورها لا حدَّ له بالرغم من المرحلة العظيمة التي قطعتها إلى جانب مُنقذها. ولم تشكو تعبًا ولا نصبًا[3]. ولكن الرجل الطيب القلب شعر بتعبها فأشفق عليها وحملها فوق ظهره. وغلبها الإعياء[4] فاستسلمت لنوم عميق.

كانت الغرفة التي استأجرها جان فالجان تكاد تكون بمعزل عن سائر المنازل، في مكان مقفر تنقطع فيه أقدام السابلة[5]، وهي غرفة حقيرة

(1) اعتصم: تمسَّك.

(2) سدوله:أستاره، والمراد أوخي الليل سدوله»: ظلم الليل.

(3) نصبًا: جهدًا.

(4) الإعياء: التعب الشديد.

(5) السابلة: المارة عابرو السبيل.

متواضعة الأثاث، ليس فيها غير فراش بسيط ومنضدة[1] ومقعدين وموقد.

ووضع جان فالجان الفتاة في الفراش، ثم أضاء شمعة ولبث برهة يتأمل وجهها، وقد انعكست كل مشاعره الرقيقة على صفحة وجهه، وكاد حنانه الشديد وعطفه الأشد يسيلان من عينيه دموعًا، وما تمالك إلا أن انحنى على يدها الممدودة، وقبّلها كما قبّل يد أمها منذ تسعة أشهر حين نامت نومها الأبدي.

واستيقظ في صباح اليوم التالي وهي ما تزال تستمتع بنومها العميق حتى إذا مرت إحدى عربات النقل الثقيلة، وأزعجها دوي عجلاتها، انتفضت ونهضت واثبةً من مرقدها وعلى وجهها علامات الرعب وصاحت: هأنذا يا سيدتي!

وراحت تدور بعينيها حولها، فوقع بصرها على جان فالجان، ووجدته ينظر إليها مُشفقًا وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة فهدا رُوعُها[2].

سألته قائلة: هل يجب أن أكنس؟

فأجاب: كلا، العبي.

فانصرفت إلى دميتها تناجيها وتدللها وهي أشد ما تكون سعادة وغبطة.

وتتابعت الأيام، وهذان المخلوقان يستمتعان بالسعادة في غرفتهما الصغيرة. وبدأ يعلّمها القراءة والكتابة، وشعر بغبطة لا حدَّ لها وهو يلقّنها كيف تصلّى ويحدثها عن أمها، ويراقبها وهي تداعب دميتها.

وكانت المرآة التي يقيم في بيتها عجوزًا ثرثارة، ولطالما حاولت أن تكشف

---

(1) منضدة: طاولة صغيرة.

(2) هدا رُوعُها: هدا خوفها واطمأنت.

أمره باستدراج كوزيت سائلة، متقصّية[1]، ولكنّ الصغيرة كانت لا تعلم من أمره وأمرها أكثر من أنه هبط عليها من السماء فانتشلها من الجحيم.

وخطر للمرأة يومًا أن تراقب جان فالجان، بعد عودته، من ثقب القفل، فرأته يخلع سترته، ثم جاء بمقصّ وقطع خيوط البطانة وأخرج منها ورقة مالية صفراء وضعها في جيبه، وتناول إبرة وخاط البطانة وأعادها كما كانت. وبعد لحظة دعاها إليه، وأعطاها تلك الورقة، وطلب إليها أن تصرفها.

ونظرت المرأة إلى الورقة ووجدتها من ذوات الألف فرنكاً. فدهشت، وتضاعف فضولها[2].

وذات ليلة، خُيّل إلى جان فالجان أنه يسمع وقع أقدام تنتقل بخفة أمام باب غرفته، وكان قد أطفأ المصباح وهم بالرقاد[3] فاعتدل في فراشة وأصغي، وما لبث أن رأي شعاعًا ينبعث من ثقب الباب، ولاحظ في الوقت نفسه انقطاع صوت الأقدام. فأدرك أن هناك مَنْ ينظر إلى داخل الغرفة من خلال الثقب.

ثم تلاشي الشعاع فجأة، وساد السكون.

وشعر جان فالجان بالقلق والجَزَع، وقضي ليلته أرِقًا مسهّدًا. وفي اليوم التالي، قالت له العجوز: أظنّ أنك سمعت صوت أقدام أمام غرفتك، ليلة أمام غرفتك، ليلة أمس، يا سيدي.

فأجاب متظاهرًا بقلة الاكتراث: أظنّ ذلك.

---

(1) متقصّية: متحرّية، متتبعة الأخبار.

(2) فضولها: رغبتها في معرفة مالا يعنيها.

(3) همّ بالرّقاد: استعدّ للنوم.

قالت: إنه الساكن الجديد، والظاهر أنه اعتاد التأخُّر ليلاً، والنهوض مبكِّرًا.

- الساكن الجديد؟ ما سمه؟

- لا أذكر. ديمون أو درمون.

- وماذا يصنع؟

فنظرت إليه المرآة بعينين ضيقتين وأجابت:

- أظن أنه يعيش من إيراده مثلك.

وربما لم تَعْنِ المرآة شيئًا خاصًا، ولكن جان فالجان لم يطمئن إلى نظراتها وصوتها وعبارتها الأخيرة.

ولم يبرَح جان فالجان الغرفة في ذلك النهار، وما إن هبط الليل، حتى خرج من المنزل، وأجال البصر حوله، واستوثق من خلوّ الطريق من الرقباء. ثم عاد أدراجه إلى كوزيت، وقال لها:

- هلمّي بنا.

وانصرف معها.

واتخذ من الظلام سترًا، وما زال ينتقل بالتفاة بين الأزقّة الملتوية، وينظر وراءه بين الفينة والفينة كالجواد الطريد إلى أن بلغ زقاق «بيركاس»، وهو زقاق ضيق مظلم، وهناك خُيِّل إليه أنه يسمع وراءه وقع خطوات كثيرة، وسمع صوتًا كقصف الرعد يهتف:

- ابحثوا عنه في هذا الزقاق، جميعُ الشوارع المجاورة موضوعة تحت المراقبة.

* * *

القسم الرابع – ماريوس

الفصل الأول:

جوندريت

لمْ يكن ماريوس يعرف من أمر جاره شيئًا. ولم يهتمَّ قَطُّ بأن يعرف. كل ما عمله من أمر هذا الجار هو أنه يدعى «جوندربت». وأنه يعيش مع زوجته وابنتيه في غرفة حقيرة قذرة لا تكاد تصلح للخنازير.

ولكن حدث في ذلك اليوم أن سمع ماريوس في غرفة جاره جلبه غير عادية. ووصل إلى أذنية صوت جوندريت وهو يصيح بامرآته:

– هلمّي! أطفئي النيران، وحطمي زجاج النافذة، وارقدي في الفراش، واملإي الدنيا أنينًا.

فدهش ماريوس، وعجب لماذا يأمر الرجل زوجته بإطفاء النار وتحطيم زجاج النافذة وملء الدنيا أنينًا.

وكان يفصل بين غرفته وغرفه جوندريت جدار في أعلا كوَة [1] صغيرة مشبَكة بالقضبان الحديدية، فجاء بمقعد صعد عليه، وأطل من تلك الكوة. ورأي.... رأي جوندريت يسير في الغرفة الضيقة جيئة وذهابًا وهو يفرك كفيه بارتياح ويقول:

(1) نافذة صغيرة في الجدار.

- كنت واثقًا من أنه سيأتي. فقد كتبت الرسالة بأسلوب يُذيب الصخر، فكيف بقلب شيخ متقدم في السن، عُرف بحبه الخيرَ وحدبِه[1] على الفقراء.

ثم التفت إلى ابنته الكبرى وقال: هل أنت واثقة من أنه سيأتي يا إيبونين؟

فأجابت إيبونين وهي تلهث: أؤكد لك أنه سيأتي. إنه قرأ الرسالة، وهز رأسه، وسألني عن عنوان المنزل، وأمر سائق مركبته أن ينطلق به إلى هنا.

فانقلبت سحنة جوندريت، وقال:

- إذا صح ذلك وجب أن يكون هنا الآن، وإلا كيف اتفق لك أن تسبق المركبة، وتصلي قبله؟

فأجابت إيونين:

- إنني انطلقت أعدو بين الأزقة، وسلكت أقرب السُّبُل[2] إلى هنا.

فتحول جوندريت إلى زوجته وصاح:

- هل سمعت أيتها المرآة؟! إنه قادم فاطفإي النار وتمدّدي على الفراش. وأنت يا إيبونين... مزقي هذا المقعد، وحطمي هذا الزجاج.

فأطاعته المرآة والفتاة. وهتفت جوندريت وهو يفرك كفيه: هذا حسن، هذا حَسن! هانحن على استعداد لاستقبال المحسن الكريم.

وماهي إلا دقائق، حتى سمع جوندريت طرقًا على الباب فأشار إلى امرأته وابنتيه أن يلزمنَ الصمت. وقال: تفضّل بالدخول يا سيدي!

---

(1) حديه: عطفه.

(2) السَبل: الطُرق؛ مفردها السبيل.

وفتح الباب، فدخل رجل متقدم في السن، أشيَبُ الشعر، وبرفقته فتاة حسناء في مقتبَل العمر[1].

ورأي ماريوس، من مخبئه، ذلك الشيخ وتلك الفتاة، فوثب قلبه بين ضلوعه.

لم يصدِّق عينيه.

كان قد رأي الفتاة للمرَّة الأولى في حدائق لكسمبورج منذ ستة أشهر، فأعجب بجمالها واحتشامها.

ثمّ لاحظ أنها تتردد إلى الحدائق كل يوم بصحبه ذلك الشيخ الذي أطلق عليه، فيما بينه وبين نفسه، اسم مسيو «لبلان» أي (الأبيض) نظرًا لبياض شعره. فراح بدوره يتردد إلى تلك الحدائق.

ولفت تردده نظر الفتاة، فكانت تشعر به كلما اقترب، فيصعد الدم إلى وجنتيها.

ثم بادلته النظرات والابتسامات.

وتبعهما ذات يوم إلى منزلهما. وأراد أن يستفسر من بوّاب المنزل عن حقيقة أمرهما وظنّه البوابُ جاسوسًا. فلم يرفض إجابته فحسب، بل أنبأ مسيو لبلان بأمره. وكانت النتيجة أن ماريوس لم ير الرجل والفتاة في لكسمبورج بعد ذلك. وعندما ذهب إلى المنزل، أنبأه البوّاب بأنهما رحلا وأنه لا يعرف مقرّهما [2].

وقضى ماريوس بضعة أسابيع في البحث عن صاحبته، حتى استولي عليه[3]

(1) مقتبل العمر: منّ الشباب

(2) مقرّهما: مكان إقامتهما، منزلهما.

(3) استولي عليه: سيطر عليه، غلبه.

اليأس. لذلك كانت دهشته لاحد لها حين أبصرها أمامه فجأة كأنها هبطت من السماء.

ووقف مسيو لبلان بباب الغرفة، وأجال حوله نظرة إشفاق ورثاء[1]

وكانت غرفة صغيرة مظلمة تنبعث العفونة من جدرانها.

قال مسيو لبلان وهو يقدم لجوندريت حزمة كبيرة:

– ستجد في هذه الحزمة يا سيدي ثيابًا جديدة وجوارب وأغطية.

فبسط جوندريت ساعديه، وهتف ببراعة الممثل المقتدر:

– حزاك الله عنا خير الجزاء أيها المحسن الكريم.

ولكنه قال لنفسه: هذا ما كنت أخشاه. ثياب ولا شيء من النقود.

قال مسيو لبلان: أري أنكم جديرون بالشفقة حقًا، يا مسيو جوندريت.

– إنني كنت ممثلاً عظيمًا يا سيدي. إنني من تلاميذ «تالما» المشهور. وقد عرفت معني النجاح ومعني السعادة. ولكن وأسفاه، إن الحظ قلب لي ظهر المِجَنُ [2] وأخيرًا. فأصبحت أنا وزوجتي وإبنتينا بلا طعام، ولا ثياب، ولا نار، في هذا البرد القاتل. وها هي زوجتي المسكينة طريحة الفراش منذ شهرين. أما هذه الغرفة فلم أدفع أجرها منذ ستة أشهر.

وكان جوندريت يتكلم وينظر إلى مسيو لبلان بحدَّة، وقد تغضَّن[3] جبينه،

(1) رثاء: هنا، بمعني الشفقة.

(2) المجن: الترس وقلب ظهر المجنَ: تغّير إلى عكس ما كان عليه.

(3) تغضّن: تجعّد.

وكأنه يفكر ويبحث بين ذكرياته القديمة.

وبحث مسيو لبلان في جيوبه، ولم يجد غير قطعة من ذوات الخمسة فرنكات. فدفعها إلى جوندريت وهو يقول:

- يا مسيو جوندريت، يؤسفني أنني لا أجد معي الآن غير هذا المبلغ التافه. ولكني أعدك بزيارة أخرى في الساعة السادسة من مساء اليوم. كم يبلغ دَينك لصاحب المنزل؟

- ستّين فرنكًا يا سيدي.

- حسنًا! إلى اللقاء في هذا المساء!

ودار مسيو لبلان على عقبيه. فاسرع جوندريت إلى امرآته وهمس في أذنها: انظري إليه جيدًا أيتها المرآة.

وكان لبلان قد تأبط ساعد الفتاةِ وانصرف بها. وعندئذ لاحظت إيبونين أنه ترك معطفه، فصاحت: إنك نسيت معطفك يا سيدي!

فأجابها وهو يبتسم: كلا..... إنني لم أنس، ولكني تركته.

فصاح جوندريت: يا لك من محسن كريم. إن جسمي يكاد يذوب دموعًا.

وما كاد الرجل والفتاة ينصرفان، حتى وثب ماريوس من مخبئه، وانطلق في أثر مركبتهما[1]. ولما عاد بعد ربع ساعة، كان وجهه يتهلل بشرا[2].

ذلك أنه عرف منزل الشيخ والفتاة.

* * *

(1) في أثر مركبتها: وراء عربتها

(2) يتهلل بِشرًا: يطفح سرورًا.

الفصل الثاني

الفخ

قال جوندريت لزوجته وهو يجادلها[1] سأقول لك شيئًا آخر، هو أنني وضعت يدي اليوم على كنز ثمين، وأننا سنشبع اليوم بعد جوع، ونري بعد ظما. [2]

فسألته: ماذا تعني؟

- إليك ما أعي فأصغِ إلى.

وصمت لحظة، ثم استطرد[3] بصوت خافت[4] ولكنه ليس من الخفوت بحيث لا يصل إلى سمع ماريوس:

- لقد وقع المليونير في الفخ هذه المرة. إنه سيعود في الساعة السادسة، وفي هذه الساعة يكون جارنا قد انطلق لتناول طعام العشاء، وتكون صاحبة الدار في شغل بغسل الصّحاف[5]. فلن يفطن إلينا أحد متى أنفذنا الخطة التي بسطتها[6] لك.

(1) يجادلها: يناقشها.
(2) ظمأ: عطش.
(3) استطرد: تابع.
(4) خافت: منخفض.
(5) الصحاف: الصحون، مفردها الصحفة.
(6) بسطتها: شرحتها بالتفصيل.

- ولكن هَبْ أنه أنكر ورفض؟

- في هذه الحالة أرغمه على الرضوخ[1]، وإذا أصرَّ قتلته.

وأدرك ماريوس مَن هذه الكلمات أن الرجل وامرأته يدبّران فخًا لمسيو لبلان. فاضطرب وفزع، ثم تجلَّد[2] وتشجع. وحزم أمره[3] على إنقاذ الرجل إرضاءً للفتاة التي يحبها.

ولكن ماذا يصنع؟

وفكر الشاب في الأمر مليًا. وانتهي من تفكيره إلى حل. فغادر غرفته، وقصد ليقابل أحد مفتشي الشرطة في مركزه، وحدثه بما سمع.

وأصغي إليه المفتش في سكون ووجوم[4] ثم سأل:

- وهل تعتقد أن جوندريت ينوي الفتك بالرجل الذي أن إليه؟

فأجاب ماريوس: إن جميع الأدلّة تحمل على سوء الظن بهذا الرجل. وأكبر ظني أنه سيستعين على إنفاذ خطته بآخرين على شاكلته، لأنه هزيل ضعيف البنية.

- هل معك مفتاح للباب الخارجي.

- نعم.

- أعطِنيه.

---

(1) الرضوخ: الخضوع، القبول.

(2) تجلَّد: تصَبَّر.

(3) حزم أمره: صمَّم، قرر.

(4) وجوم: عبوس

فأطاع ماريوس.

قال المفتش: والآن، حاول أن تعود إلى غرفتك، وأن ترقب ما يحدث دون أن تُشعر جارك.

ومتي وجدت أن الفخ قد أُحكم وضعه، وأن الجِريمة توشك أن تتم، أطلق رصاصة من هذه الغدّارة فاخفً[1] إلى نجدتك واعتقال الأشقياء.

وناوله غدارة محشوَة[2]. ثم سأل: متى يأتي الرجل؟

- في الساعة السادسة.

- هذا حسن. لا تنس أن تطلق رصاصه من الغّدارة!

* * *

وفعل ماربوس ما أشار به مفتش البوليس. فكمن[3] وراء الكوة، وراح ينصت ويرقب.

كانت غرفة جوندريت خالية إلا من زوجته. أما الابنتان فانطلقتا لاستجداء[4] أكفّ المحسنين. وأما جوندريت فإنه لم يَعُدْ إلا في الساعة الخامسة.

وفي الساعة السادسة تمامًا، سمع ماريوس طرقًا على باب جوندريت فصاح هذا بلطف: تفضل بالدخول أيها المحسن الكبير.

(1) أخفّ: أُسرع.

(2) محشوّة:: فيها ذخيرة معدة لإطلاق النار.

(3) كمن: اختبأ.

(4) استجداء: طلب العطاء.

وكان القادم مسيو لبلان حقًا. فدخل الغرفة بخطى ثابتة، ووضع على المائدة أربعة جنيهات، وهو يقول:

- إليك ما وعدتك به يا مسيو جوندريت..في استطاعتك أن تدفع ديونك، وتحتفظ ببقية من المال، وسنري ما يكون بعد ذلك.

فقال جوندريت: جزاك الله عنا أيها السيد النبيل!

وتظاهر بأنه يضع النقود بين يدي زوجته، وهمس في أذنها:

- قولي لحوذي[1] المركبة إن سيده يريده أن ينصرف.

فأطاعت المرأة، وتسلّلت من الباب دون أن يشعر بها أحد.

وفي الوقت نفسه، دخل الغرفة أربعة رجال، الواحد منهم في آثر الآخر[2].

كانوا أشدّاء السواعد، أقوياء الأجسام، لا يدعو منظرهم إلى الطمأنينة، ولا تبشَر وجوههم بخير.

وشعر مسيو لبلان بدخول أولئك الرجل، وغلبت فيه غريزة الحذر فسأل:

- من هم هؤلاء؟

فأجاب جوندريت: لا تُلْقِ إليهم بالاً[3] يا سيدي. إنهم جيراني!

ثم استطرد: اضطررنا أن نبيع كل ما نملك، ولم يبق لنا سوي هذه الصورة، إنها صورة ثمنية من صنع رسام بارع، وأنا أحبها كما أحب ابنتي، فهي تذكُرني

---

(1) الحوذي: سائق المركبة

(2) في آثر الآخر: وراء الآخر، دخلوا متلاحقين. .

(3) لا تلق إليهم بالا: لا تكترث لهم.

بالماضي السعيد! ولكنني مضطر إلى بيعها، فهل تبتاعها يا سيدي؟ إنني لن أطالبك بثمن باهظ. فكم تظنها تساوي؟

فلم يحوّل لبلان عينيه عن الرجال الأربعة، وأجاب بهدوء:

- إنها لا تساوي أكثر من ثلاثة فرنكات.

فقال جوندريت في إصرار:

- هل معك حافظة نقودك؟ إنني أقنع بألف فرنك ثمنًا لها.

فاستند مسيو لبلان إلى الجدار، ونظر حوله، فرأي المرآة والرجال الاربعة يحرسون باب الغرفة ونوافذها.

وفجأة، لمعت عنيا جوندريت الشريرتان ببريق خاطف، واعتدل ظهره المحدودب، وتقدم نحو مسيو لبلان، وزمجر بصوت كالرعد:

- ليس ذلك ما أنا بسبيله! فهل عرفتني؟

تغُير لون مسيو لبلان، ولكنه ظل رابط الجاش[1]، وراح يدور بعينيه في أرجاء الغرفة كحيوان وقع في شَرَكِ[2].

وخُيِّل إلى ماريوس أن الوقت قد حان للتدخل. فصوَّب غدّارته من خلال الكوة وهمَّ بإطلاقها.

غير أن جوندريت انفجر ضاحكًا في تلك اللحْظة، وكان لضحكته دويّ بفيض رجَعت[3] صداه جدران الغرفة.

(1) رابط الجاش: ثابت عند الشدائد

(2) شرك: فخ.

(3) رجُعَت: ردّدت.

وأعاد سؤاله على لبلان: هل عرفتني؟

فأجاب لبلان بهدوء: كلا.

فصاح جوندريت: ليس اسمي جوندريت، إنما أنا تيناردييه! صاحب حانة بولانيجه! فهل عرفتني الآن؟! أنا تيناردييه!!

فاحمرّ وجه مسيو لبلان، ولكنه أجاب بصوت هادئ النبرات:

ذلك لا يعنيني!

وراح تيناردييه يذرع الغرفة[1] جيئة وذهابًا وعلى وجهه وملامح الانتصار.

هتف: هأنذ قد وقعت عليك أخيرًا يا سيدي المحسن... ها... ها... ألا تعرفني؟ ألم تكن أنت ذلك المليونير الذي جاء إلى حانتي في بولانجيه ليلة عيد الميلاد منذ ثمانية أعوام؟ ألم تخطف طفلة فانتين من حانتي وتذهب بها؟

فقال مسيو لبلان: إنني لا أفهم شيئًا مما تقول. فما أنا إلا رجل فقير، ولا صلةَ لي بأصحاب الملايين، ولابد أنك توهمتني شخصًا آخر.

فبدت علامات الغضب على وجه تيناردييه وصاح:

– لست أنا ممن يخطئون. أصغ إلى، إنني بحاجة إلى المال، بل إلى الكثير من المال. فإما أن تعطيني ما أطلب، وإلا فالويل لك!

فصمتَ لبلان، وصاح تيناردييه: أليس لديك ما تقول؟

وأصرَّ لبلان على الصمت، فجعل تيناردييه يسير في الغرفة بخطوات واسعة، وقد ارتسمت على وجهه النحيل علامات القلق.

(1) يذرع الغرفة: يمشي فيها كأنه يقيسها.

ثم وقف فجأة أمام سجينه وصاح: فتّشوه!

وأقبل الرجال الأربعة على مسيو لبلان ففتشوه دون أية مقاومة من جانبه، فوجدوا معه منديّلا وستة فرنكات.

وتناول تيناردييه المنديل ووضعه في جيبه، ثم سأل:

- ألم تعثروا على حافظة نقود؟

فأجابه أحد الرجال: كلا.

فتقدم تيناردييه من المحسن إليه، و تكلم في رفق ولعله كان يرجو أن يظفر منه باللين بما لم يستطع أن يظفر به قسرًا[1].

قال: معذرة يا سيدي، فقد أفقدني الغضب صوابي. ولكنني تبيّنت[2] الآن خطئي فأرجو صفحك. بيد أني[3] على استعداد للتفاهم معك وسأضحّي بشيء من جانبي.

إنني لست بحاجة إلى أكثر من ألف فرنك. ولقد يتبادر [4] إلى ذهنك أنني مجنون حتى أطالبك بمبلغ لا تحمله الآن في جيبك؛ ولكني أذكّرك بأنه يوجد هنا قلم وورق فاكتب ما أمليه عليك.

وأدرك مسيو لبلان ألا فائدةَ تُرجي من المقاومة، ولعله أراد أن يعرف إلى

(1) قسرًا: بالقوة.
(2) صفحك: عفوك، غفرانك.
(3) بَيْدَ أني: غيرَ أنّي، لكنّني
(4) يتبادر: يستارع.

أيّ حدّ ينوي الشقي أن يمضي في مكيدته[1]، فتناول القلم وشرع[2] يكتب، وتيناردييه يُمَلي عليه:

«ابنتي العزيزة، تعالى سريعًا، فإنني في أشدَ الحاجة إليك، وسيُرشدك[3] حامل هذه الرسالة إلى مكاني».

فوضع مسيو لبلان القلم وسأل: لمن هذه الرسالة؟

فأجابه تيناردييه: أنت تعرف لمن هي. إنها لابنتك. أسرع ووقّع عليها بإمضائك.

فهز لبلان رأسه بهدوء، وقال بصوت ثابت النبرات: كلا.

فزمجر تيناردييه وضرب الأرض بقدمه، وصاح بأحد رفاقه:

- أَحْم القضبان الحديدية يا بيجول.

وصاح بآخر:

- وأنت يا مونباناس، اكشف عن ساعده، سأعلّمه كيف يُطيع.

ولكن المدعو مونيارناس ما كاد يقترب من مسيو لبلان، حتى دوّى في المكان طلق ناري، وامتلأت الغرفة بالدخان، فأفلتت من فم تيناردييه صرخة ذُعر[4]، وصاح: ما هذا؟

وفي اللحظة نفسها فُتح الباب، ودخل المفتش جافير وهو ويقول بهدوئه المخيف:

(1) المكيدة: الخديعة، المكر.

(2) شرع: بدأ.

(3) يُرشدك: يدلُك.

(4) ذعر: خوف شديد

– لا شيء. لا شيء. كونوا مطمئنين.

ودخل في أثره سبعة من الشرطة. وحدثت في الغرفة ضجة سريعة، انتهت على ما يحبّ جافير.

قال المفتش لرجاله: ضعوا أيديهم في الأصفاد[1].

ثم سأل: أين السيد الذي أرادوا قتله؟

وكان مسيو لبلان قد انتهز فرصة الاضطراب الذي ساد الغرفة، فوثب من النافذة وتواري عن الأبصار.

قال جافير مرة أخرى: أين هذا السيد؟!

ولكنه لم يسمع جوابًا.

ولم يستطيع قط أن يعرف لماذا يلوذ بالفِرار هو أجدر[2] بالشك من الجاني[3].

* * *

(1) الإصفاد: القيود، السلاسل.

(2) أجدر: أحق.

(3) الجاني: الذي يرتكب الجناية، الجرم.

الفصل الثالث

الحب والشباب

اعتاد جان فالجان أن يقوم من وقت إلى آخر برحلات غامضة فيغيب يومين أو ثلاثة، ويلزم الصمت بشأن هذه الرحلات، ولا تُقدم عنها لكوزيت حسابا.

ولكن كوزيت لاحظت أنه لا يقوم بهذه الرحلات إلا إذا نفذت نقوده. كما لاحظت أنه يعود دائما وجيبه مليء بالأوراق المالية.

وقد أوصاها جان فالجان بأن تلزم المنزل في غيابه، فلا تبرحه[1] أبدًا.

في مساء أحد الأيام، كانت كوزيت جالسة في حديقة المنزل الصغير الذي استأجره جان فالجان، والذي كان في وقت ما وكرًا لعشيقة أحد الوزراء.

وكان جان فالجان قد انطلق، في اليوم السابق، في إحدى رحلاته الغامضة فبقيت كوزيت وحدها. ثم استوحشت المنزل[2] فخرجت إلى حديقته وجلست هناك على مقعد حجري، وراحت تتأمل السماء والنجوم شأن جميع العاشقين.

وفجأة، أحسَّت بذلك الشعور الخفي الذي يُحِسّ به الإنسان إذا تسلل وراءه شخص، فنظرت خلفها ورأت الشاب الذي طالما أبصرته في حدائق لكسمبورغ وبادلها النظرات والبسمات.

(1) تبرحه: تغادره.

(2) استوحشت المنزل: شعرت في بالوحشة، أي بالوحدة وعدم الا إنس.

نهضت واقفة. وترنحت في مكانها، وحدثتها فطرتها بالفرار. ثم حدّثها قلبها بالبقاء، فتهالكت[1] على المقعد، وأطرقت رأسها[2].

وسمعته يتكلم بصوت لا يرتفع عن حفيف أوراق الشجر.

كان يقول: معذرةً! فما أردت أن أزعجك. ولكن لم أطق الحياة بعيدًا عنك. فهل تعرفينني؟ هل تذكرين يوم تقابلنا للمرّة الأولى؟ كان ذلك في يوم 16 يونيو.... وهو تاريخ لا أنساه.

ثم هل تذكرين اليوم الذي لم نتقابل بعده؟ إنه يوم 2 يوليو.

ولكني رأيتك في هذه الحديقة منذ بضعة أيام، وهممت أن أَثِبَ[3] من فوق السور كما وثبتُ الليلة، ولكني رأيت خادمتك مُقْبلة، فأطلقت ساقي للريح.

أفلا تسمحين لي بمقابلتك هنا في مستقبل الأيام؟ إنك لا تعلمين كم أحبك.

وتناول يدها، وضغطها على قلبه دون أن يعلم ما هو فاعل.

وتناولت يده بدورها، ووضعتها على قلبها. فهتف: أتحبينني إذًا؟!

فأجابت بصوت خافت لا يكاد يرتفع على أنفاسها: صَهْ[4]! أنت تعلم أنني أحبك.

وأخفت وجهها في صدره، وثمل[5] الفتي بنشوة [6] السعادة والحب والكبرياء.

---

(1) تهالكت: تركت نفسها تسقط.

(2) أطرقت رأسها: حنت رأسها

(3) أثب:أقفز.

(4) صَهْ: اسم فعل أمر بمعني أسْكُتْ.

(5) ثمل: سكر.

(6) النشوة: السكرة.

ولم يَدْرِ، ولم تَدْرِ كيف تقابلت شفاهمهما.

كانت قبلةَ أعقبها[1] صمت طويل، كأنما فقدا حاسة النطق.

وهدأت ثورة العاطفة بالتدريج، وتبادلا الحديث حتى تغلغل كل منهما في أعماق صاحبه، وأخيرًا سألته: ما أسمك؟

فأجاب: ماريوس. واسمك؟

- كوزيت.

* * *

(1) أعقبها: تعبها.

الفصل الرابع

الحفيد والجد

في الليلة التالية، ذهب ماريوس لمقابلتها في الموعد نفسه، والمكان نفسه. فوجدها في انتظاره؛ ولكنها كانت حزينة، وقد احمرت جفونها من تأثير البكاء فذُعر، وهاله[1] أن يطفو الكدر[2] فوق حلمه السعيد بمثل هذه السرعة.

هتف من قلب يتمزق حزنًا: ماذا بك؟!

فأجابت: سأحدثك في صراحة. لقد طلب مني أبي أن أستعد للرحيل.

ففتح ماريوس عينيه في دهشة، وخانه النطق[3].

وأحسست الفتاة بيد باردة كالثلج بين يديها فسألته بدورها: ماذا بك؟

أجاب: إنني لم أفهم ما تعنين.

قالت: لقد عاد أبي اليوم، وأمرني أن أعِدّ أمتعتي[4] وأكون على استعداد لأننا سنبحر إلى إنجلترا في خلال أسبوع، لشأن[5] يهمّه. فهتف الشاب: إلى

(1) هاله: أخافه.

(2) يطفو: يعلو

(3) الكدر: الحزن.

(4) خانه النطق: عجز عن الكلام.

(5) أُعدّ امتعتي: أحضّر أغراضي ، شأن: أمر

إنجلترا؟! ولكن هذا مخيف.

كان من القسوة، في نظر، وسوء استغلال السلطة أن يذهب مسيو فوشليقان – وهو الاسم الذي قالت كوزيت إنه اسم أبيها – بابنته إلى إنجلترا لا لشيء إلا لأن له عملاً هناك.

سأل بصوت خافت: ومتى يكون الرحيل؟

لم يذكر لي موعده بالتجديد.

– ومتي ستعودان؟

– لم يحدثني في هذا الصدد[1].

فهنض ماريوس واقفًا وقال ببرود: هل تذهيبن معه؟

فضمت يديها فوق صدره، وأجابت بلهجة اليأس والحزن:

– وماذا أستطيع أن أفعل؟

– إذا فقد اعتزمت[2] الرحيل معه؟

فضغطت على يده ولم تُجب.

قال: في هذه الحالة يجب أن أحل بدوري

فحاولت الفتاة فهم هذه العبارة، ولكنها أحست بالجزع، وصاحت: ماذا تعني؟

فأجاب ببطء: أصغي إلى يا كوزيت. إنني لم أحنث[3] بقسمي قط، ولكن

(1) الصدد: هنا، بمعني الموضوع.

(2) اعتزمت: قررت.

(3) حنث: لم يفِ بقسمه.

أقسم لك بشرفي الذي أحترمه أكثر من حياتي، بأنك إذا رحلت فإنني أورد نفسي موارد الهلكة.

قال ذلك بلهجة هادئة رزينة جعلت الفتاة ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

ثم قال: لا تنتظريني غدًا يا كوزيت.

- ولماذا؟

- انتظريني بعد غد.

- لماذا؟ لماذا؟

- سوف ترين.

- أتسمح بأن ينقضي يوم دون أن أراك؟

فتناول يدها بين يديه، وحدَّقت الفتاة في عينيه لترى ماذا فعلت كلماتها.

قال: وبهذه المناسبة يجب أن تعرفي عنواني على سبيل الحيطة، فقد تركت منزلي القديم، وإني أقيم الآن مع صديق لي يدعي «كورفيراك» في المنزل رقم 16 بشارع لافيراري.

وبحث في جيوبه، واخرج مطواة[1] واستخدام نصلها [2] في حفر هذا العنوان على المقعد الحجري.

(1) مطواة: سكين صغير.

(2) نصلها: حديدتها.

فقالت وقد اشتد جزعها وقلقها: لماذا لا تصارحني حتى بما يدور بِخَلَدِك[1] يا ماريوس؟

فأجاب بحماسة: إليك ما أفكر فيه. من المستحيل أن يرضي الله بفراقنا، وستعلمين المزيد متى تقابلنا بعد غد.

- وكيف أقضي يوم غد؟ إنك حر طليق، تروح وتغدو وترفّه عن نفسك كما تشاء؛ أما أنا فسأقضي النهار وحيدة حزينة. فما أسعد الرجال، وما أشقي النساء!

ولكن حدثني ماذا تنوي أن تفعل غدًا؟

فأجاب: سأقوم بمحاولة.

- في هذه الحالة سأبتهل إلى الله أن تثمر محاولتك، ولكن لا تنس أنني سأكون في انتظارك هنا بعد غد، في مثل هذه الساعة.

وتعانقا.... وافترقا.

* * *

كانت لماريوس قصة.... فهو لم يخلق ليكون جارًا لرجل مثل تيناردييه.

كان ماريوس حفيد شيخ واسع الثراء يُدعي «جيلنورمان».

وكانت لجيلنورمان ابنتان، ظلت إحداهما عانسًا[2]، واقترنت الأخرى برجل يُدعي «بونمرسي» وتوفيت بعد أن وضعت[3] ماريوس.

(1) بخلدك: في فكرة

(2) العانس: الفتاة إذا كبرت ولم تتزوّج.

(3) وضعت: ولدت.

وعاش ماريوس في كنف[1] جده، ونَعِمَ بثروته ومجده.

وفرّقت المبادئ السياسة بين جيلنورمان وبونمِرسي. فالأول عريق في نُصرة[2] الملكية، والثاني من جنود نابليون الذين تذوقوا معه لذة الانتصار، ومرارة الهزيمة، وابلوا[3] معه في جميع المعارك أحسن البلاء.

وكان بونمِرسي يضنّ[4] بأواصر[5] القرابة ويخشى أن تعصف بها أعاصير السياسة، ولكن جيلنورمان كان شيخًا عنيدًا يعتبر الخصومة السياسة ضربًا من الخصومة الشخصية. واشتد حنقه[6] على زوج ابنته حين أنعم عليه الامبراطور بلقب بارون، واستحال الحنق إلى كراهة حين توفيت ابنته.

ولكنه تعهد ماريوس بالعناية، وحرص على أن يمحوَ من ذهنه صورة أبيه.

وكبر ماريوس وترعرع، والصلة بينه وبين جدة كأفضل ما تكون الصلات بين الأجداد والأحفاد.

وتوفي يونمِرسي بعيدًا عن ولده، وتحدّث أحد الخدم إلى ماريوس بقصة الخلاف الذي شجر[7] بين جده وأبيه، وعرف الفتى المزيد من قصة أبيه

---

(1) كنف: حضن، جناح.

(2) نصرة: تأييد.

(3) أبلي: أظهر شجاعته.

(4) يضنّ: يبخل بها لمكانتها الكبيرة عنده.

(5) أواصر: مفردها آصرة: رابطة.

(6) حنقه: غضبه.

(7) شجر(الخلاف): حصل، وقع.

فأكبره[1]، وأحل ذكراه محلاً مقدسًا.

وفي أحد الأيام عثر جيلنورمان الشيخ في غرفة صغيرة على بطاقة باسمه كتب عليها «البارون ماريوس دي بونمِرسي».

وكان قد كتم عنه هذا اللقب الذي أنعم به نابليون على أبيه. فثارت ثائرته، ودعا إليه ماريوس وصاح وهو يلوّح بالبطاقة: ما معنى هذا يا سيدي؟

فاحمرّ وجه ماريوس وأجاب: معناه.... أنني ابن أبي.

فضحك الشيخ، وقال بصوت خشن: إنني أبوك.

فقال ماريوس دون أن يرفع عينيه إلى وجه جدّه:

– لقد كان أبي فقيرًا، ولكنه.... ولكنه كان شجاعًا. وقد أراق دمه[2] في سبيل الجمهورية الفرنسية ومات منسيًا، ولم يرتكب في حياته إلا جريمة واحدة، هي أنه أحب شيئين جاحدين[3]، هما وطنه وابنه.

وكان ذكر أكثر مما يطيق الشيخ سماعه، فصاح:

– ماريوس. إنني لا أعرف مَنْ كان أبوك، ولا أريد أن أعرفه، وبحسبك أن تعلم أن الذين خدموا روبسيير كانوا لصوصًا، والذين خدموا نابوليون كانوا قُطّاع طرق. جميعهم مجرمون خَوَنة لأنهم تنكروا[4] لمليكهم الشرعي. وجميعهم جبناء لأنهم فرّوا أمام النمساويين في عهد روبسيير، وأمام الإنجليز في واترلو.

(1) أكبره: احترمه وعظّم قَدْرَه.

(2) أراق دمه: صبّه، بذل حياته.

(3) الجاحد: الذي ينكر الفضل.

(4) تنكروا له: أعرضوا عنه.

هذا كل ما أعلمه. وإذا كان أبوك قد اشترك مع هؤلاء الخونة الجبناء فلذلك ما أجهله وما آسف له.

وكان الفتى يرتجف حنقًا وغضبًا، فقد أُهين أبوه على مسمع منه. ومن ذا الذي أهانه؟! جدُّه.

ولم يدرِ كيف يمحو هذه الإهانة، ولا كيف يعاقب المُهين. ووجد نفسه واقفًا والقبر المقدس عن يمينه، والشعر الأبيض عن يساره. فترنَّح[1] كالثمل ثم نظر إلى جده بحدة وصاح:

- ليسقط آل بوربون! ليسقط لويس الثامن عشر!

وكان لويس الثامن عشر قد توفي منذ أربعة أعوام، ولكن ذلك لم يرقّه[2] من غضب الشيخ الذي أحمر وجهه في الحال، ثم مشى إلى الباب ببطء حتى إذا بلغه تحوّل إلى حفيده وقال في هدوء:

- إن بارونًا مثلك وصعلوكًا مثلي لا يستطيعان البقاء تحت سقف واحد.

وهكذا ترك ماريوس بيت جده.

وفي اليوم التالي قال جيلنورمان لابنته:

- أرسلي إلى هذا الثائر ستين جنيهًا كل ستة أشهر، وحَذارِ أن تذكري اسمه على مسمع مني.

ولكن ماريوس رد المبلغ الذي أُرسل إليه، وقنع بالمرتب الضئيل الذي كان

(1) ترنّح: تمايل.

(2) يرقّه: يخفّف.

يتقاضاه[1] من أحد المحامين.

وانقضت بضعة أشهر لم يسمع الشيخ في خلالها كلمة واحدة عن حفيده، رغم حنانه عليه وشوقه، إلى أن كانت إحدى الأمسيات إذ دخل عليه خادمه وقال:

- هل يسمح سيدي بمقابلة مسيو ماريوس؟

فاعتدل الشيخ في جلسته، ومرت في جسده وفي نفسه هزة عنيف. هتف:

- من هو ماريوس هذا؟

- لا أعلم. قالت لي الخادمة إن مسيو ماريوس يرجو مقابلتك فأجاب. الشيخ بصوت خافت: دعه يدخل.

ووقف ماريوس بالباب، كأنه ينتظر أن يدعوه جده إلى الدخول.

ولم ير الشيخ ثوبه الرثّ[2] فقط، رأى وجهه الشاحب الحزين، وشعر برغبة شديدة أن يبسط له ساعديه، ويضمه إلى صدره.

كان قلبه يذوب حنانًا، ولكنه لمّا تكلم انبعث صوته قاسيًا.

قال: ماذا جئت تفعل هنا؟ هل جئت تطلب صفحي، ومغفرتي؟ هل أدركت خطأك؟

فضم ماريوس يديه فوق صدره، وقال بصوت خافت مرتجف:

- رحمةً بي يا سيدي!

- تكلم! ماذا تريد مني؟

- أنا أعلم، يا سيدي، أن وجودي هنا يزعجك، ولكني جئت أطلب أمرًا

(1) يتقاضاه: يقبضه.

(2) الرث: البالي.

واحدًا، ثم أنصرف.

فقال الشيخ: إنك أحمق. مَنْ ذا الذي طلب إليك أن تنصرف؟! ثم عقد ساعديه فوق صدره بكبرياء، وقال:

– لنضع حدًا[1] لهذا الحديث يا سيدي. قلت إنك جئت في طلب شيء. فما هو؟

فقال ماريوس، وفي عينيه النظرة التي تتراءى في عين المشرق على هوّة[2] سحيقة[3]:

– سيدي. إنني جئت أطلب موافقتك على زواجي.

فقد جيلنورمان الجرس، وأقبل الخادم فقال له: أُدْعُ ابنتي.

ولزم الصمت إلى أن جاءت الآنسة جيلنورمان، فقال لها ساخرًا:

– لقد دعوتك لكي أقول إن هذا السيد يريد أن يتزوج، والآن، اذهبي.

وكان صوته ينمّ[4] عن الغضب الهائل الذي يعصف في صدره، فنظرت ابنته إلى ماريوس من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وانصرفت دون أن تنطق بكلمة.

وأخذ الشيخ يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا، ثم أدار ظهره إلى حفيده، وقال وهو يسند مرفقيه على حافة الموقد:

---

(1) لنضع حدًا: لنضع نهايةً.

(2) هوّة: حفرة عميقة في الأرض.

(3) سحيقة: عميقة.

(4) ينمّ عن: يكشف، يظهر.

- تريد أن تتزوج وأنت في الحادية والعشرين؟ ولا ينقصك إلا أن تخبرني بذلك على سبيل العلم بالشيء. تفضل بالجلوس يا سيدي.

ثم أردف قبل أن يتمكن ماريوس من الكلام أو الجلوس:

- هل لك مَهنة يا سيدي؟ هل تملك ثروة؟ كم تربح الآن من عملك؟ فأجاب ماريوس بحدة: لا شيء يُذكر.

- في هذه الحالة لابد أن تكون الخطيبة العزيزة واسعة الثروة.

- إنها، مثلي، لا تملك شيئًا.

- مثلك؟ لا تملك شيئًا وليست لها بائنة[1]؟

- نعم.

- وما اسمها؟

- اسمها مدموازيل فوشليفان.

فقال الشيخ بلهجة مَنْ يتحدث إلى نفسه:

- عمره إحدى وعشرون سنة ولا عمل له، ولا ثروة، وزوجته البارونة مونمارنسي لا تملك قوت يومها. هذا بديع!

وشعر ماريوس بآخر آماله ينهار، فصاح: سيدي! إنني أضرع إليك[2] وأرتمي تحت قدميك متوسلاً أن تسمح لي بالاقتران بها.

فانفجر الشيخ ضاحكًا وقال:

(1) البائنة: ما تحصل عليه الفتاة من أهلها عند الزواج.

(2) أضرع إليك: أتوسّل إليك، أرجوك.

– آه... أكبر الظن أنك قلت لنفسك: «إني الآن دون الخامسة والعشرين من عمري، ولا حق لي في الزواج بغير إذن وليّ أمري[1]، فلأذهب إلى هذا الشيخ المأفون[2]، لأقول له: أيها الشيخ! إنك تكاد تطير فرحًا برؤيتي، ولذلك يجبب أن تسمح لي بالاقتران بالآنسة كذا، فإنهاجديرة بي، وأنا جدير بها، فهي لا تملك حذاء، وأنا لا أملك قميصًا، وإنني على استعداد لأن ألقي في النهر بشبابي ومستقبلي وحياتي، ما دامت تحبني، ذلك هو ما حزمت أمري عليه، فيجب أن توافق. فيبتسم الشيخ المأفون، ويوافق».

– أبي!

– أبدًا!!

وبهذه الكلمة تبدّدت[3] آمال ماريوس، فأطرق رأسه، ومشى إلى الباب مترنّحًا ترنح المحتضر[4]، ولكنه ما كاد يفتح الباب، حتى لحق به الشيخ، وأمسك بخناقه، واجتذبه معه، وألقى به في أحد المقاعد، وجلس أمامه وهو يقول: حدثني بكل شيء.

كان الفضل في هذا الانقلاب الذي طرأ على الشيخ كلمة «أبي» التي أَفْلَتَتْ من بين شفتي ماريوس.

قال الشيخ مرة أخرى:

---

(1) وليّ أمري: المسؤول عنّي.
(2) مأفون: ناقص العقل، ضعيف الرأي.
(3) تبدّدت: تلاشت.
(4) المحتضر: الذي يوشك أن يموت.

- تكلم، وحدثني بقصة غرامك، يا إلهي، ما أشد غباوة الشباب! فرد ماريوس: أبي.

وأضاء وجه الشيخ. وغمغم: نعم. نعم. أُدعُني أباك.

وانبسطت أساريره[1] بعد عبس، وسالت عيناه حنانًا بعد قسوة.

قال وهو ينظر إلى حفيده في دهشة:

- أحقًا أنك لا تملك مالاً؟ إنك ترتدي ثيابًا كثياب اللصوص. إليك مائة جنيه لتبتاع قبعة جديدة.

- ما أطيب قلبك يا أبي! لو تعلم فقط كم أحبها! إنني رأيتها للمرة الأولى في حدائق لكسمبورغ فلم أُلْقِ إليها بالاً في أول الأمر. ثم غرقت في حبها إلى أذنيّ دون أن أشعر، وقابلتها مرتين في حديقة بيتها تحت جنح الظلام دون أن يعلم أبوها فتصوّر هذا يا أبي! ولكن أباها يريد الآن أن يرحل بها إلى إنجلترا. فقلت لنفسي «لأذهب إلى أبي وأحدثه بكل شيء». ولا بد أن اقترن بها وإلا أُصاب بالجنون.

وأصغى الشيخ إلى حديث حفيده. حتى إذا فرغ من كلامه، نظر إليه في رفق وقال: أَصغِ يا ولدي، إن الإنسان يستطيع أن يستمتع بالحب دون أن يقتل نفسه بالزواج. فهل فهمتني؟!

فهز ماريوس رأسه سلبًا[2]، وصاح الشيخ: أيها الأبله. لماذا لا تتخذها عشيقة؟

---

(1) أساريره: ملامح وجهه.

(2) هزّ رأسه سلبًا: أي للنفي (ليعبّر بحركة رأسه عن أنه لم يفهم).

فامتقع[1] وجه ماريوس، ونهض واقفًا، وتناول قبعته، ومضى إلى الباب بخطوات ثابتة، وهناك تحوّل إلى جده، وأحنى قامته باحترام، وقال:

- إنك منذ بضعة أشهر أهنت أبي، واليوم أهنت زوجتي. فليس عندي ما أقوله لك يا سيدي، وداعًا!

فجمد الشيخ في مكانه وفتح فمه ليتكلم، وحاول أن ينهض.

وقبل أن يفعل شيئًا من ذلك، كان ماريوس قد أغلق الباب وراءه ومضى في سبيله.

وقصد مسيو جيلنورمان إلى الباب بأقصى سرعةِ شيخٍ في التسعين من عمره وفتحه، وصاح: النجدة! النجدة!

ولمّا خَفَّتْ[2] إليه ابنته قال لها بصوت متحشرج[3]:

- أسرعي في أثره. أمسكي به. إنني أهنته، فجنّ جنونه، ومن المؤكد أنه لن يعود بعد هذه المرة.

وأطلّ من النافذة، وجعل يلوّح بيديه المرتجفتين ويصيح:

- ماريوس. ماريوس. ماريوس.

ولكن الفتى كان قد غاب عن الأبصار.

* * *

(1) امتقع: تغيّر لونه، اصفرّ.

(2) خفّت: أسرعت.

(3) متحشرج: فيه غرغرة، وتردّد نفس.

الفصل الخامس

بــأس

هبط جان فالجان إلى حديقة المنزل، وراح ينتقل بين أشجارها، وهو مستغرق في التفكير.

كان الحادث الذي وقع له أخيرًا مع تيناردييه قد أزعجه، وأزعجه أن يمرّ جافير بحياته مرة أخرى، وعلى الرغم من أنه كان واثقًا من أن جافير لم يلمحه في بيت جوندريت المزعوم، فإنه لم يشعر بالطمأنينة، واشتد قلقه حين أحس بأن الجو السياسي أصبح مشحونًا بالكهرباء، وسمع في الطرقات وفي كل مكان ذهب إليه همسًا عن ثورة تدبَّر لإسقاط الحكومة وإعلان الجمهورية.

ولهذا كله، قرر أن يبرح فرنسا إلى إنجلترا، وطلب إلى كوزيت أن تستعد لهذه الرحلة.

بيد أنه كان مهمومًا دائم التفكير في العقبات[4] التي تحول دون[5] حصوله على جواز للسفر.

وتعب من السير بين الأشجار، وهمّ بالجلوس على المقعد الحجري. وعندئذ وقع بَصرُه على هذه الكلمات: (رقم 16 شارع لافيراري) محفورة على المقعد

(4) العقبات: الصعوبات.

(5) تحول دون.

بخط يختلف عن خط كوزيت.

قطّب حاجبيه، وزاد قلقه.

هذه الكلمات لم تكن هناك في اليوم السابق، وإذًا فلا بد أنها حفرت على المقعد الحجري أثناء الليل، وذلك دليل على أن شخصًا أو أشخاصًا اجتازوا سور الحديقة في ظلام الليل.

ثم هذه الكلمات، ما معناها؟!

أما ماريوس فإنه خرج من بيت جده في حالة يُرثي لها[1]. ذهب إلى ذلك البيت بأمل ضعيف وانصرف منه بيأس عظيم، وقضى النهار كله هائمًا[2] على وجهه في انتظار الموعد المتفق عليه مع كوزيت.

ووصل إلى سمعه، وهو يسير على غير هدى، ضجيج عظيم منبعث من أنحاء المدينة، وحمل النسيم إلى أذنيه صباح الغوغاء[3] والطلقات النارية، فسأل نفسه:

ما معنى هذا؟. هل ثمة معركة؟

وصادفه في الطريق صديقه كورفيراك، الذي يشاطره[4] غرفته، وكان يعدو ويلهث، فسأله: إلى أين أنت ذاهب؟

(1) حالة يُرثى لها: أي حالة بائسة.
(2) هائمًا: تائهًا.
(3) الغوغاء: الرّعاع من الناس.
(4) يشاطره: يقاسمه.

فأجابه كورفيراك على شفتيه ابتسامة ذات مغزى:

– أنا ذهب لإسقاط الحكومة. هذا وقت النضال في سبيل الحرية والإخاء والمساواة. اتضنّ بدمك على هذه المبادئ الثلاثة التي يجب أن يتألف منها الدستور الإنساني؟

فصاح ماريوس وقد لمعت عيناه:

– على مذبح هذا الدستور جادَ[1] أبي بدمه، فحدّثني إلى أين أنت ذاهب؟

– إلى المناريس في شارع سانّ أنطوان.

ومضى كورفيراك في سبيله.

وشعر ماريوس بالقلق وعدم الاستقرار. ووَدّ لو يغمض عينيه فيرى النهار قد انصرم[2] والليل قد أقبل[3]، فيخفّ إلى مقابلة كوزيت وينعي[4] إليها أمله في الحياة والسعادة في الحب، ويودعها الوداع الأخير.

ولكن شاءت الأقدار ألا ينعم بهذه السعادة المريرة، سعادة توديعها، وضمها إلى صدره للمرة الأخيرة. فإنه لما ذهب إلى بيت كوزيت بعد ساعات طويلة مرّت كأنها دهر، رأى الباب مفتوحًا، والمنزل يسبح في الظلام الدامس[5]، ولا أثر فيه أو في الحديقة لإنسان.

---

(1) جاد: أعطى بسخاء.
(2) انصرم: انتهى، انقضى.
(3) أقبل: أتى.
(4) ينعى: يعلن خبر موت.
(5) الدامس: الشديد.

هتف من قلب يتمزق حزنًا وبأسًا: كوزيت، كوزيت.

ولكنه لم يسمع جوابًا.

وبعد دقائق، كان يعدو كالمعتوه[1] في الطريق إلى شارع سان انطوان حيث أقام الثائرون المتاريس، وتأهبوا لمقاومة رجال الحرس الوطني.

* * *

(1) المعتوه: المجنون.

الفصل السادس

الرسالة

أما ما حدث، فهو أنّ جان فالجان ما كاد يقرأ ذلك العنوان على المقعد الحجري في حديقة المنزل حتى ملكته الوساوس[1] والهواجس[2]، وشعر شعورًا غامضًا بأنه لم يعد في مأمن.

وراح يقلّب وجوه الرأي، وانتهى من تفكيره إلى وجوب الانتقال من ذلك المنزل في الحال.

وما إن اختمرت لديه هذه الفكرة حتى انصرف من المنزل وعاد إليه بعد ساعة، وقال لكوزيت إن لديه من الأسباب ما يحتّم انتقالهما في الحال إلى المنزل رقم 7 بشارع «لوم آرميه».

وبهتت كوزيت وفكرت في موعدها مع ماريوس، وحاولت أن تُثنى[3] جان فالجان عن عزمه[4]، أو ترجئ الانتقال إلى اليوم التالي على الأقل.

ولأول مرة في تاريخ سعادتهما المزدوجة، تعارضت إرادة كوزيت مع إرادة

(1) الوساوس: ما يخطر بالباب من همّ وشرّ.

(2) الهواجس: الهموم.

(3) يحتّم: يوجب، يفرض.

(4) تثنيه عن عزمه: تغيّر قراره.

جان فالجان، ولم يَسَعِ الفتاة في النهاية إلى الإذعان[1].

واجتمع الاثنان في المساء حول مائدة الطعام، فلم تأكل كوزيت إلا القليل واعتذرت بصداع، وأنطلقت إلى غرفتها، وبقي جان فالجان وحيدًا.

كان مطمئنًا، ناعم البال[2]، فقد زالت مخاوفة وشكوكه، ولم يزعجه «صداع» كوزيت. وأدرك أنّها غضبة سوف تهدأ قبل بزوغ شمس اليوم التالي.

وبينما هو يسير في إحدى الغرف متفقدًا[3]، إذا بمينيه تستقران على شيء غريب.

قرأ بوضوح وجلاء هذه الكلمات منعكسة على مرآة في الجدار: «مسيو ماريوس بونمِرسي. بمنزل مسيو كورفيوراك، رقم 16 شارع لافيراري.

«يؤسفني أن أنهي إليك نبأ إصرار أبي على الرحيل من البيت في الحال، وسنكون الليلة بالمنزل رقم 7 بشارع «لوم آرميه»، وبعد أسبوع نرحل إلى لندن». كوزيت.

جمد جان فالجان في مكانه.

كانت هذه الكلمات منعكسة على المرآة من ورقة نشاف نسيتها. كوزيت على مائدة أمام المرآة.

واقترب جان فالجان من المرآة، وقرأ الرسالة مرة أخرى، ولم يصدّق عينيه. وتناول ورقة النشاف، وقلبها بين يديه، ثم ترنّح، وسقطت الورقة من يده، وسقط جسمه على أحد المقاعد.

---

(1) الإذعان: الخضوع.

(2) ناعم البال: هادئ الفكر.

(3) متفقدًا: مفتشًا باحثًا.

لم يخطر بباله أن كوزيت يمكن أن تغيب من حياته في أحد الأيام، إلا إذا أمكن أن يغيب النور من الدنيا.

كانت تلك هي المحنة العظمى. وهل من محنة أعظم من أن يفقد في لحظة واحدة كل ما يحُب في هذه الحياة؟

ووجد جان فالجان نفسه بباب المنزل دون أن يشعر.

كان عاري الرأس، مشعَث[1] الشعر، شاحب اللون، وفي عينيه نظرة ذاهلة شاردة.

وجلس، دون أن يشعر، على مقعد خشبي بجانب الباب.

وكان الظلام حالكًا، والشارع مقفرًا إلا من بعض السابلة وهم يهرولون[2] إلى بيوتهم، وطلقات البنادق تدوّي من بعيد، ويحمل النسيم دَويَّها إلى آذانهم.

ولكن جان فالجان لم يَرَ ولم يسمع شيئًا، وانقضت ساعة أو بعض ساعة، وهو قابع في مكانه [3] كتمثال من رُخام لا يتنفس ولا يتحرك.

واشتد دوي الرصاص فجأة، فرفع جان فالجان رأسه، ونظر حوله كأنه يبحث عن مصدر الدويّ، وعندئذ وقع بصره على غلام من غُلمان الأزقّة وهو يروح ويجئ أمام المنزل، ويُنعم النظر[4] ببابه كأنه يبحث عن شيء.

فخرج جان فالجان عن ذهوله، وسأل الغلام في رفق: ماذا بك يا بني؟

فأجاب الغلام: ليس بي من شيء. هل أنت من أهل هذا الشارع؟

---

(1) مشعَث: مبلّد.
(2) يهرولون: يسرعون في مشيتهم.
(3) قابع في مكانه: ملازمٌ له.
(4) يُنعم النظر: يحدّق.

- نعم، لماذا؟

- هل تعرف أين يوجد المنزل رقم 7؟

- وما شأنك والمنزل رقم 7؟

فهمّ الغلام بالكلام، ثم تردد وصمت.

وبدا لجان فالجان خاطر فسأل: هل جئت بالرسالة التي أنتظرها؟

- التي ننتظرها أنت؟ إن الرسالة لا مرأة.

- إنها للآنسة كوزيت. أليس كذلك؟

- كوزيت.؟ نعم. أظنّ أن هذا اسمها.

فقال جان فالجان: إذًا فاعطني الرسالة.

- ما دمت تعرف بأمر هذه الرسالة، فيجب أن تعلم كذلك أنني قادم بها من المتاريس.

- طبعًا، أعلم ذلك.

فدسّ الغلام يده في جيبه، وأخرج ورقة مطوية دفع بها إلى جان فالجان وهو يقول:

- يخيل إلى أنك رجل أمين، وأنك ستوصل الرسالة إلى صاحبتها.

وتركه ومضى.

ودخل جان فالجان المنزل، وبسط الورقة بين أصابعه، ولم ير من محتوياتها غير هذه العبارة:

«.... إني أموت... وعندما تقرأين هذه الرسالة تكون روحي بمقربة منك».

قرأ هذه العبارة، واستولى عليه ذهول مخيف. وكأنما هَدَّتْهُ الانفعالات الهائلة التي عصفت في أعماقه.

نظر إلى رسالته ماريوس بشيء من الارتياح، وكأنه يرى فيها مصرع[1] هذا الإنسان البغيض، وأحس بأن حملاً ثقيلاً قد ارتفع فجأت عن صدره.

نعم، قد زال غريمه[2]، واتصلت سعادة مستقبله بسعادة ماضيه. ولن يقف بينه وبين كوزيت منافس بعد الآن.

ليس عليه إلا أن يطوي الورقة، ويخفيها في جيبه، فلا تعلم كوزيت إلى الأبد بما صار إليه أمر ذلك الشاب.

بمثل هذا كان يتحدث إلى نفسه، وهو مطرقٌ رأسَه، وقلبه مفعم بالأسى[3].

وبعد ساعة شوهد وهو يغادر المنزل في ثوب جندي من جنود الحرس الوطني جاءه به البوّاب.

رابطَ الثوّار في شارع سان أنطوان. وأقاموا فيه متاريس عظيمة من الأخشاب والأحجار وأكياس الرمل، واتخذوا من إحدى الحانات مركزًا للقيادة، وتأهّبوا لمقابلة جنود الحرس الوطني.

وقد وصل ماريوس في الوقت المناسب، حين كان الثوار ينظّمون صفوفهم، ويضعون خطط الهجوم والدفاع.

---

(1) مصرع: موت.

(2) غريمه: خصمه.

(3) مفعم بالأسى: مليء بالحزن.

ولم يكن جنود الحكومة قد وصلوا بعد لإجلاء الثوار عن معقلهم[1]، فلم يجد ماريوس صعوبة في الوصول إلى المتاريس، والانضمام إلى صديقه كورفيراك.

ولفت نظره وهو يسير بين أكياس الرمل رجل طويل القامة متين البناء، يشتغل بنشاط في إقامة الحواجز، وخُيِّل إليه أنه يعرف هذا الرجل، ثم أسعفته ذاكرته فأمسك بساعد كورفيراك، وسأله: هل تعرف هذا الرجل.؟

وأشار إليه، فأجاب كورفيراك: كلا!

- إنه جاسوس. إنه من رجال الشرطة.

- هل أنت واثق؟

- إنني عرفته منذ بضعة أيام.

فأسرع كورفيراك إلى صديقه «أنجولوراس» الذي أشرف على إقامة المتاريس، وتولّى الدفاع عنها، ولعب دورًا خطيرًا في تلك الثورة الدامية، فهمس في أذنه كلامًا. فدعا أنجولراس ثلاثة من رجاله الأشداء، وقصد بهم إلى حيث كان الرجل الذي أوما إليه ماريوس، وسأله:من أنت يا هذا؟

ولا شك في أن الرجل لم يكن يتوقع هذا السؤال لأنه رفع رأسه بحدة وحملق في عيني أنجولوراس وعلى شفتيه ابتسامة سخرية واحتقار ثم قال: لقد عرفت ما يدور بخَلَدِك.

- هل أنت جاسوس؟

- إنني من رجال الحكومة.

(1) معقلهم: المكان الذي يتحضنون فيه.

- واسمك.

- جافير.

فاشار انجولراس إلى أعوانه فانقضوا على جافير وطرحوه أرضًا وشدّوا وثاقه[1]. ثم فتشوه، ووجدوا في جيوبه بطاقة باسمه، وبعض النقود، ورسالة بخط مدير الشرطة تتضمن هذه العبارات:

«على المفتش جافير بعد الفراغ من مهمته السياسية أن يراقب ضفة «السين» اليمنى بالقرب من قنطرة «بينا» حيث يلجأ المجرم «تيناردييه» الذي تمكن من الفرار أثناء نقله إلى السجن».

وأمر أنجولراس بنقل المفتش جافير إلى الحانة.

* * *

(1) وثاقه: رباطه.

الفصل السابع

المنقذ

كانت المعركة التي وقعت بين الثوار ورجال الحرس الوطني في شارع سان نطوان، والشوارع المحيطة به من المجازر الدموية الخالدة في تاريخ الثورة الثانية، ونحن لا يهمنا من أمر هذه المعركة إلا ما يتصل بأبطال هذه القصة. فنقول إن جنود الحرس استطاعوا بعد معركة عنيفة شغلتهم الليل كله، واستخدموا فيها السيوف والبنادق والمدافع، أن يُبيدوا[1] الثوار، ويهدموا حصونهم ومتاريسهم. فلما بزغت الشمس، لم يكن قد بقي على قيد الحياة من زعماء الثورة غير تسعة أشخاص، اعتصموا بالحانة[2] ونشطوا للدفاع عنها.

ثم ضيّق الجنود الحصار على الحانة وتأهبوا لنسفها. فجمع أنجولراس أعوانه لاستطلاع رأيهم، فإما الجلاء[3]، وإما الدفاع إلى النهاية، والموت تحت أنقاض[4] الحانة.

---

(1) أن يُبيدوا: أن يُفنوا.

(2) اعتصموا بالحانة: لجأوا إليها.

(3) الجلاء: الانسحاب، المغادرة.

(4) الأنقاض: بقايا البناء المنهدم.

وانتهى الرأي إلى أن الجلاء أولى بهم، وأجدى[1] على قضية الثورة، وتم الاتفاق على أن تكون الأسبقية في الجلاء لأصحاب العائلات، على أن يبقى الآخرون لمناوشة[2] الجنود، ومنعهم من الهجوم.

وكان بينهم خمسة من أرباب العائلات ولديهم أربعة ثياب رسمية غنموها[3] من رجال الحرس الوطني الذين وقعوا في أسرهم، وكانت هذه الثياب هي عُدّتهم للفرار، والخروج من نطاق الجنود. فصار من الضروري أن يبقى مع المدافعين عن الحانة واحدٌ من أرباب العائلات.

والبقاء في الحانة معناه الهلاك. فأي الخمسة يجب أن يبقى؟

صاح كل من الرجال الخمسة: أنا أبقى.

وصاحوا جميعًا: ليحيّ الموت.

قال أنجولراس: أيها الإخوان، إن الجمهورية ليست غنية بالرجال، والتضحية، بلا سبب، جريمة، ومتى كانت للإنسان أسرة يعولها[4] فليس من حقه أن يضحّي بنفسه. أتريدون أن تموتوا؟! هذا حسن. موتوا إذًا، وليتضوّر[5] أطفالكم جوعًا غدًا.

إن المسألة مسألة أمهات وزوجات وبنات. فالرجل إذا جاع استجدي[6]؛ أما

---

(1) أجدى: أنفع.

(2) مناوشة: مقاتلة العدو دون الاقتراب منه.

(3) غنموها: ربحوها من عدوهم.

(4) يعولها: يُنفق عليها.

(5) يتضوّر جوعًا: يتلوّى من الجوع.

(6) استجدى: طلب.

المرأة فإنها إذا جاعت باعت[1].

فصمت الرجال الخمسة وأطرقوا رؤوسهم.

قال أنجولراس محدثًا ماريوس:

اختر من هؤلاء الأبطال واحدًا يبقى معنا، ولينصرِف الآخرون.

فوقف ماريوس حائرًا.

وفجأة، هبط من السماء ثوب من ثياب الحرس الوطني، وبذلك نجا الرجل الخامس.

وكان جان فالجان قد تمكن من اختراق الحصار والوصول إلي المتاريس بفضل الثوب، وقد قضى الليل كله في جحيم المعركة، ولكنه لم يشترك في القتال، وقنع بنقل القتلى، ومساعدة الجرحى.

سأل انجولراس: مَنْ هو هذا الرجل؟

وهمس ماريوس: إنني أعرفه.

وكان في ذلك ما يكفي، فالتفت أنجولراس إلى جان فالجان، وقال:

– إنني أرحَب بك أيها المواطن.

ثم استطرد: ولكن هل تعلم أنك تبرعت بالدرع الذي يقيك شر الموت؟ فصمت جان فالجان.

وارتدى الرجال الخمسة ثياب الحرس. وصاح أنجولراس:

– والآن إلى العمل! سنطلق الرصاص من النوافذ، ونلفت أنظار الأعداء إلينا

(1) باعت: أي باعت كرامتها.

ريثما ينصرف زملاؤنا الخمسة، ثم نتراجع في أثرهم[1] الواحد بعد الآخر.

وقصد الرجال الخمسة إلى الباب، والدموع تترقرق[2] في عيونهم.

والتفت أنجولراس إلى جافير، وكان ما يزال موثَق[3] اليدين والقدمين، وقال له:

- لا أظن أنني نسيتك.

ووضع غدّارة على إحدى الموائد وقال: يجب على آخر رجل يبقى على قيد الحياة أن يُلهب رأس هذا الجاسوس بهذه الغدارة.

فسأل سائل: أيُقتل هنا؟

فأجاب أنجولراس: كلا. إن دمه يلوّث جثث ضحايانا. فلْيقتل على سلم الحانة أو في الخارج.

وهنا اقترب جان فالجان من أنجولراس وسأله:

- هل أنت القائد هنا؟.

- نعم.

- هل تظن أنني فعلت شيئًا يستحق المكافأة؟

- لا شك في ذلك.

- إذًا فإنني أطلب مكافأتي.

(1) في أثرهم: بعدهم.
(2) تترقرق: تلمع، تتلألأ.
(3) موثق: مربوط.

- وما تطلب؟

- أريد أن ألهب رأس هذا الجاسوس بنفسي.

فرفع جافير رأسه، ورأى جان فالجان، ودهش، ولكنه غمغم: هذا هو الإنصاف[1].

ونظر أنجولراس إلى أعوانه وسأل: هل من يعترض؟

ثم تحوّل إلى جان فالجان وقال: خذه! إنه لك!

فتناول جان فالجان الغدارة.

وفي هذه اللحظة دوّى[2] في الخارج صوت بوق، أعقبه انطلاق مئات العيارات النارية. فتفرّق الثوار في سائر قاعات الحانة، وتأهبوا للدفاع.

وما كاد جان فالجان ينفرد بجافير حتى حلّ وثاق قدميه، وأمره أن ينهض، ثم أمسك بعنقه وقاده كما يُقاد الحيوان للذبح.

وكان ماريوس يطل من إحدى النوافذ، فرأى جافير وجلاّده يخرجان من الباب الخلفي الصغير، ويغيبان في الظلام.

ومر جان فالجان وأسيره بأكياس الرمل وأكوام الجثث، حتى وصلا إلى زقاق مظلم قريب من منطقة القتال، فوقف جان فالجان.

وحدق جافير بعينين تتألقان[3] في الظلام كأنهما شعلتان.

---

(1) الإنصاف: العدل.

(2) دوّى: أصدر صوتًا قويًا.

(3) تتألقان: تلمعان.

قال الشرطي: انتقم لنفسك.

قدس جان: فالجان يده في جيبه، وأخرج سكينًا.

قال جافير: أحسنت! فذلك أشفي لغِلّك[1].

وقطع جان فالجان وثاق جافير. وقال له في هدوء: اذهب فأنت حر.

فجمد جافير في مكانه، وحبس أنفاسه دهشة وذهولاً.

واستطرد جان فالجان: لا أعتقد أنني سأخرج من هذا المكان على قيد الحياة.ولكن إذا حدث وخرجت، فإنك تستطيع أن تجدني في المنزل رقم 7 شارع «لوم آرميه».

فزمجر جافير، وهو يعضّ على نواجذه[2]:

- كن على حذر!

- اذهب.

- قلت إنك تقيم بشارع «لوم آرميه»؟

- نعم، بالمنزل رقم 7.

فردد جافير بصوت خافت: رقم 7، رقم 7.

وأصلح ثوبه، وعقد ساعديه فوق صدره، ومشى مرفوع الرأس.

بَيْدَ أنه ما كاد يبتعد بضع خطوات، حتى دار على عَقِبَيه[3] وقال:

---

(1) غلّك: حقدك.

(2) نواجذ: الأضراء في مؤخرة الفم.

(3) العَقب: مؤخّرة القدم.

- إنك تزعجني. كنت أؤثر[1] أن تقتلني.

- اذهب.

فاستأنف جافير سيره ببطء، وما لبث أن توارى في الظلام.

وفي هذه الأثناء، كانت المعركة على أشدّها بين الجنود وبقايا الثوار، فقُتل أنجولراس، وكورفيراك، ولما عاد جان فالجان إلى الحانة، وجد ماريوس ممددًا على الأرض وقد أصيب برصاصة في عنقه، وفقد الرشد.

* * *

قلنا إن جان فالجان لم يشترك في القتال، وإن يكن قد استُهدف[2] مرارًا للموت. ويقول الذين أبصروه إنه لم يحوّل بصره قط عن ماريوس. فلما سقط الفتى، اختطفه جان فالجان اختطافًا، وانطلق به من الباب الخلفي للحانة في اللحظة نفسها التي كان فيها الجنود يقتحمون الباب الأمامي.

وأسرع جان فالجان الخطى في شارع كورنيت، ولكنه ما كاد يتوسط هذا الشارع، حتى سمع خطوات الجنود الذين أحاطوا بذلك الحي كله منذ بدء القتال، وشرعوا الآن في تضييق الحصار لإبادة الثائرين.

واقترب الجنود من كل صوب، فتراجع جان فالجان بضع خطوات، وأرهقه[3] حمله، فوضع جسم الفتى على الأرض، وراح يفكر بسرعة للخلاص من مأزقه[4].

(1) أؤثر: أفضّل.
(2) استهدف: كان هدفًا.
(3) أرهقه: أتعبه؛ الإرهاق: التعب الشديد.
(4) المأزق: الموقف الصعب، الحَرِج.

كان الموقف شديد الحَرَج، فالتقدم مستحيل، والتقهقر[1] انتحار، فماذا يصنع؟

وحانت منه التفاتة فرأى كومة من الأحجار أعدها الثوار ليعتصموا بها، وقد حجبت هذه الكومة جزءًا من فوهة سرداب للمجاري[2]، فأقبل على الأحجار، وراح يرفعها بسرعة البرق وقوة العمالقة، وقد نشطت فيه مواهب السجين الذي عَرف كل وسائل الفرار، وتذَّوق حلو المغامرات وَمرَّها.

ثم حمل جثة ماريوس، وهبط بها من الفوهة، ووجد نفسه في ظلام السراديب وأوحالها.

تريَث[3] وهو يلهث، وانتظر حتى ألفت[4] عيناه الظلام، ثم واصل السير ببطء وحذر، مسترشدًا[5] بانحدار السراديب، أملاً أن ينتهي إلى النهر حيث المجاري.

وجد نفسه وسط شبكة من السراديب والأزقة الأرضية لا أول لها ولا آخر، وليس ثمة صوت يهتدي به، أو ضوء يرشده.

وطالت رحلته، وأنهكه التعب، واستولت عليه الوساوس والأوهام.

ترى هل ضلّ[6] في هذه المدينة الأرضية، وهل يهلك جوعًا، وتنزف دماء ماريوس قبل أن يتمكن من تضميد جراحه؟

(1) التقهقر: التراجع.
(2) سرداب: ممّر تحت الأرض.
(3) تريّث: تمهّل.
(4) ألفت: تعوّدت.
(5) مسترشدًا: مهتديًا.
(6) ضلّ: ضاع.

وفجأة، لاحت له وسط الظلام الدامس حلقة من الضوء، فتنفس الصعداء، ودخل في روعه أنه أشرف على نهاية الرحلة، فوسع الخطى حتى بلغ تلك الحلقة.

فإذا هي ضوء منبعث من كوة مفتوحة في سقف السرداب.

على أنه رحب بهذا الضوء، فمدد ماريوس على الأرض، ومزق قميصه، وضمّد جراحه، ثم فتش جيوبه، فعثر على ورقة عليها هذه الكلمات: «اسمي ماريوس بونمِرسي، فأرجو نقل جثتي إلى بيت جدي مسيو جيلنورمان بالمنزل رقم 6 بشارع كالفير».

وكان ماريوس قد كتب هذه الورقة على سبيل الحيطة، حتى إذا قُتل في المتاريس نقلت جثته إلى بيت جده.

ورد جان فالجان الورقة إلى جيب صاحبها، وجلس يلتمس الراحة.

وعاد بعد قليل إلى استئناف رحلته الشاقة في تلك السراديب البغيضة.

وبعد نصف ساعة أخرى، تبلج[1] له ضوء ضئيل أخذ ينتشر كلما اقترب، ثم بدا له مخرج السرداب وسمع خرير الماء في نهر السين، فوثب قلبه بين ضلوعه.

على أنه ما كاد يقترب من مخرج السرداب، حتى ألفاه[2] مغلقًا بباب مشبَّك بالقضبان الحديدية. فأسند ماريوس إلى الجدار، وأمسك القضبان الحديدية بيديه القويتين، وهزها بعنف، ولكنها لم تتحرك، فأسقط في يده[3]، وتصبب العرق البارد على جبينه.

(1) تبلج: وضح وظهر.

(2) ألفاه: وجده.

(3) أسقط في يده: خاب أمله واحتار في أمره.

هاله[1] مجرد التفكير في العودة من حيث أتى، وانصرف ذهنه في هذا المأزق إلى كوزيت.

يا إلهي! أيمكن أن تفقدهما معًا، هو وماريوس؟

وإنه نهبة اليأس[2]، إذا به يشعر بيد توضع على كتفه. وإذا بصوت يقول في همس:

- لنقتسم الغنيمة.

وخُيِّل إلى جان فالجان أنه يحلم، فإنه لم يسمع وقع خطوات المتكلم. نظر إليه وعرفه، وأدهشته هذه المقابلة الفجائية.

كان المتكلم هو تيناردييه.

ولم ير تيناردييه وجه غريمه. لأنه كان واقفًا في الظلام، وكان جسم ماريوس يحجب[3] نصف وجهه.

قال: كيف تنوي الخروج من هنا؟

فلزم جان فالجان الصمت.

قال تيناردييه: يستحيل عليك أن تزحزح الباب من مكانه، ومع ذلك فإنه من الضروري لك أن تخرج من هذا الجحيم.

فأجاب جان فالجان: هذا صحيح.

- إذًا فلنقتسم الغنيمة!

(1) هاله: أخافه.
(2) نهبة اليأس: أي غلب عليه اليأس.
(3) يحجب: يُخفي.

- ماذا تعني؟

- إنك قتلت هذا الرجل، واستوليت على نقوده، أما أنا، قد استوليت على مفتاح هذا الباب.

واستطرد بعد قليل: إ نني لا أعرفك، ولاكن لا أشك في أنك من أهل المهنة، ومن واجبي أن أعاونك.

ففهم جان فالجان غرضه، وأدرك أن تيناردييه يحسبه لصًا وقاتلاً.

قال تيناردييه: أصغِ إلى أيها الزميل! لا بد أنك فتشت جيوب الرجل بعد أن قتلته. فأعطني الغنيمة فأفتح لك الباب. ها هو المفتاح!

وقدم مفتاحًا حديديًا ضخمًا، فتناول جان فالجان المفتاح وانبسطت أسارير وجهه. لقد أرسلت إليه العناية الإلهية ملاكًا في صورة شيطان.

ودسَّ تيناردييه يده في جيبه الواسع، وأخرج حزمة من الحبال، دفعها إلى جان فالجان وهو يقول: خذ هذا مع نصيبك من الصفقة.

- وماذا أفعل بهذا الحبل؟.

- إنك أيضًا في حاجة إلى حجر، ولكنك ستجد كثيرًا من الأحجار في الخارج.

- وماذا أفعل بالحجر؟

- يا لك من جاهل! كيف تلقي بالجثة في ماء النهر دون أن تربطها بحجر لكي تغوص؟

فمد جان فالجان يده بحركة آلية، وتناول الحبل.

قال تيناردييه: الآن دعنا نُبرم[1] الصفقة. إنني أبرزت لك المفتاح والحبل،

---

(1) نبرم: ننهي.

فأبرز لي نقودك.

بحث جان فالجان في جيوبه، ولم يجد غير جنيه واحد وبضعة فرنكات فقدمها جميعها إلى تيناردييه.

قال هذا في دهشة: لا شك أنك لم تقتل الرجل لأجل هذا المبلغ التافه.

وتقدم من جان فالجان ببساطة، وراح يفتش جيوبه. ثم بحث في جيوب ماريوس. وعثر على ثلاثين فرنكًا، فاستولى على المبلغ كله، وقال وقد تناسى نظرية الاقتسام:

- الآن تستطيع أن تذهب أيها الزميل.

وساعده على حمل ماريوس، وفتح باب السرداب.

وما إن خرج جان فالجان من السرداب، وسقط على وجهه الضوء المنبعث من أحد مصابيح الشارع، حتى فتح تيناردييه فمه، وحبس أنفاسه دهشة وعجبًا!

وترك جان فالجان وراءه تلك السراديب المخيفة، واستقبل نسيم الليل، وتنفس ملء رئتيه.

مدد ماريوس على ضفة النهر، وفرك صدغيه[1] بالماء. وإذا به يحس بالغريزة، كما يحس الحيوان في الدغل، بأن هناك عينًا ترقبه من الوراء. فنظر خلفه بسرعة، ووقع بصره على رجل طويل القامة يرتدي معطفًا طويلاً، ويمسك بيده عصا ثقيلة، وقد عقد ساعديه فوق صدره، وجعل يرقبه بإمعان.

عرفه جان فالجان، عرف فيه غريمه الأيدي جافير.

(1) الصدغ: ما بين الأذن والعين.

وهكذا سقط جان فالجان من صخرة إلى صخرة. وجاءت مقابلة جافير بعد مقابلة تيناردييه، فكانت صدمة عنيفة زلزلت أعصابه.

على أن جافير لم يعرف غريمه، فقد قضى جان فالجان ليلته في المتاريس، وقضى نهاره في السراديب. فتمزقت ثيابه، وتلوّث وجهه بالرماد والأوحال.

ولم يحرّك جافير ساعديه؛ ولكنه ضغط مقبض العصا بأصبعه.

سأل: من أنت؟

- أنا جان فالجان.

فأمسك جافير العصا بأسنانه، وألقى بيديه على جان فالجان، وأمعن النظر في وجهه وعرفه.

كاد وجهاهما أن يتلامسا. ورأى جان فالجان في عيني مفتش الشرطة نظرة مخيفة.

قال: أيها المفتش جافير، إنني في قبضة يدك. أنا أسيرك منذ الصباح. ولم أذكر لك عنواني لكي أحاول الفرار، فألق القبض علي. فقط لي رجاء واحد.

فبدا على جافير أنه لم يسمع. ولم يحوّل عينيه الثاقبتين عن وجه جان فالجان. ولكن لوحظ عليه في تلك اللحظة أن جبينه تغضّن[1]، وأنه دفع ذقنه إلى الأمام، وألقى رأسه إلى الأرض.

وبعد صمت قصير ترك كتفي جان فالجان، وأمسك العصا بيده، وسأل بصوت الحالم: ماذا تصنع هنا؟ ومن هو هذا الرجل؟

---

(1) تغضن: تجعّد.

فأجاب جان فالجان بصوت أيقظ محدّثه: لقد أردت أن أحدثك عنه، فافعل بي ما شئت، ولكن ساعدني أولاً على نقله إلى منزله. ذلك هو رجائي الأوحد.

فأخرج جافير من جيبه منديلاً غمسه في الماء، ومسح به الدم عن جبين ماريوس. وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

- لقد كان هذا الرجل بين الثوار.

- نعم. وهو جريح.

- إنه ميت.

- كلا. لم يمت بعد.

- إذًا فقد حملته من المتاريس إلى هنا.

ولا بد أنه كان مستغرقًا في تفكير عميق. فلم يلفت نظره هَولُ[1] المرحلة التي قام بها جان فالجان في سراديب المجاري، ولم يفطن[2] إلى صمت هذا الأخير وامتناعه عن الإجابة.

كذلك كان جان فالجان في شغل بالتفكير.

قال بعد قليل: إنه يقيم مع جده في شارع كالفير.

وبحث في جيب ماريوس عن القُصاصة[3] التي كتب عليها الفتى عنوانه، فعثر عليها. ولكنه عثر في هذه المرة أيضًا على الرسالة التي بعثت بها كوزيت

(1) هول: رهبة وخطر.

(2) يفطن: ينتبه.

(3) القصاصة: الورقة الصغيرة.

إلى ماريوس. وتسلمها الشاب وهو يقاتل في المتاريس.

قال جان فالجان: هوذا عنوانه.

فتناول جافير القصاصة، وحملق إليها بعينين فوسفوريتين كعيون طيور الليل.

وكان جافير قد جاء إلى تلك الناحية في إحدى مركبات الأجرة، وأمر السائق أن ينتظره، فقد يحتاج إلى مركبته في مطاردة تيناردييه.

صاح: تعال أيها الحوذي.

فاقترب الحوذي بالمركبة وصعد إليها الرجلان، وظل جان فالجان ممسكًا بماريوس من ساعده.

وانطلقت المركبة في الظلام، وفي جوفها أبطال المأساة. أحدهم كالجثة، والثاني كالشبح، وجافير تمثال من رخام.

ووقفت المركبة بباب المنزل رقم 6 بشارع كالفير. ووثب منها جافير وطرق الباب بعنف.

وفُتح الباب بعد لحظة، وأطل البواب.

فسأله جافير بخشونة رجال الشرطة: هل يقيم هنا رجل يُدعى جيلتورمان؟

- نعم. هذا منزله. فماذا تريد؟!

- لقد جئنا بابنه.

فصاح البواب في دهشة: ابنه؟!

- نعم. وهو ميت.

وعجز البواب عن فهم كلمة واحدة.... فاستطرد جافير:

- إنه كان مع الثوار في المتاريس. اذهب وأيقظ أباه.

ففتح البواب وقام بإيقاظ الخادم «باسك». وقنع «باسك» بإيقاظ الآنسة جيلتورمان، ولم يجرؤ أحد على إيقاظ الشيخ.

وحُمل ماريوس إلى غرفة في الطابق الأول، وانطلق «باسك» في طلب الطبيب.

وظل جان فالجان واقفًا ينظر إلى الجثة كمن هو في حلم، إلى أن شعر بيد جافير تمس كتفه، ففهم وانصرف. وسار جافير في أثره وصعدا إلى المركبة.

قال جان فالجان: أيها المفتش جافير، إنّ لي رجاءً آخر: إسمح لي بقضاء بضع دقائق في بيتي، ولك أن تفعل بي بعد ذلك ما تريد.

فصمت جافير لحظة، ثم صاح بالسائق: إلى المنزل رقم 7 شارع لوم آرميه.

ولم يَدُرّ بينهما حديث أثناء الطريق. ففيم كان جان فالجان يفكّر؟ وماذا كان يبغى[1]؟

كان يريد أن يُنذر كوزيت برحيله، وأن يُطلعها على مكان ماريوس، ويرتب شؤونه للمرة الأخيرة.

ووصلت المركبة إلى شارع لوم آرميه ووقفت في أوله لضيقه فنقد[2] جافير السائق أجره، ورافق جان فالجان إلى باب البيت.

---

(1) يبغي: يريد.

(2) نقد: دفع النقود.

وكان الشارع مُقفرًا من المارة كالمعتاد. ففتح جان فالجان الباب ونظر إلى جافير.

قال الشرطي: اذهب! وسأنتظرك هنا.

فدهش جان فالجان، لم تكن عادة جافير.

ولكنه دخل المنزل متمهّلاً، وصعد السلم ببطء.

وكان للسلّم نوافذ يستمد منها الضوء. فحانت من جان فالجان نظرة غير مقصودة إلى إحدى هذه النوافذ، وأدهشه ألا يرى جافير بالباب حيث تركه.

أما جافير فإنه انتظر حتى توارى جان فالجان داخل المنزل ثم سار في الشارع ببطء، وقد سقط رأسه على صدره لأول مرة في حياته كذلك، كانت يداه معقودتين خلف ظهره.

قبل ذلك اليوم، لم يكن جافير يعرف من الحركتين اللتين امتاز بهما نابليون، غير الحركة التي تعبّر عن السطوة وقوة الإرادة والجبروت وهي رفع الرأس، وعقد الساعدين فوق الصدر.

أما الحركة التي تنمّ عن الشك والقلق، وهي عقد اليدين خلف الظهر، فإن جافير لم يعرفها في حياته إلى أن كانت تلك الليلة.

كان موقفه لا يُطاق.

نعم. كان مما لا يطاق أن يدين بحياته لأحد المجرمين وأن يقبل هذا الدين، ثم يقوم على سداده[1].

---

(1) سداد الدين: إيفاؤه.

كان مما لا يطاق أن يضع نفسه في مستوى واحد مع سجين هارب من الليمان، ويقابل معروف السجين بمعروف مثله.

شيء واحد أدهشه، هو أن يعفو عنه جان فالجان. وشيء واحد رَوَّعه[1]، هو أن يعفو عن جان فالجان.

على أنه لم يغفل عن حقيقة ثابتة هي أنه ارتكب مخالفة خطيرة للقانون. فقد أغمض عينيه عن مجرد عائد وسجين هارب، وانتزع من قبضة القانون رجلاً من حق القانون.

فعل ذلك، ولم يدرِ كيف فعله، وشعر بأنه أخلّ بواجبه[2] فلم يبق ثمة معنى لحياته.

فهل ذلك مما يطاق؟ كلا...

كان موقفه دقيقًا، ولا مخرج منه إلا بإحدى وسيلتين: إما القبض على جان فالجان وإيداعه[3] السجن، وإما...

وكان السكون شاملاً، والظلام دامسًا، والشوارع مقفرة من المارة. وهذا الرجل الذي يعتبر الواجب والقانون جزءًا من كيانه. بل كل حياته، يسير على مهل فوق جسر «بيننا».

ووقف فوق الجسر، وأطل من فوق حاجزه، ورأى ماء «السين» ينحدر في

(1) روّعه: أخافه.
(2) أخل بواجبه: أساء القيام بواجبه.
(3) إيداعه: وضعه.

تلك البقعة بقوة، تاركًا تلافيف[1] سريعة لا تلبث أن تتلاشى.

وظل جافير في مكانه بعض الوقت، وعيناه لا تتحولان عن الماء المظلم.

ثم خلع قبعته، ووضعها على حافة الجسر.

وبعد لحظة، شوهد شبح طويل ينهض فوق الحاجز وينحني نحو النهر، ثم يهوي نحو الماء فيبتلعه الماء والظلام.

* * *

(1) تلافيف: الملتوي بعضه على بعض.

الفصل الثامن

فجر السعادة

أقبل الطبيب على عجل، وفحص ماريوس فوجد أن الرصاصة أصابت العنق وكسرت عظم الترقوة[1]. أما سائر أعضاء الجسم فلم تُصَبْ بأذًى. ولكن ما سأل من دم الشاب بعد إغمائه أضعفه كثيرًا.

وكان الطبيب ما يزال يغسل الجرح حين فتح باب الغرفة فجأة، ودخل مسيو جيلنورمان، وهو في قميص النوم.

وكانت الضجة التي أحدثها الخدم قد أيقظت الشيخ، فنهض من فراشه، وقصد إلى الغرفة التي خُيِّل إليه أنها مصدر الاضطراب.

وتقدم خطوة إلى الأمام، ثم جمد في مكانه، ونظر إلى الفراش، وإلى الطبيب، وإلى ابنته. ووَضع يده فوق فمه كأنما ليمنع صرخة أوشكت أن تُفلت منه.

هتف فجأة بصوة ثاقب: ماريوس!

فقال الخادم باسك: لقد جئ به في التوّ واللحظة يا سيدي. والظاهر أنه ذهب على المتاريس و..

فصاح الشيخ: إنه مات. مات. إنه أورد نفسه موارد التهلكة انتقامًا مني.

(1) الترقوة: عظمة بين العنق والكتف.

ويل للتعس. ويل لشارب الدماء، ويل لي!

واقترب من الفراش، ونظر إلى الشاب، وتناول ساعده، وراح يهزه، ويغمغم[1] في الوقت نفسه بصوت لا يكاد يسمع: أيها الوغد، أيها القاسي القلب.

كان كمحتضر يعتب على جثة.

ثم سأل الكلام من فمه بعد ذلك بقوة، وصاح:

- ذلك لا يهمني أيها الشقي، فسأموت مثلك. وما دمت لم تشفق على نفسك، فإنني لن أحزن لموتك. هل سمعت أيها القائل؟!

وفي هذه اللحظة تحركت أهداب[2] ماريوس، وفتح عينيه ببطء، وألقى حوله نظرة تحجبها غشاوة.

فصاح الشيخ: ماريوس! يا ولدي العزيز! يا ابني المحبوب! إنك فتحت عينيك. إنك تنظر إلي. إنك على قيد الحياة. شكرًا لله.

وأغمي عليه.

وقضى ماريوس بضعة أسابيع بين الموت والحياة، ولم يكفّ[3] في هذيانه عن ترديد اسم كوزيت، ولم يبرح الشيخ بدوره فراش حفيده، وهو كحفيده يتردد بين الموت والحياة.

وفي كل يوم، بل ومرتين كل يوم، كان شيخ أشيب الشعر نظيف الهندام[4]

---

(1) يغمغم: يقول كلامًا غير مفهوم.

(2) أهداب: أجفان.

(3) لم يكفّ: لم يتوقّف.

(4) الهندام: المظهر، الهيئة.

يتردد إلى المنزل، ويستفسر الرجل عن حال الجريح، ويترك عنده ضمادات وعقاقير للجروح.

وأخيرًا، وبعد أربعة أشهر من تلك الليلة المشهودة التي حمّلت فيها جثة ماريوس إلى بيت جده، أعلن الطبيب أن الجريح تجاوز الخطر. وعندئذ فقط، عاد الشيخ جيلنورمان إلى غرفته.

وبزوال الحمّى، كف ماريوس عن ترديد اسم كوزيت، ولكنه لم يكفّ عن التفكير فيها.

وفي أحد الأيام، انحنى جيلنورمان فوق حفيده، وقال بلطف: أَصغِ إلى يا صغيري، لو كنتُ في مكانك لما ترددت في تناول لحم الضأن بدل السمك. فالترحيب بأكل السمك دليل على النقاهة[1]. ولكن أكل الضأن يساعد المريض على الوقوف على قدميه.

فاعتدل ماريوس في فراشه، ونظر إلى وجه جده بإمعان، ثم قال بلهجة جدية.

– ذلك يحملني على أن أقول لك شيئًا.

– ما هو؟

– هو أنني أريد أن أتزوج.

فانفجر الشيخ ضاحكًا وصاح: اتفقنا، ستقترن بصاحبتك الصغيرة.

فلم يصدق ماريوس أذنيه، ومضى الشيخ يقول: نعم، ستقترن بهذه الصغيرة البديعة. إنها تستفسر عنك كل يوم في صورة رجل كهل. وقد حصلت على

(1) النقاهة: الشفاء من المرض على شيء من الضعف.

جميع المعلومات الضرورية، فالفتاة تُقيم في شارع لو آرميه أليس كذلك؟! وأنت تُريدها زوجة لك. فليكن ذلك.

أصغِ إلي. إنني لاحظت أنك لا تُحبّني. فقلت لنفسي: «ماذا يجعل هذا الحيوان يُحبني؟» ثم فكرت في كوزيت، وقلت إذا إقترنت بها، فربّما أحبني وسأجيئك بها. وعليك أن تتجشم[1] عناء الزواج.

فأطبق ماريوس بساعديه على عنق جده وغمغم الكلمة التي يتوقُ[2] الشيخ دائمًا إلى سَماعها: يا أبي المحبوب.

- أتحبني إذًا؟ لقد دعوتني أباك.

فأجاب: لقد شُفيت الآن يا أبي. وأظن أنني أستطيع أن أراها.

- ستراها غدًا..

فهتف محتجًا: أبي!

- ماذا؟

- ألا يمكن أن أراها اليوم؟.

- بل ستراها اليوم. إنك دعوتني أباك ثلاث مرات وهذا يكفي.

وتلاقي العاشقان... ولن نحاول وصف لقائهما، فهناك أشياء لا يمكن تصويرها، والشمس إحدى هذه الأشياء.

وكان جيلنورمان وابنته وخادمه وخادمته في غرفة ماريوس، حين أقبلت

(1) تجشم: تكلّف، تحمّل.

(2) يتوق: يتشوّق.

كوزيت وفي إثرها كهلٌ حسن الهندام تتلاعب على شفتيه ابتسامة شاردة مؤلمة.

كان هذا الكهل هو مسيو فوشليفان، كان جان فالجان.

كان يرتدي ثوبًا جديدًا، ورباطُ عنقه أبيض، ويحمل تحت إبطه شيئًا ملفوفًا في ورقة.

وقد وقف مسيو فوشليفان بباب الغرفة كأنه يخشى الدخول. ورمقته الآنسة جيلنورمان بنظرة فاحصة، ثم همست في أذن وصيفتها نيكوليت:

- إنه يحمل تحت إبطه كتابًا.

فأجابت نيكوليت: لعله من العلماء.

أما جايلنورمان فإنه أحنى قامته باحترام وقال:

- هل لي الشرف بالتحدث إلى مسيو فوشليفان؟

فاحنى جان فالجان قامته بدوره ولم يُجب.

قال الشيخ:

- إن لي كل الشرف أن أطلب يد ابنتك لحفيدي البارون ماريوس بونمِرسي.

فأحنى جان فالجان قامته مرة أخرى.

وتعانق العاشقان.

وتأملت الآنسة جيلنورمان هذه السعادة التي انبثقت[1] في الغرفة، لا كما تنظر البومة إلى حمامتين، وإنما كما تنظر عانس في السابعة والخمسين من عمرها،

(1) انبثقت: ظهرت فجأة.

إلى شيء اقفرت[1] منه حياتها المجدبة[2]. وهو الحب.... بمعناه الصحيح.

وتحوّل جيلنورمان إلى كوزيت، وقال:

- هذه الابنة بديعة حقًا، إنها فتاة صغيرة، ولكنها سيدة عظيمة. ومما يؤسف له أنها بارونة فقط، وليست مركيزة. فما أبدع أهدابها الطويلة!

ثم استطرد بحزن: من سوء الحظ أنني أستثمر كل ثروتي في أحد المصارف، ولا يجوز لي أن أستردها قبل انقضاء عشرين عامًا فإذا متّ قبل ذلك...

وكف عن الكلام، وأحزنه هذا الخاطر.

وعندئذ قال قائل: إن الآنسة كوزيت فوشليفان تملك ستمائة ألف فرنك.

كان المتكلم هو جان فالجان، الذي قبع منذ دخوله في أحد الأركان[3] فلم يشعر به أحد.

فردد جيلنورمان في دهشة: ستمائة ألف فرنك!

فأجاب جان فالجان: أقل من ذلك بضعة آلاف.

وتناول الحزمة التي كانت تحت إبطه، وفتحها، فإذا بها تحوي على رزمة من الأوراق المالية.

وأحصيت تلك الأوراق، فإذا قيمتها 584 ألف فرنك.

فغمغمت الآنسة جيلنورمان: ما أثمن هذا الكتاب!

---

(1) أقفرت: خلَت.

(2) المجدبة: اليابسة، الخالية.

(3) الأركان: الزوايا.

ولا بد أن يكون القارئ قد عرف مصدر هذه الثروة، وأدرك سر الرحلات الغامضة التي كان يقوم بها جان فالجان في بعض الأحيان.

ذلك أنه كان قد استطاع في الوقت المناسب أن يسحب الثروة التي أودعها بنك لاقيت باسم الأب مادلين، ثم وضع هذه الثروة مع شمعداني الأسقف في صندوق صغير، وأخفى الصندوق في دغل بالقرب من قرية «بولانجيه».

ومنذ بضعة أيام، سافر إلى بولانجية وعاد بالكنز كله.

وبدأ الاستعداد للزفاف. فمهد جان فالجان كل شيء، وذلل كل صعب واستطاع بفضل اضطلاعه السابق بوظيفة العمدة أن يجعل هذا الزواج ممكنا. وقد كان من المستحيل أن يُصرح بنشأة كوزيت، فزعم أنها ليست أبنته. ولكنها ابنة شقيقه فوشليقان الآخر، الذي كان يشتغل يستانيا في حديقة سان أنطوان. ولم يكن في استطاعة راهبات الدير بطبيعة الحال أن يفرّقن بين الأخوين. فقرَّرنَ أن كوزيت هي ابنة فوشليقان البستاني الذي توفي منذ بضعة أعوام.

وهكذا علمت كوزيت أنها ليست ابنه الرجل الذي طالما دعته أباها. ولو علمت ذلك في وقت آخر لحزنت أشد الحزن. ولكنها كانت وقتئذ في غمرة [1] السعادة، فمرت هذه السحابة[2] دون أن تترك في نفسها أثرًا. وظلت بالرغم من ذلك تدعو جان فالجان أباها.

وتقرر أن يقيم العروسان في بيت جيلنورمان. وأصر الشيخ على النزول لها عن غرفته. وكانت أثمن غرفة في المنزل.

---

(1) غمرة: شدّة.

(2) السحابة: الغيمة.

ولم تشغل السعادة ماريوس عن العمل لإرضاء ضميره وإشباع فضوله[1].

كان يريد أن يعرف الرجل الباسل الذي خاطر بحياته، وأنقذه من المتاريس، وحمله إلى بيت جده، وتركه مضي دون أن يذكر اسمه أو ينتظر كلمه شكر.

بيد أن جميع الجهود التي بذلها لمعرفة هذا الباسل المجهول ذهبت أداج الرياح. فقنع بأن يحمل له في قراره نفسه أسمي معاني الشكر وعرفان الجميل.

ولما فاض قلبه بالسعادة، عاودته ذكرى منقذه الكريم. فاهتم بالبحث عنه بمعونة الخادم «باسك» واهتدي اخيرًا إلى الحوذي الذي نقله في مركبته. وذكر الحوذي كيف أن أحد رجال الشرطة استأجر المركبة منذ الساعة الثالثة حتى منتصف الليل. وكيف أنه قضي أكثر هذا الوقت في انتظار الشرطي على ضفة نهر السين أمام فوهة المجاري. وكيف رأي باب الفوهة يفتح ويخرج منه رجل حاملاً جثة إنسان ميت، ثم كيف ألقي الشرطة القبض على الرجل ونقل الجثة إلى شارع «كالفير» وكيف غادر الرجل والشرطي المركبة في شارع لوم آرميه وغابا عن بصره.

وسمع ماريوس هذه القصة، فراجع رأيه واستغرق في تفكيره.

إذا كان منقذه قد خرج به من فوهة السرداب فمعني ذلك أنه» اجتاز باريس كلها من الشرق إلى الغرب، في ظلام السراديب، والجثة على كتفه. فما السر في هذا الإخلاص العجيب؟!

وذات مساء سرد ماريوس قصة هذا المنقذ على مسمع من كوزيت وجان فالجان. وختم حديثة بأن صاح:

(1) الفضول: رغبة الإنسان في معرفة ما لا يعنيه.

- لقد كان نبلاً من الرجل أن يجازف بحياته في المتاريس، وأن يتجشم عناء حملي على كتفه والسير بي في السراديب الأرضية المظلمة بضعة أميال. فلماذا فعل ذلك؟ لا بد أنه قال لنفسه حينما رآني «ربما ما يزال في هذا الشاب رَمَقٌ[1]من الحياة فلا جازف[2] بحياتي، فربما أنقذت حياته».

وجازف بحياته لا مرة واحدة بل عشرين مرة، فهل ثَمَّة أنبل من ذلك؟!

اواء! لو كنت أملك ثروة كوزيت!

وكفّ عن الكلام. فقال جان فالجان: إنك تملكها.

فأجاب ماريوس: إذًا ليس أحب إلى من أن أنفقها إلى آخر سنتيم في سبيل العثور على هذا الرجل.

فصمت جان فالجان.

* * *

(1) الرمق: بقية الحياة في الجسم.

(2) الجازف: أخاطر.

الفصل التاسع

ليلة الزفاف

كانت ليلة 16 فبراير من الليالي الخالدة في حياة كوزيت في هذه الليلة، ليلة زفافها، كانت ربيبة[1] جان فالجان ملاكًا يشع حوله الحب والجمال والسعادة.

وقد مدت المائدة الكبري في بهو[2] واسع أضيئت في جوانبه الشموع المعطرة. وانتشرت في أنحائه باقات الزهر.

وراح الشيخ جيلنورمان يتقل بين الغرف متبخترًا[3] مختالاً[4] كأن الليلة ليلة زفافه.

وجلس جان فالجان على مقعد وراء احد الأبواب وقد شدّ ساعده إلى عنقه. كان قد جرح إصبعه منذ أيام، ورفض أن يسمح حتى لكوزيت أن تري الجرح. واقتربت الفتاة من الشيخ الذي وَفَر لها كل هذه السعادة، وسألته بصوت رقيق، فيه دعابة الطفل وسخريته: هل أنت سعيد يا أبي؟

فأجاب جان فالجان: نعم.

(1) الربيبة: التي ربَّاها وهي من رجل غيره.
(2) بهو: المكان المخصص لاستقبال الضيوف.
(3) متبختزا: يمشي مشية المعجب بنفسه.
(4) مختالا: يمشي بكبرياء.

- إذًا فاضحك فضحك.

وبعد بضع دقائق، دُعي القوم لتناول الطعام، فداروا حول المائدة.

وكان هناك مقعدان كبيران حول مقعد العروس، أحدهما لجيلنورمان والثاني لجان فالجان. فجلس الأول في مقعدة، وبقي المقعد الثاني خلوًا[1] من صاحبه.

وانقضت بضع دقائق، ولم يحضر فوشليفان. فصاح جيلنورمان بخادمه:

- ألا تعرف أين ذهب مسيو فوشليفان؟

فأجاب باسك: نعم يا سيدي. إنه طلب إلى أن أنبئك بأنه يشعر بألم في إصبعه ويعتذر لعدم قدرته على تناول الطعام.

فوجم[2] المدعوون، ولكنهم أقبلوا على الطعام بعد ذلك، وأغناهم وجود جيلنورمان عن وجود فوشليفان.

أما جان فالجان فإنه بعد أن ضحك كما طلبت منه كوزيت، نهض واقفًا دون أن يشعر به أحد، وتسلل إلى الغرفة المجاورة التي دخلها منذ ثمانية أشهر، عندما نقل إليها جثة ماريوس، وهناك صادفه باسك. فأشار إلى ساعده المشدود إلى عنقه، وطلب منه أن يبلّغ المدعوين اعتذاره، ثم عاد إلى منزله وأضاء المصباح.

وكان المنزل خلوًا مقفرًا. فأحدث وقع أقدامه على الأرض جلبة غير عادية.

(1) خلوًا: فارغًا، خاليًا.

(2) وجم: عبس وحزن.

نظر إلى الجدران، وأغلق الخزانة، وانتقل من غرفة إلى أخرى. ثم عاد إلى غرفته، ووضع المصباح على المائدة، وحل الرباط الذي يشد ساعده إلى عنقه، واستخدم أصابع يده كما لو لم تكن بها إصابة.

ثم انتقل بصره إلى حقيبة صغيرة في أحد الأركان، فتناولها، وفتحها وأخرج منها الثياب التي كانت كوزيت ترتديها منذ عشرة أعوام، يوم غادرت معه حانة تيناردييه.

أخرج الثوب، والمئزر[1] والمنديل، والحذاء الضخم والجوارب، وبسطها جميعها على الفراش. فوضع المنديل في جيب المئزر، والجوارب تحت الثوب، والحذاء تحت الجوارب، ونظر إليها جميعًا، وخيّل إليه أنه يري كوزيت أمامه، كأول عهده بها، طفلة في الثامنة من عمرها. تمسك يده بإحدى يديها، ودميتها باليد الأخرى، وهى تضحك، وليس لها في الحياة سواء.

تأمّل الثياب طويّلا. ثم سقط رأسه الأبيض الوقور[2] فوق الفراش، ودفن وجهه بين تلك الثياب، وتداعي[3] قلبه الكبير، فبكي بكاء الأطفال.

شعر جان فالجان في تلك الليلة بأن يقاتل في المعركة الأخيرة وقد احتلَّ سؤالٌ واحد هو: كيف ستكون صلته بسعادة كوزيت وماريوس؟

إنه أراد تلك السعادة، وعمل لها، وأوجدها، وهو الآن ينظر إليها كما ينظر

---

(1) المئزر: لباس يحمي الثياب في العمل.

(2) الوقور: الرزين، الرصين.

(3) تداعي: انكسر.

صانع السيوف إلى أسمه منقوشًا على نصل السيف[1] الذي طُعن به نفسه. فماذا تكون صِلته بهذه السعادة بعد الآن؟

ولقد أصبحت كوزيت مُلكًا لرجل آخر. فهل من حقه أن يحتكر لنفسه منها أعظم قسط يستطيع احتكاره؟

هل من حقّه أن يفرض نفسه على سعادتها فرضًا بالصفة التي كانت له قبلاً كوالدها؟!

هل من حقّه أن يُثقِلُ مستقبلها بماضيه دون أن ينطق بكلمة؟

قضى الليل كلّه، وهو يُلقي على نفسه هذه الأسئلة ويحاول أن يجد لها جوابًا. وانبثق الفجر وهو ما يزال في مكانه أمام الفراش.

أثنتا عشرة ساعة قضاها كذلك دون أن يأتي بحركة أو ينطق بكلمة.

كان يُخيَّل للناظرين إليه أنه رجل ميت، فإذا ألصق فمه بثوب كوزيت وقبّله، عندئذ فقط تبدو عليه علامات الحياة.

* * *

(1) نصل السيف: حديدته.

الفصل العاشر

قبر الماضي

خيم على بيت جيلنورمان في اليوم التالي ذلك السكون العميق الذي يعقب[1] السهرات الصاخبة[2].

وكان باسك يعمل في ترتيب الأثاث، حين سمع طرقًا على الباب ففتحه، فإذا الطارق مسيو فوشليفان.

سأله جان فالجان: هل استيقظ سيدك؟

- أيهما؟ العجوز أو الشاب؟

- أبارون بونمرسي.

- آه.... لا اعلم.... سأتحقق من ذلك. هل أقول له إن مسيو فوشليفان يريد مقابلتك؟

- كلا، لا تقل له إنني زائر. قل له إن شخصًا يطلب التحدث إليه على انفراد، ولا تذكر له اسمي.

ولاحظ جان فالجان دهشة الخادم فاستطرد: إنني أريد مفاجأته.

(1) يعقب: يتلو، يتبع.

(2) الصاخبة: الكثيرة الجلة والضوضاء.

وبقي جان فالجان جامدًا في مكانه حيث تركه الخادم.

كان غائر العينين[1] من تأثير التعب والانفعال والبكاء، وقد تهدّل ثوبه الجديد بعد تلك الليلة المسهّدة[2] الطويلة.

وما هي إلا لحظة، حتى أقبل ماريوس، وهو منتصب [3] القامة مرفوع الرأس، ضاحك الثغر لامع العينين.

لم يكن بدوره قد تذوّق طعم النوم في تلك الليلة.

هتف الشاب: أهذا أنت يا أبي، لماذا إذًا لم يذكر الأحمق «باسك» اسمك؟ ولكنك جئت مبكرًا يا أبي، فالساعة الآن الثانية عشرة، ولا تزال كوزيت نائمة.

كانت كلمة «أبي» التي تردّدت في فمه دليلاً على مبلغ سعادته وجذله[4]. ذلك أن الصلة بين الرجلين كان يخالطها دائمًا شيء من البرودة والفتور، ولكن حرارة السعادة التي تعتمل في نفس الفتي، أذابت هذه البرودة، وجعلته يري في فوشليفان «أبًا» له، مثل كوزيت.

واستطرد ماريوس: ما أشدَّ سعادتي بلُقياك! كيف حال إصبعك؟

ولم ينتظر جوابًا، وأردف على الأثر:

- لقد تحدّثنا عنك طويلًا، لأن كوزيت تحبك كثيرًا، فلا تنسَ أن لك غرفة هنا: نحن لا نريد أن تقيم في شارع لوم آرميه، إنه زقاق ضيّق صغير يفتقر

(1) غائر العينين: عيناه غارقتان في وجهه.
(2) ليلة مُسهدة: ليلة أرِق فيها وامتنع عليه النوم.
(3) منتصب: مرتفع.
(4) جذله: فرحه.

إلى أسباب الصحة، ويجب أن تنتقلّ للإقامة معنا منذ الآن، وإلا حاسَبَتْك كوزيت حسابًا عسيرًا[1]. إننا أفردنا لك الغرفة[2] المجاورة لغرفتنا، وهي غرفة فسيحة تطلُّ على الحديقة، وسوف يرحّب جدى بإقامتك معنا، ثم إن كوزيت قد تحتاج إليك لتستندَ على ساعدك إذا خرجتْ للنزهة، كما كانت تفعل في حدائق لكسمبوغ.

إننا مصممون على أن نكون سعداء، ويجب أن تشاطرنا[3] سعادتنا، أسمعت يا أبي؟ وبهذه المناسبة، يجب أن تتناول طعام الإفطار معنا.

فقال جان فالجان: إن لي ملاحظة واحدة، يا سيدي، هي أنني كنت من نزلاء الليمان.

* * *

توجد أشياء تستحيل على العقل[4]، وأشياء تستحيل على الأذن، وقد كانت العبارة التي نطق بها جان فالجان مستحيلة على العقل والأذن معًا فلم يعِها[5] عقله، ولم تَعِها أذنه، وقد شعر بأن شيئًا قيل له، ولكنّه لم يدر ما هو.

وقف مفتوح الفم، فيما أخذ جان فالجان يحلّ[6] رباط يده، حتى إذا فرغ

---

(1) عسيرًا: صعبًا.
(2) أفردنا لك الغرفة: أخليناها وجعلناها لك وحدك.
(3) تشاطرنا: تقاسمنا.
(4) تستحيل على العقل: يعجز العقل عن إدراكها.
(5) لم يعها: لم يفهمها، وعي الكلام: فَهِمه.
(6) يحلّ: يفك.

من ذلك، بسط أصابعه أما عيني ماريوس، وقال:

- ليس بيدي شيء فقد كان من الضروري أن أتواري من حفلة الزفاف. فاخترعت حكاية الجرح، لكيلا أرتكب جريمة تزوير تلغي عقد الزواج.

فغمغم ماريوس وهو يترنَّح[1] في مكانه: ماذا تعني؟

فصاح ماريوس في ذعر: أتريد أن تفقدني عقلي؟

- أصغ إلي يا مسيو يونمرسي، إنني قضيت في الليمان تسعة عشر عامًا بتهمة السرقة، ثم حُكم علي بالسجن المؤبد لسرقة أخرى. فأنا الآن سجين هارب.

وكان جان فالجان يتكلَّم بلهجة جادَّة وزينة. فانكمش الفتي، وهاله ما سمع. وانقضَتْ بضع دقائق، قبل أن يتمكَّن عقله من هضم الحقيقة[2] المستحيلة.

ثم صاح في ذُعر وهو يتراجع إلى الوراء: أنت...... أنت... والد كوزيت؟

فرفع جان فالجان قامته بكبرياء حتى كأن طوله تضاعف، وقال:

- يجب أن تصُدِّق كل كلمة أنطق بها يا سيدي، وأن تكن أيماننا[3] أمام المحاكم لا قيمة لها ولا وزن.

إنني لست والد كوزيت، كلا، بحقِّ السماه لست والدها. إنني فلاح بسيط من أهل فافيرول، واسمي جان فالجان، لا فوشليفان.

ولا قرابة من أي نوع بيني وبين كوزيت، فكن مطمئنًا.

---

(1) يترنح: يتمايل.
(2) من هضم الحقيقة: من استيعابها.
(3) إيماننا حلفنا اليمين، قسمنا.

فغمغم ماريوس وقد أثملته[1] الدهشة: وأين الدليل؟

- كلامي هو الدليل.

فنظر ماريوس إلى الرجل، فألفاه حزينًا، هادئًا، ولا يمكن أن يصدر الكذب عن مثل هذا الهدوء.

قال: إنني أصدّقك.

فأحنى جان فالجان رأسه كأنما ليسجّل هذه الحقيقة واستطرد:

- هل تريد أن تعرف صلتي بكوزيت؟ ما أنا إلا عابر سبيل في حياتها، ومنذ عشرة أعوام لم أكن أعلم لها وجودًا، ولكني أحبُّها كما يحبُّ كبار الشيوخ صغار الأطفال. كانت يتيمة الأبوين، وبحاجة إلي، فأوقفتُ عليها حبي وحناني. أما الآن فقد خرجت من حياتي، وانقطعت أسباب[2] دنياي من أسباب دنياها، وتفرقت بنا السبل[3]، وأصبحتُ لا أملك لها نفعًا.

آراك لا تنطق بكلمة عن الست مئة ألف فرنك، ولكني أعرف ما يدور بخلدك[4]. فاعلم إذًا أن هذا المبلغ وديعة[5] بين يدّي. لا تسألني عن مصدر هذه الوديعة، أو كيف انتهت إلي. فذلك لا يهم في قليل أو كثير، وبحسبي أنني رددتُ الوديعة إلى أصحابها.

---

(1) أثملته: أسكرته.

(2) أسباب: صلات، ما يربط الإنسان بالآخر.

(3) السبُل: الطُّرق؛ و «تفرقت بنا السبل»: ذهب كلُّ منّا في طريقة، افترقنا.

(4) بخلدك: بفكر، يذهنك.

(5) وديعة: أمانة.

فزادت دهشة الشاب، ثم ما لبث أن صاح:

- ولكن لماذا تقول لي كلَّ هذا؟ مَنْ ذا الذي يرغمك على أن تقولَه؟ أما كان أجدر بك أن تحتفظ لنفسك بهذا السّر، ما دمت بمأمن من الفضيحة والمطاردة؟

- أتسألني لماذا أصارحك بكل هذا؟ وتقول إنني بمأمن من الفضيحة والمطاردة؟ كلا. إنني مطارّد، ومن ذا الذي يطاردني؟ ضميري يطاردني. فهو الذي يتعقَّبني[1]، ويقبض عليّ، ويحاكمني، ومتي سقط الإنسان فيضبة ضميره، فلا مفّر له.

- وأمسك عنقَه بقيضة يده واستطرد:

انظر إلى هذه اليد. أتري أنها تقبض على العنق بحيث لا يستطيع منها خلاصًا؟! إن الضمير يختلف كثيرًا عن قبضة اليد. فإذا شئت أن تعيش سعيدًا يا سيدي، فحاول ألا تفهم الواجب لأنك إذا فهمته وقعت تحت نيره.

وكفّ عن الكلام قليلاً، ثم استطر في هدوء وسكينه:

- يا مسيو يونمِرسي، إنني رجل أمين. وأنا ارفع نفسي في نظري بتحقيرها في نظرك.

- وصمت مرة أخرى وازدرد لعابه[2] بصعوبة كأنما تمضهّ[3] مرارته.

- متى كان للإنسان ماض كماضيّ، فليس من الإنصاف أن يُحمّلَ الآخرين

---

(1) يتعقبني: يخلق بي، يطاردني.

(2) ازدرد لعابه: ابتلع ريقه.

(3) تمضّه: تؤلمه.

أهواله[1] دون أن يشعروا.

- لقد أعارني فوشليفان أسمه. ولكن لا حقَّ لا في أن أحملَ هذا الأسم، لأن الاسم يعبِّر عن الشخصية. والرجل الذي يحمل اسمًا غير اسمه هو جريمة تزوير مجسَّمة[2] في لحم ودم. والتقط أنفاسه بصوت مسموع، وقال في هدوء:

- فيما مضي سرقت رغيفًا لكي أعيش؛ ولكني اليوم أسرق أسمًا لكي اعيش.

- لكي تعيش؟ إنك لست بحاجة إلى هذا الأسم أو أي اسم آخر لكي تعيش فهزّ جان فالجان رأسه مرارًا وقال: إنني أفهم نفسي. وساد بين الرجلين صمت عميق. فقد أمسك[3] كل منهما عن الكلام[4] واستغرقا في التفكير.

وأخيرا غمغم الطُّريد: لقد زال الآن عن صدري حِملٌ ثقيل!

وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابًا إلى أن وقف فجة أمام ماريوس وقال:

- هَبِ الآن يا سيدي أنني أصارحك بالحقيقة، وأني مازلت فوشليفان، وأنني احتللت مكاني في بيتك وأصبحتُ احدًا من أسرتك.

وهب أننا - نحن الثلاثة - قد خرجنا للنزهة، أو دُعينا إلى سهرة فمشينا جنبًا إلى جنب، لأنك تعتقد أنني لا أقلّ عنك شأنًا[5] وكرامة.

وأخيرًا هَبْ أنّ صوتًا صاح فجأة - ونحن نتحدّث ونضحك -«هوذا جان

---

(1) آهواله: مخاوفه

(2) مجسمة: متّخذة جسمًا.

(3) امسك عن الكلام: توقّف ولم يتكلّم.

(4) شأنًا: حالًا.

(5) أماطت: كشفت الغطاء.

فالجان»، وأن يد الشرطة امتدّت فجأة من الظلام وأماطت اللثام[1] عن وجهي...فماذا يكون؟

وصمت. وأحسّ ماريوس برعدة قوي تمشي في جسدة

قال جان فالجان: ماذا تقول في هذا ؟

فلم يُجب ماريوس، وأردف الطريد: هل أنت تري يا سيدي أنني أحسنتُ صنعًا إذ صارحتُك بالحقيقة؟ فعش أنت سعيدًا، وكن ملاكًا، وانعم بالحب في ضوء الشمس، ولا يزعجَنَّك اعتراف شقيٌّ يري من واجبه أن يعترفَ أن أمامك رجلاً بائسًا ياسيدى.

فاجتازَ[2] ماريوس الغرفة ببطء، حتى إذا اقترب من جان فالجان، بسط إليه يده.

ولكن جان فالجان لم يحرٌك ساكنًا فاضطرَّ ماريوس أن يتناول يده وجدها كقطعة من الخام. قال:

– إن لجدي أصدقاء من ذوي النفوذ، وفي استطاعته أن يحصل لك على عفو.

فإجاب جان فالجان: لا فائدة من ذلك يا سيدي، فهم يعتقدون أنني متّ، وذلك يكفي، فالموتى لا يوضعون تحت الرقابة، والموت أشبه بالعفو.

وخلّص يده من ماريوس وأردف: وبعد، فإنني لا أعرف من الأصدقاء غير الواجب. ولا أطلب إلا عفوًا واحدًا، وهو عفو ضميري.

---

(1) اللثام: كشفت الغطاء.

(2) اجتاز: عبر.

وفي هذه اللحظة، فتح أحد أبواب الغرفة بلطف، وأطل منه رأس كوزيت. كان شعرها المضطرب يزيد جمال وجها وكانت حركتها أشبهَ بحركة الطير حين يطل برأسه من وَكره نظرت أولاً إلى زوجها، ثم نظرت إلى جان فالجان وصاحت وهي تضحك: أراهن على أنكما تتحدثان في السياسة، أما كان الأجدر بكما أن تقضيا الوقت معي؟

فبهت جان فالجان، وهتف ماريوس: كوزيت.

ثم صمت، واصطدمت عيناه بعيني جان فالجان.

وقالت كوزيت، وهي ما تزال تبتسم ابتسام الوردة النّضِرَة[1].

- لقد فاجأتُكُما، وسمعت الاب فوشليفان يتحدّث عن الواجب والضمير، وذلك حديث سياسي لا أسمح به قط.

فأجاب ماريوس: إنك مخطئة يا كوزيت، فحديثنا يدور حول شؤون أخرى لا تتّصل بالسياسة، إننا نفكُر في أفضل وسيلة لاستثمار ثروتك.

فقالت: سأدخل، وإن كان يُخيّل إليّ أن وجودي غير مرغوب فيه.

فلم ينطقْ جان فالجان بكلمة وتحولت إليه كوزيت وهي تقول:

- إني أطالبك أولا يا أبي، بأن تخف[2] لمقابلتي وتقبّلني. ما معنى صمتك هذا؟ أرايتَ أبًا كهذا الأب يا ماريوس؟ تعال وقبّلني في الحال.

- وقدّمت إليه جبينها، فاقترب منوا خطوة، ولكنها اعتدلُت[3] فجأة وهتفت:

(1) النظرة: الجميلة.
(2) تخفّ: تسرع.
(3) اعتدلت: وقفت مستقيمة.

- ماذا بك يا أبي؟ أنك ممتقع الوجه. ألا تزال إصبعك تؤلمك؟

فأجاب: كلا

- هل أصابكَ أرق[1] الليلة؟

- كلا.

- هل أنت حزين؟

- كلا.

- قبّلي إذاً.

وقدّمت إليه جبينها، فقبّله.

وقال: ابتسمْ.

فأطاع جان فالجان، ولكنها كانت ابتسامه الأشباح.

قالت كوزيت: والآن سأبقي معكما.

قالت ماريوس متوسّلاً[2]: كلا يا كوزيت، إننا نتحدث في أمر مهمّ. ويجب أن نفرغ [3] منه:

- يالك من زوج قاس! وأنت يا أبي، لماذا لا تضمّ صوتك إلى صوتي؟! ما أشدَّ قسوتكما! سأشكوكما إلى جدي.

وانطلقت من الغرفة كالغزال النافر[4]

---

(1) أرق: عدم النوم.

(2) متوسّلاك راجيًا.

(3) أن نفرغ: أن ننتهيَ.

(4) النافر: الهارب.

كان قدومها وانصرافها أشبه بومضّة[1] البرق في غرفة مظلمة.

وهزّ ماريوس رأسه وقال: مسكينة كوزيت متي علمتْ....

فارتجف جان فالجان من قمّة رأس إلى أخمص قدميه... ونظر إلى ماريوس بعينين شاردتين، وقال: كوزيت؟ آه. صحيح أنك ستحدّثها بكل شيء، ولكن صبرًا، إنني لم أفكّر في ذلك. إن الإنسان قد يحتمل صدمة تزلزل كيانه[2] ولكنه قد لا يحتمل صدمة أخرى في ذلك. أتوسّل إليك يا سيدي. عدني بألا تحدثها بشيء، أتقول لها إنني سجين هارب؟! كلا! كلا! أواه يا إلهي!.

وغاص في أحد المقاعد، ودفن وجهه بين كفيه.

لم يسمع أحد صوت بكائه. ولكنّ اهتزاز كتفيه دلّ على أنه يبكي.

كانت دموعه صامتة، دموعًا رهيبة.

وسمعه ماريوس يتمتم بصوت خافت كأنه منبعث من جوف هاوية لا قرار لها:

- أوّاه، ما أحبّ الموت!

- رَفّه عن نفسك يا سيدي، فساكتم سرّك.

وكان في صوته شيء من الخشونة، فإن الفظاعات التي سمعها خلال الساعة الأخيرة على غير انتظار، جعلته يري الهوّة العميقة التي تفصل بينه وبين هذا الرجل. وقال بعد لحظة:

(1) ومضة: لمعة.

(2) كيانه: شخصيته: طبيعته.

- ولكني أي أنه من المستحيل ألا أقول كلمة في صدد الوديعة التي رددتها، فتلك أمانة تُحمَد[1] عليها، وتستحقُّ من أجلها أن تثاب[2]، فاذكر المكافأة التي تطلبها . أطلب المبلغ الذي تريده، ولا يهمّك إن يكون جسيمًا.

فأجاب جان فالجان بلطف: إنني أشكرك يا سيدي.

وأطق رأسه مفكرًا، ثم قال بعد لحظة: انتهي كل شيء تقريبًا يا سيدي، ولم يبقَ لي إلا شيء واحد. ثم تمتم بصوت خافت مرتجف:

- الآن وقد علمتَ كلَّ شيء يا سيدي، فهل تعتقد - أنت السيِّد هنا - أنه لا يجدر بي[3] أن أحضرَ مرة أخرى لزيارة كوزيت.

- فأجاب ماريوس ببرود: أظنُّ ذلك.

فتمتم جان فالجان: إذًا لن أزورها مرَّة أخرى.

ومشي إلى الباب، ووضع يده على مقبضه، وفتحه، وهمَّ بالخروج، ثم عاد فأغلقه فجأة، ثم فتحه مرة أخرى وتحوّل إلى ماريوس.

كان شاحب اللون.... وفي عينيه بريق مخيف.

قال بصوت هادئ: مهلاً يا سيدي... إذا سمحت لي فإنني أحضر لرؤيتها، أؤكد لك أنني أتوقُ[4] كثيرًا إلى رؤيتها. ولولا ذلك ما اعترفت لك بما اعترف ولذهبت دون أقابلَك؛ ولكنني أردت البقاء حيث توجد كوزيت. أردت البقاء لكي

(1) تحمد: تشكر.

(2) تثاب: تكافأ.

(3) لا يجدر بي: لا يحقُ لي.

(4) أتوق: أشتاق

أراها دائما.

فصارحتُك بالحقيقة كلّها! فإذا لم يكن ثمة مانع، فإنني أحضر لرؤيتها بين وقت وآخر. وأعدُك بألا أطيل زيارتي. نعم يا سيدي، إنني أودّ أن أري كوزيت ولو نادرًا ثم إن انقطاعي الفجائي، قد يبدو في نظرها غريبًا، وقد يترك في نفسها أثرًا سيئًا.

فقال ماروسي: في استطاعتك أن تأتي لزيارتها كلّ مساء وستجدها في انتظارك.

- أنت طيّب القلب ياسيدي.

- شيَعت [1] السعادة اليأس إلى الباب، وافترق الرجلان.

ذهل[2] ماريوس، وفهم سرّ النفور الذي كان يشعر به نحو هذا الرجل كلما قابله مع كوزيت.

إذاً ففوشليقان هو جان فالجان الطريد.

ولكن اكتشافه هذه الحقيقة وهو في عنفوان سعادته[3]، كان أشبه باكتشاف عقرب في وكر حمامة.

وخيل إلى الشاب بعد أن سمع اعتراف جان فالجان أنه فهم أشياء كثيرة. خيل إليه فهم لماذا أنه فهم لماذا ذهب جان فالجان إلى التماريس في تلك الليلة المشؤومة مع أنه لم يشترك في القتال، وتذكر كيف رآه وهو يسوق جافير إلى مصرعة كما يساق

(1) شيعت: رافقت مؤدعة.
(2) ذهل: اندهش.
(3) عنفوا سعادتك: قمّة سعادته.

الحيوان للذبح. لا بد أنه كانت بين الرجلين عداوة مريرة، وطبيعي أن تكون هناك عداوة بين الشرطي والمجرم الهارب من الليمان، وإذا فهذا المجرم؟ فهذا المجرم لم يذهب إلى المتاريس إلا لينتقم من غريمه، ومن يدري؟ فلعله سمع نبأ وقوعه في أسر الثوّار فكر في ذلك، وفكر طويلا، وامتلأ ذهنه بأسئلة أخرى كثيرة سأل نفسه: ما هي الظروف العجيبة التي جمعت بين جان فالجا وكوزيت، بين الذئب والحمل؟ بين الذئب والحمل؟ وكيف قضت كوزيت طفولتها، ثم فتنتها، وشبابها، وفي كنف[1] هذا المجرم العنيد.

وفي مساء اليوم التالي، طرق جان فالجان الباب ففتح باسك، وحيا الزائر وقال له:

– لقد أمرني سيدي البارون أن استفسر منك عما إذا كنت ترغب في البقاء هنا أو الصعود إلى الطابق الأول؟

– فأجاب جان فالجان: بل سأبقي هنا.

فذهب به الخادم إلى غرفه استقبال في الطابق الأرضي، وقدّم له مقعدًا. كانت غرفة مظلمة تنبعث عفونة الرطوبة من جدرانها، وقد رأي جان فالجان النار تستعر في موقدها. فأدرك أن بقاءه في الطابق الأرضي كان منتظرا.

وأقبلت كوزيت، فلم يرّها جان فالجان؛ ولكنه شعر بوجودها فنهض واقفا، ورمقهما بنظرة إعجاب.

كانت جميلة كالشمس المشرقة.

(1) كنف: رعاية.

قالت له مؤنبة: ما معني هذا يا أبي؟ أعلم أنك غريب الأطوار[1] ولكن لم أتوقَّع أن تبلغ غرابة أطوارك إلى هذا الحدّ.

لقد قال لي ماريوس إنّك ترغب في زيارتي هنا.

فأجاب: هذا صحيح.

قالت: لقد كنت أتوقّع هذا الجواب. فكن على حذر، وإلا أنزلتُ بك أشدُّ عقاب، وقدمت إليه خدها، ولكنه ظلَّ جامدًا لا يتحرّك.

قالت: يخيلُ إلى أن الموقف يتطور تطورا خطيرا، لماذا أنت ناقم [2] عليَّ، هل أسأت إليك؟ هلم معي إلى غرفة الاستقبال الأخرى في الطابق الأول.

- مستحيل.

فذهلت، وهتفت: ولكن لماذا؟ لماذا يقع اختيارك على أحقر غرفه في المنزل؟

- أنت تعلمين يا سيدتي أنني على شيء من غرابة الأطوار.

فصاحت: يا سيدتي؟ هذه نغمة جديدة، فما معني كل هذا؟

فابتسم لها جان فالجان ابتسامه كسيرة[3] وقال: إنك أردت أن تكوني بارونة، وقد صرت كذلك

- ولكني لست بارونة بالنسبة إليك يا أبي

(1) الأطوار: الأحوال، التصرفات والطباع.

(2) ناقم: غاضب بشدة، رافض

(3) كسيرة: مهزومة، محطمة

- لا تدعيني[1] أباك

- وكيف أدعوك إذًا؟

- أدعيني مسيو جان فالجان، أو جان فقط.

- ألم يعُدْ من حقي أن أدعوك أبي، ومن حقك أن تدعوني ابنتك!!.

* * *

(1) لا تدعيني: لا تسّميني.

الفصل الحادي عشر

الحقيقة

في ذلك المساء، كان ماريوس يهمّ بالخروج من قاعة الطعام حين قدّم له باسك رسالة وهو يقول: إن صاحب هذه الرسالة ينتظر في قاعة الاستقبال.

ففضّ[1] ماريوس الرسالة وقرأ ما يلي:

«سيدّي البارون. كتب هذه الرسالة يعرف سرًا يهمّك، وهو على استعداد لأن يضعَ معلوماته في تصرّفك».

تيناردييه

دهش ماريوس. وأعاد تلاوة[2] هذه الرسالة، ثم تذكّر أنه سمع هذا الاسم قبل الآن. ولكن أين؟ أين؟ نعم إنه سمعه في غرفة جوندريت. إنه اسم جوندريت نفسه. ولكن ما نوع السرّ الذي يعرفه هذا الشقيّ؟

وعلى الرغم من عناية تيناردييه بتغيير زيّه وملامحه، فقد عرفه ماريوس حالما وقع بصره عليه.

حيّاه ببرودة، وقال له دون أن يدعوه إلى الجلوس: ماذا تريد؟.

---

(1) فض الرسالة: فتحها.

(2) تلاوة: قراءة.

فأجاب تيناردييه: هل تَفَضَّلَ سيدي البارون وقرأ رسالتي؟

- نعم. ولكنها تحتاج إلى إيضاح.

- إنني أعرف سرًّا وأريد أن أبيعَه.

- وهل يهمّني أن أعرفَ ذلك السرّ؟

- أظنّ ذلك.

- تكلّم إذًا.

- إن سيدي البارون يُؤوي في منزله لصًا وقاتلاً.

فدهش ماريوس وهتف: في منزلي!

فارتسمت على وجه تيناردييه ابتسامة عريضة وقال:

- نعم يا سيّدي، في منزلك. وإني لا أتكلّم عن أشياء قديمة طوَتْها الأيام، وإنما أتكلم عن حقائقَ حديثة ما يزال رجال العدالة يجهلونها.

يا سيّدي البارون، إن الرجل الذي أعنيه قد اكتسب ثقتك وتسلّل إلى كنف أسرتك تحت اسم مستعار... وقد رأيتهُ معك ومع عروسك في مركبتك في حفلة الزفاف. سأذكر لك الآن اسمه الحقيقي وأذكره مجانًا وبلا ثمن.

- تكلّم.

- إنه يُدعى جان فالجان.

- أعلم ذلك.

- وسأكشف لك عن حقيقة أمره مجانًا كذلك. إنه سجين سابق.

- أعلم ذلك.

فدهش تيناردييه، ولكنه لم ييأس.

قال: ذلك دليل على أنني استقي المعلومات[1] من مصادرها. والآن يبقى السرّ الذي لا يعرفه سواي، وهو سرّ خطير من شأنه أن يؤثّر في مركز سيدتي البارونة. ولكنني سأبيعك هذا السرّ لقاء أربعين ألف فرنك فقط.

فقال ماريوس ببرودة: إنني أعرف هذا السرّ أيضًا.

فذعر تيناردييه وهتف: يا إلهي! هل معنى ذلك أنني لن أتعشّى الليلة؟ إن السرّ عجيب جدًا يا سيدي وسأذكره لك. أعطني عشرين فرنكًا.

فنظر إليه ماريوس بإمعان، وقال: إنني أعرف سرك الخطير أيضًا.

ألا تريد أن تقولَ إن جان فالجان لصّ لأنه سرق أموال رجلٍ من أصحاب المصانع يدعى الأب مادلين؟. وإنه قاتل لأنه فتك[2] بالمفتش جافير.

فنظر إليه تيناردييه في دهشة، وقال: إنني لا أفهمك يا سيدي البارون.

- سأذكر لك الحقائق بالتفصيل. فأصغِ إليَّ. حدث منذ بضعة أعوام أنّ رجلاً في «با دو كاليه» ارتكب جريمة سرقة، فأرسل إلى السجن، وقضى مدّة العقوبة، ولكنه سلك سواء السبيل[3] بعد ذلك، وأطلق على نفسه اسم الأب مادلين، وأنشأ مصنعًا، وجلب الرخاء[4] إلى مدينة رمّتها[5]، ثم عُيّن عمدة لتلك المدينة.

(1) استقي المعلومات: أجمعها.

(2) فتك: قتل.

(3) سلك سواء السبيل: سار في الطريق المستقيم.

(4) الرخاء: الرفاهية.

(5) برمّتها: بكاملها.

واتّفق أن سجينًا آخر وقف على سرٍّ للأب مادلين يوقعه تحت طائلة العقاب، فوشى به، وانتهز فرصة إلقاء القبض عليه، وذهب إلى باريس وسحب من بنك لافيت – وبتوقيع مزوّر[1] – جميع أموال الأب مادلين، وهي تُرْبي[2] على نصف مليون فرنك. تلك هي الحقائق التي وقفتُ عليها من صرّاف البنك ونفسه.

أما السجين الذي سرق الأبَ مادلين فهو جان فالجان. وأما جريمة قتل المفتش جافير، فإنها وقعت تحت سمعي وبصري وفي ظروف أعرفها كما لا يعرفها سواي. أليس هذا هو سرّك الخطير؟

فلمعت في عيني تيناردييه نظرة فوز، وقال: كلا يا سيدي البارون، إنك مخطئ.

– ماذا؟ هل تعرف ما ينقض[3] هذه الحقائق؟

– إن الحقُّ حقّ يا سيدي. وأنا لا أحب أن تصبَّ التهم على الناس جزافًا[4]. فجان فالجان لم يسرق الأب مادلين، وجان فالجان لم يقتل المفتّش جافير، وذلك لسببين.

– ما هما؟ تكلّم.

– إنه أولاً لم يسرق الأب مادلين، لأن جان فالجان هو الأب مادلين.

– ما هذا الجنون؟

---

(1) توقيع مزوَّر: إمضاء مزيّف.
(2) تربي: تزيد.
(3) ينقض: يكذّب.
(4) جزافًا: من دون تفكير، بلا مسؤولية.

- وهو ثانيًا لم يقتل المفتش جافير، لأن المفتش جافير انتحر.

- أتسخر مني أيها الوغد؟

- صبرًا، صبرًا يا سيدي البارون، خذ واقرأ.

وقدّم له صفحة من جريدة قديمة، وأخرى من جريدة جديدة. فقرأ ماريوس في الأولى النبأ الذي أذاعته الصحف عقب اعتقال جان فالجان في باري، وقرأ في الثانية نبأ العثور على جثة المفتش جافير في نهر السين.

ودهش ماريوس وغمغم: إذًا فالرجل لم يقتل ولم يسرق!

- بل قتل وسرق يا سيدي فأصغِ إلي.

وقصّ عليه كيف فاجأ جان فالجان في سراديب المجاري حاملاً جثّة شاب قتله وسرق نقوده.

فصاح ماريوس وقد بدأت تتبلج[1] له الحقيقة: أتذكر متى حدث ذلك؟

فأجاب تيناردييه: طبعًا أذكُر ذلك ولا انساه لقد ارتكب جان فالجان جريمته في ليلة الثورة.

فصاح ماريوس وهو ينهض على قدميه:

_ إنني الشاب الذي قتله جان فالجان... قبّحك الله من وغد يتّجر[2] بأسرار الناس. إنك أنت القاتل وأنت اللصّ يا تيناردييه، أو يا جوندريت، ولقد

(1) تتبلج: تظهر.

(2) يتجر: يتاجر.

رأيتُ بعينَي رأسي كيف نصبتَ في غرفتك شركًا[1] لسرقة جان فالجان.

قال ذلك بلهجةٍ تنمّ[2] عن الغضب، ولكنّ قلبه كان مفعمًا[3] بالشكر والامتنان.

واستطرد قائلاً: قلتَ إنك لا تملك ثمن عشائك؟ خذ، واغربْ عن وجهي أيها النذل. وألقى إليه بورقة من ذوات المائة فرنكًا. فاختطفها ولاذ بالفرار.

وأسرع ماريوس إلى غرفة كوزيت... وصاح وهو يلهث:

- كوزيت... كوزيت... هلمّي بنا... وأنتَ يا باسك، مر بإعداد المركبة. إنه الذي أنقذ حياتي يا كوزيت. فلنذهبْ إليه. لنذهب في الحال!

فلم تفهم كوزيت كلمة من هذا الهذيان[4]، ولكنّها أطاعته.

وصاح ماريوس بالحوذي: هلمّ بنا إلى شارع لوم آرميه.

فانبسطت أسارير كوزيت، قائلة: أتذهب لزيارة مسيو جان؟

- لزيارة أبيك يا كوزيت. إنه أبوك أكثر مما كان في أي وقت مضى. لقد عرفتُ الحقيقة.

* * *

(1) شركًا: فخًا.
(2) تنمّ: تعبّر.
(3) مفعمًا: مليئًا.
(4) الهذيان: التكلّم بغير معقول.

الخاتمة

طرق ماريوس الباب، فسمع من الداخل صوتًا يهمس: أدخل. ففتح الباب، ووثبت كوزيت إلى الداخل.

هتف جان فالجان: كوزيت!

وبسط يديه النحيلتين المرتجفتين. فألقت كوزيت بنفسها فوق صدره، وهي تصيح: أبي!

وغمغم الشيخ: كوزيت، أهذه أنت؟ يا إلهي.

وتقدَّم ماريوس، وهو يُطرق رأسه، والدموع تنهمر من عينيه، وتمتم: أبي!

فقال جان فالجان: وأنت أيضًا؟ هي صفحت عني؟ شكرًا لك.

فصمت ماريوس ولم يقوَ على الكلام.

وخلعت كوزيت قبّعتها ومعطفها، وجلست على ركبتي جان فالجان، ورفعت خصلة الشعر عن جبينه وقبّلته. فقال بصوت مرتجف:

– ما أشدّ غباوة الإنسان، لقد كنتُ أقول لنفسي في التوّ واللحظة إنني لن أراها بعد الآن، ولكني آغفلتُ[1] إرادة الله، وهأنذا أرى كوزيت مرّة أخرى.

ثم التفتَ إلى ماريوس وقال: هل تسمح لي أن أدعوَها كوزيت؟. سيكون ذلك

(1) أغفلتُ: نسيت، تجاهلت.

لمدّة قصيرة فقط.

فقالت كوزيت: ما أقسى قلبَك يا أبي! لماذا أمسَكْتَ[1] عن زيارتنا كلَّ هذا الوقت. أنظر يا ماريوس، إن يده باردة. إنه كان مريضًا، وكتم عنّا نبأ مرضه.

وقال جان فالجان مردّدًا:

- إذًا قد صفحتَ عني يا مسيو مونمارنسي. شكرًا لك. شكرًا لك.

- وعندئذ تعذّر على ماريوس أن يضبط العاطفة[2] التي تعصف[3] في أعماقه فصاح:

- هل سمعت يا كوزيت؟ إنه يشركني. فهل تعلمين ماذا فعل من أجلي؟ إنه أنقذ حياتي. بل فعل أكثر من ذلك. إنه نزل عنك لي[4] بعد أن أنقذ حياتي. وبعد أن نزل عنك لي، ضحّى بسعادته في سبيل سعادتنا، وها هو الآن يشكرني.

إن لهذا الرجل كلَّ حسنات الملائكة، يا كوزيت.

فقال جان فالجان في همس: كفى! كفى!

- لماذا لم تحدّثني بكل شيء؟ لماذا لم تقلْ لي إنك الأب مادلين، وإنك أخلَيْتَ سبيل جافير. لماذا لم تقل لي إنك أنقذت حياتي؟!

- لأنني رأيت مثلك أنه من الضروري أن أترككما، ولو صارحتُك بحادث

(1) أمسكت: توقّفت.
(2) يضبط العاطفة: يسيطر عليها ويتحكّم بها.
(3) تعصف: تثور.
(4) نزل عنك لي: تخلّى عنكِ لي.

السرداب لأبيتَ عليّ الرحيل[1]، فضّلتُ السكوت.

- وهل تظنّ أنك ستبقى هنا؟ إنك ستعود معنا! يا إلهي! كلّما فكرت في أنني لم أعرف الحقيقية إلا مصادفة. إنك لن تقضيَ يومًا آخر في هذا المنزل المخيف، فلا تتوهّم أنك ستكون هنا غدًا.

فأجاب جان فالجان: غدًا لن أكونَ في بيتكما.

- ماذا تعني؟ كلا. كلا. إننا لن نسمحَ لك بالسفر، ولن نفترقَ بعد اليوم.

فقال كوزيت: إن المركبة في انتظارنا بالباب، وفي نيتنا أن نلجأ إلى القوة إذا قضت الضرورة!

وضحكتْ، وتظاهرتْ بأنها تهمُّ بحمل الشيخ، واستطردت:

- إن الغرفة التي أعدّدْناها لك في بيتنا ما تزال في انتظارك، فتعال معنا، ولننس «سيّدتي البارونة» و«مسيو جان» ولكن كوزيت... ولتكن أبي.

وأصغى إليها جان فالجان، وسمع موسيقى صوتها، أكثر ممّا وعي[2] معنى كلامها، وانحدرت من عينه دمعة واحدة كبيرة، وغمغم:

- ليس أدلَّ على كرم الله من وجودها هنا هذه الساعة.

ثم استطرد بصوت مرتفع: جميلٌ أن أقيمّ معكما، وجميلٌ أن أرى كوزيت في كل وقت وأن أدعوَها ابنتي، وتدعوَني أباها ولكن...

فأحاطت يدَه بيدها، وقالت: ولكن ماذا يا أبتاه؟! إنّ يدك تزداد برودة. فهل

(1) لأبيت على الرحيل: لرفضتَ رحيلي.

(2) وعي: فهم.

- أنت مريض؟!

- أنا؟ كلا. ليس بي من شيء. وفقط...

وكفَّ عن الكلام مرة أخرى. فسألَتْهُ: فقط ماذا؟!

فأجاب: فقط سأموت في الحال.

فذعر الشابان وهتف ماريوس: تموت؟!

فأجاب: نعم، ولكن ذلك لا قيمة له.

وابتسم واستطرد: كنت تتحدّثين إليّ يا كوزيت، فامضي في حديثك لكي أسمع صوتك.

فاشتدَّ ذعر ماريوس. وصرخت كوزويت في فزع:

- أبي! أبي! إنك ستعيش! لا بدَّ أن تعيش!

فرفع جان فالجان رأسه وقال:

- ليتني أستطيع أن أطيعَك. إنني كنت في طريق الموت عندما دخلت.

فهتف ماريوس:

- إنك ما زلتَ في عنفوان الحياة. أتحسب أنَّ الإنسان يموت هكذا.

إنك عرفت الأحزان. ولكنّك لن تعرفَها بعد اليوم. هأنذا أركع تحت قدميك وأسألك الصفح والمغفرة، فهل تأتي الآن معنا؟

فأجاب جان فالجان وهو ما يزال يبتسم:

- هل يُجديني[1] ذلك؟ كلّ شيء قد انتهى.

(1) يجديني: ينفعني، يفيدني.

فدفنت كوزيت وجهها في صدره، وانفجرت باكية. ولكنه تناول طرف ثوبها، وقبله، والتفت إلى ماريوس وقال:

- لقد آلمني أن تمتنعَ عن مال زوجتك يا مسيو بولمِرسي. إنه مالها، وقد آل[1] إليها من صناعة الخزف والحليّ الزجاجية، هل أدلّك كيف تُصنع هذه الحليّ؟

وكان صوته يزداد خفوتًا. واضطربت أنفاسه، وثقلت أجفانه، فتعاون ماريوس وكوزيت على نقله إلى فراشه.

قال وهو يلهث: شكرًا لكما، لقد كنت واثقًا من أنك تحبينني يا كوزيت. إنني أترك لك هذين الشمعدانين. إنما من الفضّة ولكنهما كانا بالنسبة إليّ أثمن من الذهب وأثمن من الماس.

لا تنسيا يا ولديّ أنني رجل فقير. فلتوضع جثتي في قبور الفقراء. ولا أريد أن يُنَقَشَ اسمي على قبري.

هل ترين هذا الثوب الأسود الصغير يا كوزيت؟ هل تعرفينه؟ إنه كان ثوبك منذ عشرة أعوام فقط، فما أسرع مرور الأيامّ!

أتذكرين قرية بولانجيه يا كوزيت؟ هناك قابلتُك للمرّة الأولى، وكنت خائفة مذعورة، وهناك تناولتُ آنية الماء من يدك.

ثم أتذكرين الدمية الكبيرة؟ كانت مدام تيناردييه شديدة القسوة عليك، ولكن يجبُ على الإنسان أن يتعلّم الصفح.

---

(1) آل: وصل، صار.

أظنُّ أنّ الوقت قد حان لأذكر لك أسم أمك يا كوزيت.

إنها تُدعى فانتين، فتذكري هذا الاسم. فانتين. واجثى[1] على ركبتيك كلّما ذكرتِه. فهو اسم امرأة قاست[2] كثيرًا، وأحبتك كثيرًا، وعرفت من معاني الشقاء بقدر ما عرفتِ أنتِ من معاني السعادة. وهكذا يوزّع الله النعيم والشقاء.

إنني أموت سعيدًا، فاقتربا، لأضعَ يديَ على رأسيكما العزيزين.

فركعا حوله، والعبرات[3] تخنقهما، ووضع جان فالجان يديه على رأسيهما.

ولم تتحرّكِ اليدان بعد ذلك.

(تمت)

(1) أجثى: اركعي.

(2) قاست: عانت، تحمّلت العذاب.

(3) العبرات: الدمعات.





فيكتور هوجو

البؤساء

تبدأ الرواية عام 1815 في مدينة ديني الفرنسية، حيث كان جان فالجان للتو قد أطلق سراحه بعد تسعة عشر سنة قضاها مسجونا في سجن طولون، خمسة عن سرقة خبز لأخته وأطفالها الذين يتضورون جوعا، وأربعة عشر سنة أخرى عن محاولاته العديدة للهرب. والآن، يرفض أصحاب الفنادق في مدينة ديني استقباله لديهم بسبب جوازه الأصفر الذي يشير إلى كونه مجرما سابقاً. وينام على قارعة الطريق يملأه الغضب والمرارة.

يستضيفه شارل ميريل أسقف مدينة ديني في بيته، وفي الليل يهرب جان فالجان سارقاً أواني فضية من بيت الأسقف، وعندما تقبض عليه الشرطة، يتظاهر ميريل بأنه هو من أعطى هذه الفضيات لجان فالجان، ويصر عليه بأن يأخذ شمعدانين فضيين أيضا، كأنما قد نسي ذلك البارحة. تقبل الشرطة هذا التبرير وتمضي. فيخبر ميريل جان فالجان بأن حياته قد وهبت لله، وأن عليه أن يستخدم المال الذي تعدله هذه الفضيات ليجعل من نفسه رجلًا صالحا.

يأخذ جان فالجان كلمات ميريل ويمضي، وفي طريقه يسرق نقوداً من أحد الأولاد ويطرده، لكنه سرعان ما يندم لذلك، وعاد يبحث عن الولد ليعيد إليه نقوده، وفي الوقت نفسه كانت سرقته قد بلغت للشرطة، فيختبئ جان فالجان حينما يبحثون عنه، لأن القبض عليه يعني إعادته إلى سجن طولون مدى الحياة.



01120332525